شاكر الأنباري

ينام وذهنه مشغول

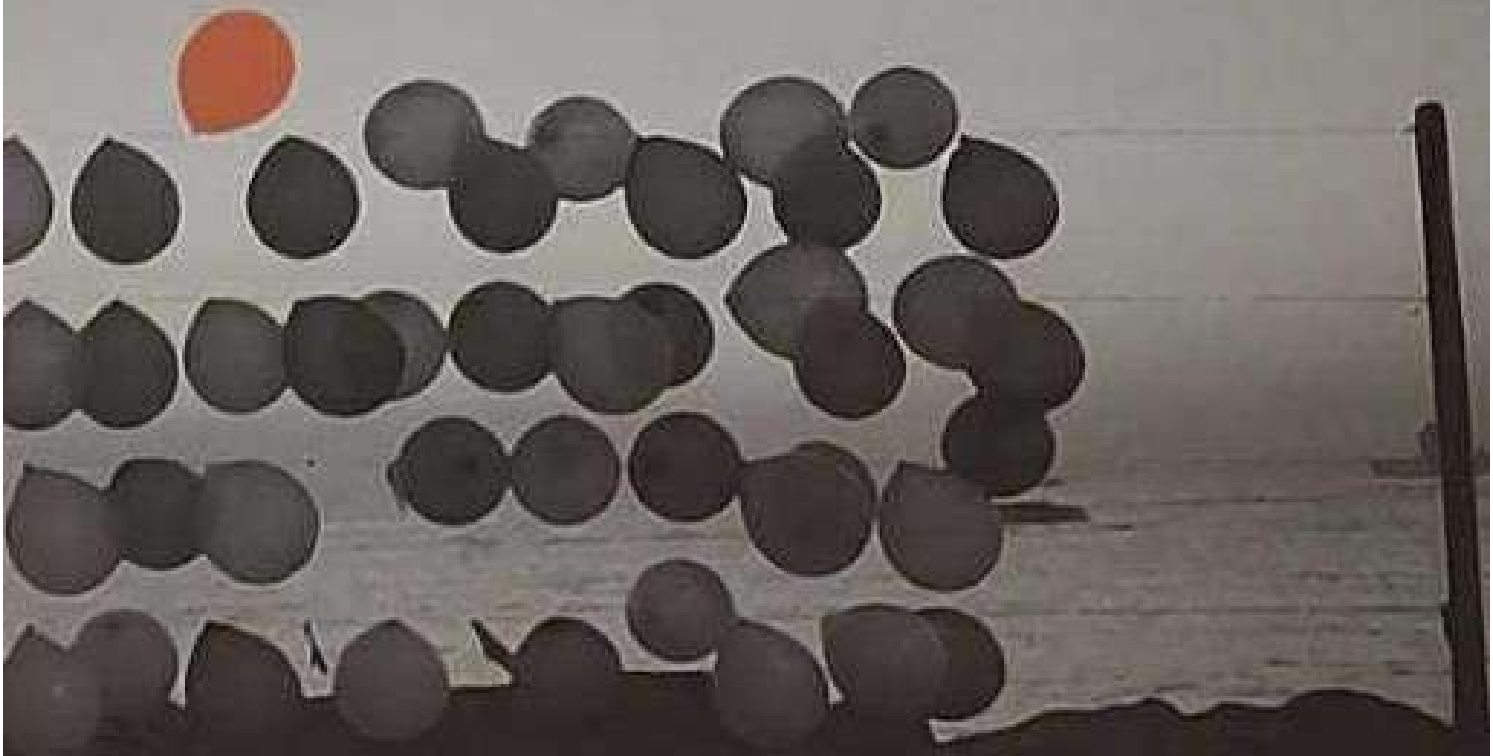

رواية

يَنَامُ وَذِهْنُهُ مَشْغُولٌ

عنوان الكتـــاب: **ينام وذهنه مشغول**
اســـم المؤلـــف: **شاكر الأنباري**
المـوضــــــــوع: **روايـــة**
عدد الصفحات: **280 ص**
القيـــــــــاس: **14.5 × 21.5 سم**
الطبعـة الأولى: **500 /آب/أغسطس 2025 م - 1447 هـ**

رقم الإصدار	روايـــة
1452	**341**

ISBN: 978-9933-38-674-0

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب **4650**
تلفاكس: **+963 11 2314511**
هاتـــف: **+963 11 2326985**

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة
- المنطقة الحرة - مدينة الإعلام للنشر
هاتـــف: **+971 506844076**

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
web: www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
@House Ninawa
Ninawa house
ninawa_publishing_house

العمليات الفنية:
التحـــريــــر والـمــراجعــــة: **دار نينــــوى**
التصميم الداخلي والإخراج: **مازن جندلي**
تـصـمـيــم الغـــــــــــــلاف: **دار نينــــوى**

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

شاكر الأنباري

يَنَامُ وَذِهْنُهُ مَشْغُولٌ

رواية

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحـسب المنايـا أن يكـن أمانيـا

أبو الطّيّب المتنبي

إلى روح أخي علي

1

بدأ احتضاره الطّويل منذ أن تراءى له ذلك الوجه الممتقع، منقبض التّعابير، وهو يلتصق بزجاج النّافذة. وجه مرعب ملأ الجانب الخارجيّ للنّافذة، وتجلّى له بهيئة ثابتة، منفّرة، لا تتحرّك فيها أيّة سمات، كما لو كان يرغب في أن يوحي له برسالة ما، وكان الوقت عصراً، وكانت هناك عينان، وهناك أنف طويل مشوّه، وسمة غير بشريّة في ذلك الوجه. بدا كما لو أنّه هابط من جحيم غامض يختبئ خلف العالم المحسوس للبشر. جناحاه شفيفان ينفرشان في الأفق، ولا يمكن إلّا أن يكون الشّيطان بذات نفسه.

لكن، لِمَ يحدّق إليه بإصرار؟ كما لو يطلب منه السّفر معه، بعد أن يودّع كل ذلك الجمال الذي كان يراه عبر النّافذة. هي نافذة مستشفى بالتّأكيد، كما تراءى لذهنه المشوش، وهي تطل على نهر أزرق المسيل، وجزيرة صغيرة سابحة في وسطه. جزيرة تكتظّ بشجر الغرب والطّرفاء والصّفصاف، رآها في صباح ما، أو مساء ربّما، فهو اعتاد سابقاً المرور في الطّريق المحاذية لها وتقود إلى قريتهم. في اللحظة ذاتها سمع تلك الأغنية الشّجيّة تتردّد في تلافيف دماغه، قادمة من زمان غير هذا الزّمان. مالنّا كلّنا جو يا (رسول)/ أنا أهوى وقلبك المتبول، تتردّد بصوت مطربه البغداديّ المفضّل يوسف عمر. وسرعان ما حملته تلك الأغنية على جناحها وطافت به في أجواء بغداد البعيدة، حيث كان يوسف عمر يغنّي مقاماته في المقاهي، والخانات، والقصور المشادة ذات يوم بأناقة

على ضفاف دجلة، وساحة الميدان المكتظّة بالفتيات الجامعيّات، ومقاهي أبي نؤاس العابقة برائحة السّمك المسقوف، وفضاءات شارع الرّشيد بحاناته ونسائه وخاناته وعرباته المطهمة التي تنقل المسافرين بين الأحياء والمناطق الرّيفيّة.

انتبه (رسول) إلى يديه المشدودتَين إلى ذلك الخيط الرّفيع، خيط الضّغط، ودقّات القلب، وكان جسده ملقىً على سرير وثير، في غرفة صغيرة تطلّ نافذتها على النّهر، مربوطاً إلى الجهاز الوامض. الرّائحة يشمّها بوضوح، مطهّرات وسوائل تنظيف ومعقّمات للمايكروبات والفطريّات والجراثيم، وشاهد الغبرة الخفيفة ليوم سابق على الطّاولة، وكان النّظر في عينيه كليلاً ومغبّشاً، وثمّة أصداء بشعة لقهقهة شيطانيّة تركها ذلك الشّبح في فضاء الغرفة، إذ طار بعدها نحو السّماء البعيدة. عاجلاً سيجيء الموت، كما هجس مع نفسه، وسيودّع طائر النّورس وهو يحوم فوق المياه، وأمواج الفرات المشعشعة تحت الشّمس، والسّماء الزّرقاء التي كثيراً ما تأمّلها وتفكّر بعدها في معنى وجوده على هذه الأرض.

يدخل الطّبيب فجأة، بوجهه المورّد، وعينيه الملوّنتَين، ويسمعهما يتهامسان، هو وزوجته. وثمّة حذر ينطّ من الكلام بينهما، ووجه (براء) لاح له مكفهرّاً خائفاً أمام وصايا الطّبيب. وهو بين يقظة وغفوة ينصت إلى مصيره، مصير الشّاعر الذي ازداد كآبة ويأساً حتّى صار يردّد ذلك القول المأثور عشرات المرّات في اليوم: كلّ شيء باطل وقبض ريح، وقد التمعت المقولة في رأسه كأنّها برق صحراويّ في ليلة ماطرة. من ذلك الهمس، ومن تلك الالتفاتات المتوتّرة كخنجر في لحظة اغتيال، التقط كلمة: ثلاثة، ولم يلتقط

غيرها، هو الخبير باللغة ودهاليزها، ظلالها ورموزها، منذ قراءة صديقه الحميم ابن جني وحتّى أستاذه في اللغة العربيّة إبراهيم السّامرائيّ الذي كان نجم كليّة الآداب ذات سنة. هل يا ترى يتهامسان عن المدّة المتبقية لحياته؟ أكانا يوحيان له بالقشّة التي يفترض به التّمسك بها مثل حلّاج يمشي على جسر الكرخ؟ الجلاجل في معصمه والدّف فوق رأسه، والرّقصة تمتدّ من هذه الأرض حتّى آخر مجرّة في الكون المرصّع بالنّجوم. ثلاثة أيّام، ثلاثة أسابيع، ثلاثة شهور، ثلاث سنين، ثلاثة قرون؟ كلّا لا يمكن أن تكون ثلاثة قرون كما فكّر. فمن المستحيل أن يعيش ابن آدم ثلاثة قرون. لم يفعلها جدّه جلجامش، ولا نبوخذ نصر، ولا إبراهيم الخليل بن سومر المتوّج بالنّبوّة في ظلال معبده. لم يفعلها أحد من أجداده الذين شربوا ماء الفرات: جدّك، يا شاعر، عاش مائة سنة وكان يدخنّ ثمانين سيجارة لفّ كلّ يوم، وعلى ذلك التّخت في المضافة كنت تراه يشفط مشربه المنحوت من شجر الصّفصاف طوال أربعين سنة.

سمع الطّبيب يكرّر جملته بإصرار قبل أن يختفي من مجال رؤيته: خذوه إلى بغداد، سأعطيكم رقم (هاتف) الطّبيب. اتصلوا به بأسرع ما يمكن، لديه عيادة ومختبر للفحص تقع في منطقة الحارثيّة قرب حيّ المنصور. اسمه واثق الجلبيّ، أكملنا دراسة الطّب في جامعة بغداد سويّة، وهو طبيب بارع في مجال تشريح الدّماغ والجملة العصبيّة. هم يمتلكون أجهزة فحص متطوّرة أكثر ممّا نمتلك هنا. وناول ابنه (بشير) رقم (هاتف) العيادة، وأضاف بعد دقيقة وهو يحدّق بـ(رسول)، خلال ساعة ستأخذكم سيّارة الإسعاف إلى البيت، وهذا كلّ ما لديّ.

أبداً، لن يصدّق هذه التّرهات. ماذا سيفعل في ثلاثة أسابيع؟ وهي المدّة التي افترضها للعدد ثلاثة. ليس أمامه سوى أن يستعيد حياته المنصرمة التي تمرّ أمامه مثل شريط سينمائيّ رآه في سينما بابل الواقعة في شارع السّعدون، وكان معتاداً على رؤية معظم الأفلام التي تعرضها. نعم خلال ثلاثة أسابيع فقط، لكنّها لا تكفي لاستعادة حياة إنسان آمن بأنّه ولد منذ فجر الخليقة. يستطيع أن يؤكّد لنفسه بصمت مطلق وشلل جسديّ، إنّ الطّبيب يقصد ثلاث سنين، وهي فترة طويلة للبقاء في مستشفى يطلّ على نهر عريض كان مرآه مألوفاً لعينيه. والنّهر هناك يتدفّق خارج النّافذة، حياة غامضة، ثيّل، طرفاء، سمك، طين حرّي، حمير تعبر السّواقي، شيص النّخيل الذي لم يلقّح بالطّلع الذّكريّ، خبز محروق كانت أمّه تنتشله من التّنور، مطحنة ونساء يرتدين العباءات السّود في المآتم والأعراس. هو شاعر في النّهاية، شاعر سليل القصائد المدروزة بالحزن، والتّحدي، والهيام، والغزل. خارج النّافذة غروب شمسيّ مع انفعالات عشق يصاحبها هواجس ليليّة، كلمات وطريق طويل يضيع في سموم الصّيف، وامرأة وحيدة. كلّ ذلك يصنع قصيدة. زهرة متفتّحة، غصن رطب، ساق داكن اللون، رائحة التّويجات النّفاذة، وبعدها تنطلق من مكان ناء أغنية عذبة: أدخلتني في زهرة الرّمان ثمّ مضيت عنّي، يقول شاعره المهاجر سعدي يوسف، وكلّ ذلك يكوّن نحلة صفراء طائرة تشبه قصيدة هايكو. انتهى، أخيراً، مقعداً داخل جسده المشلول. موت سريريّ لا علاج له.

وخلف الجزيرة النّهريّة نخيل كث تحته طريق مبلّطة تقود إلى قريته. مئات، آلاف المرّات مشى في تلك الطّريق. الصّفصاف واليوكالبتوس والنّخيل أبرز ما تكنز الضّفاف من شجر.

تأتي الصّورة مجرّدة وكأنّها رسمة لبيكاسو، خاصّة والماضي يتجمّد على هيئة صور، ولوحات ملوّنة تظلّل الخيال.

***

وفي ذلك الأفق المرتسم من نافذة المستشفى حملهما الطّريق نحو المنتجع، أخوه فؤاد يقود بهدوء على الطّريق الإسفلتيّة، على اليمين حقول ذابلة، بساتين المشمش والتّفاح والتين لونها أصفر، بعد أن هرب الفلّاحون أمام هجوم داعش، ولم يبقَ في المكان أحد يسقيه، فذبل الشّجر وهو يبدو كأنّه لوحة مرسومة بالزّيت يلتمع وراءها النّهر. غوغان، فان كوخ، رافع النّاصري، جواد سليم، بل هي جداريّة فائق حسن المنتصبة في ساحة الطّيران، المكتظّة بالحمام، والعمّال، والنّساء، والأحلام، والألوان، لكن في أرض لا تبيع سوى الحرائق. النّهر هو الوحيد الذي لم يتأثّر بهجوم أولئك القتلة، فظلّ الماء يجري نحو الجنوب غير عابئ بالخراب، والدّماء، والانفجارات، وبعضها هدم الجسر فقسّمه إلى قسمين. حدث ذلك قبل سنوات، ولكنّه يتذكّر تلك الأيام السّوداء مثل قصيدة عصماء لأبي الطّيب المتنبي.

غاز الخردل، غاز السّارين، اليورانيوم المنضّد، شظايا قذيفة هاون، طائرات رصد من دون طيّار، كلّ ذلك يرسم لوحة ملوّنة لاحتلال البلد. لا تتعب ذاكرته وقد أصبحت هي عالمه الوحيد. الطّائرة الذّبابة تطير في السّماء كأنّها قدر أمريكيّ لا يمكن الهروب منه. غرنغو، غرنغو، غرنغو، يصيح صوت في داخله يعيده إلى تلك السّنين السّود. سنين شعب يقتل بعضه بعضاً دون رحمة. لم يفعلها جلجامش ولا حمورابي، ولا آشور ناصر بال. ومن قبلها صواريخ

أرض أرض، وأغانٍ ثوريّة تتغزّل برائحة البارود. البارود ليس شعراً. الشّعر لا يحمل رائحة البارود. الشّعر يحمل المحبّة يا ديكتاتورنا المعدوم، كما وصفه بألم فيه شيء من الشّماتة المتأخّرة.

يقول له فؤاد في تلك الرّحلة العجيبة قبل أربع سنوات، وقاما بها بعد أن تمّ طرد داعش من القرية، بواسطة الجيش والمتطوّعين المحليّين: سنرى منتجع صالح النّجرس، ولن تصدّق عيناك. يسأل ذاكرته فتجيب، صالح النّجرس وجيه في القرية التي تجاور قريته. قبل هذا التّاريخ تفشّت تنظيمات القاعدة في المنطقة مثل وباء الجدري، في غفلة من الجميع هيمنت على القرى والأرياف، وأتباعها ينشرون تعاليم دينيّة لم يألفها البشر منذ قرون، تزامنت مع احتلال الأمريكان للبلد. ولم تمرّ سوى سنوات على إزاحتها من المشهد حتّى وفدت موجة ثانية من الأفكار الشّاذّة فيما عرف بتنظيم داعش، كان أشدّ فتكاً ووحشيّة من القاعدة. نجحت في احتلال كلّ مناطق الجزيرة الفراتيّة خلال أشهر فقط. وربّما توتّر هذه السّنوات هو ما أودى بجسد (رسول) فأصيب بالجلطة الدّماغيّة التي حذفته من سجلّ الشّعراء الخالدّين.

تندفع السّيارة الـ(بيك أب) نحو المدى البعيد، تتوغّل بين القرى المحصورة بين النّهر والصّحراء، وآثار الدّمار يلمحانها في البيوت المهدّمة، والنّخيل المحترق، والسّواقي المغلّقة بالنّباتات البريّة، وذلك الفراغ الرّهيب حيث يمكن رؤية بشر معدودين يتجوّلون مثلهما متفقّدين آثارهم، آثار الملتحين القساة، الذين قدّموا من دهاليز الدّين البعيدة، ومن بلدان لم يسمع بها أحد. حدثت مغامرتهما في زيارة القرية بعد أيّام من هزيمة داعش. وكأنّها

اللحظة التي يُسمع فيها صوت المواجهات بينهم وبين الجيش الأمريكيّ والصّحوات، والمتطوّعين القادمين من الجنوب. كانوا عتاة بلحاهم، وبنادقهم، وزهدهم بحياة النّبات والحيوان والبشر، كما لو كانوا وباءً هبط من السّماء لتخريب حياتهم وإرسالها إلى الجحيم. إلى اليمين النّهر بمياهه الأزليّة، وقد قارب الصّفاء بعد شهور الشّتاء، تحوم فوقه حشرات طائرة تكوّن جيوشاً حرّة صغيرة تعبر نحو الضّفّة الثّانية أو ترسو على ضفّتهم هم. تحطّ تلك الأسراب على ضفّتهم، ترسو على طعام في الورق الجافّ، وبقايا الطّين، وجثث الحيوانات الميتة دون سبب واضح. النّهر مانح السّمك والمتعة، قضى طفولته بين يديه الباردتَين.

ورغم أنّه يستلقي في سرير المستشفى إلّا أنّه يرى صورة تلك الرّحلة بوضوح، مع بعد الزّمن عنها. بتلك الغرفة المطلّة على النّهر، ظهر له ذلك الشّبح ثانية وكأنّه نبغ من الهواء جنب سريره. وكانت (براء) تنام على الفراش الثّاني، ورحل ابنه (بشير) إلى البيت ليطعم قططه. ظهر له ذلك الكائن وكان يملك وجهاً غير واضح المعالم، وحرارة جسده تلفحه مثل تنور رغم المسافة التي تزيد على ثلاثة أمتار، وحين سأله برعب:

- من أنت؟

أجابه بضحكة مسموعة داعرة، وعينَين تتلظيان مثل جمرتَين في موقد:

- أنا الشّيطان ذاته.

***

اختفى المسخ، مع ابتسامته وقهقهته، وتساءل في سرّه عن سبب ظهوره المباغت وسبب اختفائه. والنّهر تجلّى له من نافذة المستشفى حين قال الطّبيب لزوجته إنّه لن يعيش أكثر من ثلاث سنين، أو أسابيع أو أيّام. في رأسه شاشة بحجم ستين سنة أو أكثر. في رأسه كتب ومخطوطات وبنادق وألعاب طفولة وروائح لنساء يلدن في غرف طينيّة على أضواء الفوانيس المدخّنة، بعد أن يبس جسده بسبب الجلطة الدّماغيّة ولم يبقَ من مجده سوى عينَين، وشاشة ذاكرة معطوبة هي الأخرى. كأنّ ذاكرته تنفض الغبار عن نفسها، مثلما تفعل الغيوم مع المطر، والسّماء مع النّجوم في لحظات الغروب، ومثلما فعلت شهرزاد حين كانت تؤجّل موتها برواية الحكايات. ذاكرته تؤجّل رحيله، في كلّ لحظة، وها هي تبدأ عملها بهمّة ونشاط. تنبش في لا وعيه، بأناة، وتنبش في وعيه وقصص عمره الموشك على النّهاية. هي دون شكّ حياة ثانية، ولا يمكن الاستهانة بألاعيب الجسد من أجل إطالة حياة الكائن. وخلف ذلك الشّباك، وخلف تلك الجزيرة، الأثيثة، وجه أخيه فؤاد الذي توفّي بسبب الكورونا، وغاب في مقبرة القرية. وتلك السّيّارة التي ينطلقان بها نحو مقصف صالح النّجرس الذي خربته اللحى الشّعثاء باسم الدّين ومقاومة الغرينغو.

ثمّة قناعة غير راسخة لديه هي أنّ ذاكرته ربّما تنقذه من الموت. فتبعها طائعاً. قاده خياله إلى تلك الرّحلة مرّة أخرى، وكانت استراحة صالح تجلب الحقد إلى نفوسهم، يقول أخوه فؤاد وهو يمتصّ سيجارته الرّفيعة من نوع (بن)، ووجهه الحنطيّ يتلوّن بالألم، والحقد الدّفين على الملتحين الذين كانوا سبباً في تركهم للبيوت،

والمدينة، لمدّة سنتَين. الشّائعات حول الاستراحة كانت، وعلى مدار سنوات، تنتشر بين العامّة، وهم فلّاحون جاهلون لا يدركون حقيقة ما يجري لهم، يطلقها أشخاص غير معروفين. أشاد صالح تلك المملكة بعد سنتين فقط من دخول الأمريكان إلى هذه الأصقاع. همرات، دبّابات، مروحيات مصفّحة بالحديد، مناطيد مربوطة فوق الجسور، وجنود سود وشقر ومن جنوب شرق آسيا. هكذا شاهدوا الغرينغو عياناً.

ومن أعجوبة البناء أنّ صالح أشاد على كتف النّهر استراحة ذات سقوف حمراء من الآجرّ، وشبابيك ألمنيوم عريضة تشرف على مويجات الماء، وأبواب من الخشب، وسوّر الاستراحة بسور من الطّابوق الأصفر يمتدّ من كتف الطّريق حتّى ضفاف النّهر. وفي زوايا البناء أكواخ صغيرة تشبه المراقب أو الخلوات قيل إنّها لضيوفه القادمين من بغداد: شيوخ عشائر، وجنرالات أمريكيون، ومقاولون أجانب، ومتعاقدون من جنسيّات مختلفة. وفي الليل تسمع أصوات الغناء والموسيقا، وسط عجب الفلّاحين وهولهم، حين يحتفلون بوصول راقصة من بغداد تتلوّى على ضفة الطّرفاء والعاقول غير المنضّد: يا إلهي كم كانوا سذّجاً في تلك الأيام، يتجمّعون عند حافة المبزل لرؤية طلائع القوات الأمريكيّة تتقدّم على الخطّ السّريع الرّابط بين بغداد والرّطبة.

بدأت السّيّارة تقترب من المنتجع فيراه مهدّماً، ويبدو أنّهم فجّروه بعبوات ناسفة وذلك لإزالة الرّجس من الأرض. يترجّلان عند الطّريق المترب المخرّب الذي يقود إلى (مدائن صالح)، المكتوبة في قطعة نحاسيّة على المدخل، واعتقد البعض أنّ صالح لم يدرك معنى

التّسمية التي وردت في القرآن. مدائن صالح التي لعنها الله بسبب خطايا أهلها، على حدّ زعم المفسّرين. يدخلان البوّابة التي كانت من المرمر، ويمشيان باتجاه النّهر حيث السّياج الخفيض الذي تآكل وظلّت ألواح من المرمر الرّماديّ تشعّ في شمس العصر. مرمر زمانيّ، يا زماني مرمر، مرمرتني لا بدّ ما تتمرمر، وهي أغنية شبابه تحلّق على جناح فراشة أو يعسوب. وفي السّياج فتحة عريضة تقود إلى درج ينزل نحو مرفأ خشبيّ صغير. لكن لم يعد هناك ذلك المركب الصّغير العصريّ ذو المحرّك المثبت في مؤخّرته، ولا يمكنهما رؤية الدّرج، فقد نمت الحشائش عليه، وغطّته حتّى بدا كأنّه فراش وثير. وكأنّ هذه الأرض تنتقم ممّا هو جميل وجديد.

وقف فؤاد في الفتحة محدّقاً بحزن إلى الضّفاف المقابلة، هناك حيث نخيل لم يعد أحد يهتمّ بتلقيحه، ورعايته. التّمر يختفي من حياتهم، الفواخت تختفي من الأرض، روّعتها بلا شكّ تلك الأحداث الرّهيبة التي جرت في هذه الأصقاع. وفؤاد يبكي خفية ويدير خديه نحو موج النّهر وأسماكه، غير دار بذلك الوباء القادم من الغرف الشّريرة المغلقة التي ستستلّ روحه باكراً قبل أن يبلغ السّتين ويرثيه بمعلّقة أبكت جميع الأقرباء والمعارف. رحل باكراً ذلك الفتى الشّيوعيّ البريء الباحث عن يوتوبيا على الصّخرة الدّائرة حول الشّمس. هو أيضاً يبكي على حياته المدمّرة مثل منتجع صالح. يمضيان بين نباتات الحلفاء نحو الاستراحة الصّغيرة المطلّة على المياه، وقد رفعت من مساحتها الطّاولات والكراسي، وصمّمها صالح على شكل دائرة تكاد تسبح على حقل السّمك في الأسفل: أنت سمكة، فؤاد بطّة بريّة تكاد تطير، سورات الماء ترقص تحت الأشعّة،

ورغم أنّكما حزينان لكنّ الحياة تستمرّ، وقبل عشرات السّنين سبحتما في هذا المكان.

بعد سنتين من تلك الرّحلة الحزينة سيموت فؤاد بوباء الكورونا، بينما أصابت (رسول) جلطة خفيفة في الشّهر ذاته، عانى من آثارها سنتَين، وفؤاد قبل موته شبع فرحاً وقد رأى هزيمة هؤلاء الوحوش أبناء تورا بورا، ووادي بانشير، وصحاري الجزيرة السّوريّة، وكهوف قره تبة، ودهاليز جبال حمرين، ورمال جزيرة الرّمادي. وهناك لا تزال الاستراحة المطلّة على الماء مدوّرة بسقفها الأحمر وشبابيكها الواسعة.

وقيل في ذلك الزّمن العجيب، ومن مصادر غير معروفة، إنّ شلّة صالح كانت تجلس هناك تحتسي الويسكي، وتدخّن الأركيلة، وتستمع إلى أصوات المطربات القادمات من بغداد، وكانت أصوات يوسف عمر، وحمديّة صالح، وسعدي الحلي، وزهور حسين، تلعلع فوق أشجار اليوكالبتوس والصّفصاف المزروعة جوار المنتجع، وفي القرية كانوا يسمّون أشجار اليوكالبتوس بالقلنطوز. وتقف الضّفادع عند الحافة وهي تتطلّع بعيونها المدوّرة إلى هذه الإيقاعات الغريبة، وتسكت صراصير الزّرع تحت شجر العاقول، وتتوارى الثّعالب البريّة في عتمة السّواقي أو تهرب نحو بداية الصّحراء التي لا تبعد سوى خمسة كيلومترات عن الاستراحة، وعن أطراف القرى الفراتيّة. البيت الرّئيسيّ منهوب الشّبابيك متداعي الجدران بعد أن وضعوا عبوة ناسفة تزن طناً في أساساته، وسمع دوي الانفجار حتّى منطقة أبي غريب، كما شاعت الحكاية وقتها، وتصاعدت غيمة الدّخان والتّراب حتّى غلاف الأوزون، وكادت أن تبلغ القمر حسب مبالغات أخيه فؤاد الواقف حزيناً وهو يتجوّل في الاستراحة. المراقب، والبيت الكبير،

والطّابوق الأصفر، ورائحة المازّة المتناثرة بين نباتات الحلفاء والنّفل والخباز ذي الأوراق الخضر الدّاكنة التي تقترب من اللون الأزرق، تلاشت وغمرها الزّمن. كانت أمّه عادة ما تتجوّل في الحقول كي تلتقط الخباز للعشاء، تفرمه بسكين حادّة وتنظفه بمياه السّاقية المصفّاة بالزّير المركون في زاوية الحوش تحت شجرة التّوت، ثمّ تقليه بالدّهن الحرّ، وتثرم البصل معه وتقدّمه بعد نصف ساعة وجبة لذيذة مع الخبز الحارّ الخارج توّاً من التّنور المركون تحت شجر الخروع أمام بيت عمّه فاضل.

وفي الجوار شاهدا أشباح فلّاحين عادوا إلى بيوتهم وهم لا يفقهون شيئاً عمّا جرى، ويجري لحياتهم التّافهة المحصورة بين ساقية الماء وأفخاذ زوجاتهم المنهكات من العمل اليوميّ. (رسول) يسأل فؤاد إن كان سمع بـ(نظرية التّرس) فيتعجّب أخوه من هذه النّظرية التي لم يقلها آينشتاين أو فرويد أو أحمد زويل المصري، فيشرح له إنّها نظريّة جاء بها أبو مصعب الزّرقاوي بعد احتلال الأمريكان للعراق، وكان يقود الجهاد من مخابئه في ديالى، والرّمادي، وتكريت. وملخّصها: إنّه يحقّ للمجاهد استهداف القوافل الأمريكيّة والجنود والحرس الوطنيّ حتّى إن تسبّب الهجوم بقتل الأبرياء. وكان فؤاد ينصت وقتها بعينين فارغتين، ورأى (رسول) المهاجم الملغم الجسد يتقدّم نحو سيّارة أمريكيّة تقف في واحدة من ساحات (بغداد الجديدة) توزّع الهدايا على مجموعة أطفال، وهو أسلوب شاع بين الأمريكيين في بغداد والمحافظات لجلب الرّضا عنهم وبيان اهتمامهم بالأطفال العراقيين. ثمّ تقدّم المهاجم القادم من تونس كما قيل، وقيل من الشّيشان، وجزم البعض بأنّه من الموصل،

واندسّ بين الأطفال، وحين اقترب من ثلّة الجنود المعتمرين لتجهيزاتهم العسكريّة المرعبة سحب خيط التّفجير وتبخّر في الفضاء الغائم، لشتاء بائس من العام ألفين وأربعة، أكثر من عشرين طفلاً. تبخّروا في الفضاء، هم وأقلامهم وشهواتهم للفطائر المحلّاة بالمربى وحقائبهم المشتراة من سوق الشّورجة. وثبتت نظرية التّرس طريقة صحيحة للجهاد، وسبيلاً للارتقاء إلى جنّة الخلد، ومعاقرة رحيق الحوريات وتذوّق الثّريد مع النّبي، وسماع موسيقا الوجود بعيداً عن هذه الأرض المحتلّة من الكفّار. فقد قُتل مع الأطفال جنديان أمريكيان فقط، واستخدمت الطّريقة ذاتها في منطقة علاوي الحلّة البغداديّة، وفي وسط مدينة بعقوبة، وعلى تخوم بغداد بما يعرف بمنطقة المعالف المكتظّة بالكادحين من النّاس. تلك هي نظرية التّرس، أخبره (رسول) في ذلك العصر المشرق، النّظرية المستوحاة من فتاوى ابن تيميّة، ومن بعض الآيات القرآنيّة، ومن تعاليم ابن لادن المقيم في جبال أفغانستان قبل قتله.

***

وها هو يرى بعين الخيال شبح فؤاد يتوارى من نافذة المستشفى بعد رحيل الطّبيب وانزواء زوجته في انتظار سيّارة الإسعاف. تأتي أصوات سيّارات بعيدة من مركز المدينة، وتشوش الصّمت، ونداءات عاملين يمشون في الأروقة يتخاطبون بصوت عال، وتنتصب عند حافة الشّبّاك خزانة للأدوية، وسرير فارغ، وتشيع في الفضاء رائحة المطهّرات الباعثة على الغثيان. يغمض عينيه، يغمضهما عن هيئة الشّيطان وهذا الوجود البارد في الغرفة، ويرى فؤاد ينظر له بغرابة وهما يودّعان

المنتجع ليمضيا إلى القرية التي لا تبعد سوى خمسة كيلومترات، وما زالت آثار هجوم داعش واحتلالها بارزة على بعض بيوتها وبساتينها الذّابلة. أخوه فؤاد لا يدرك خطورة هذه النّظريّة، نظريّة التّرس المجلوبة من تفسيرات رمزيّة ملتوية للقرآن، ومن نصوص تراثيّة لفقهاء مرّ على موتهم أكثر من ألف سنة، تغيّرت خلال ذلك الحياة ببشرها، ومدنها، وقوانينها، وخرائطها. فؤاد خرّيج كليّة الزّراعة لذلك لا يفهم بالأمور الفقهيّة، بينما درس (رسول) اللغة العربيّة في جامعة بغداد واستطاع لمس الكلمات وتأويلها، واقتناص المعاني الكامنة وراء الجمل وما ترمي إليه الأفكار. تأمّل فؤاد بمحلّه المنهوب من قبل جنود الرّبّ، وقد اقتلع بابه ولم يبقَ من أرفف الحاجات الزّراعيّة سوى الخشب وألواح الألمنيوم. تجوّل فؤاد دقائق في محلّه الواقع قريباً من الجامع ثمّ عاد إلى السّيّارة وظلّ صامتاً حتّى وصلا البيت.

وفي تلك الليلة الرّيفيّة، وهو جالس في صالون أخيه فؤاد يحدّق من الشّبّاك إلى ليل القرية المظلم بسبب انقطاع الكهرباء، كتب هذه القصيدة عن الجميع. عن جميع من يقترحون حلّاً إلهيّاً للمستنقع الذي يسبح فيه أبناء الوطن: في ليل بلادي/ والحسرة تملأ قلبي/ أصبحت غريباً/ لا أفقه ما يجري/ فالكلّ ينادي/ أنا خاتمة الأحزان/ وسرّ الله/ وسادن هذي الأرض/ وغيري لا يدري/ ما خلف التّلّ/ أو ما يرسمه المحتلّ/ في ليل بلادي/ صاح غراب البين أنا الحلّ/ فأنا أُحسن دفن الموتى/ واللطم عليهم/ فهم أحبابي/ ماتوا كي يرثوا الأرض/ بالطّول وبالعرض/ كان الدّيك الأوّل/ قبل الفجر يصيح/ ليصلّي التّابع والمتبوع/ في زمن الفتنة والجوع/ هلك الدّيك الأوّل/ جاء الدّيك الثّاني والثّالث/ فإذا الحالات كما كانت/ لا الجوع توارى/

لا الفتنة بانت/ وأنا ما غيّرت المزمور/ فالأرض تدور/ والفتنة ما زالت/ تتهيّأ للوثب/ وإسرافيل يراقبها/ كي ينفخ في الصّور.

وُلد (رسول) في ليل تلك القرية السّاحرة قبل عقود لا تُعدّ، ولدته أمّه، ويا ليتها لم تلده، كما دأب على القول في كلّ حدث جلل عاشه في حياته. تجربة عشرات السّنين أقنعته بأنّ الحياة ليست سوى ظلّ يمشي على المسرح، كما كتب يوماً جدّه شكسبير. تقول له ذاكرته بأنّ أمّه ولدته في منتصف الليل، ليل القرية الدّاكن السّواد قبل أن يعرف أحد بوجود اختراع ملائكيّ اسمه الكهرباء. وُلِد قبل موت جدّه وأبيه بزمن طويل. وُلد في برج العذراء، برج الشّعر والرّقة والخيالات. رغم أنّه لا يؤمن بالأبراج لكنّه اقتنع بأنّ لتلك الكواكب الدّائرة حول الشّمس، ولتلك النّجوم البعيدة تأثيراً على مصائر البشر. هذا شفّاف وذاك ثقيل الظّلّ، وتلك لعوب وأخرى بليدة. والغرفة الطّينيّة التي وُلد فيها يضيؤها فانوس كان يبعث ضوءاً خافتاً تتحوّل فيه وجوه النّساء المحيطات بأمّه الممدّدة على ظهرها، إلى أشباح، وهنّ يستنشقنَ رائحة البخور الكثيف المنبعث من مجمرة صغيرة وضعتها تلك النّساء جانب الفانوس. والفانوس مركون على العتبة الطّينيّة للشّبّاك الخشبيّ المغلق المطلّ على بستان نخيل.

هل يمكن للمرء أن يتذكّر الزّمن الذي أمضاه في الرّحم قبل الولادة؟ كلّا بكلّ تأكيد. العلم الحديث يقول ربّما، وهو من جانبه تشكّك بهذه الخزعبلات. دماغ لم يكتمل وحواس لم ترَ الضّوء، وأعصاب لم تلامس الهواء، وهذا ما كانت عليه حالته قبل أن ترتطم عيناه بضوء ذلك الفانوس. وُلد في منتصف القرن العشرين، في سنة مجدبة كما سمع أباه يصف تلك السّنة. لكنّه وُلد على أيّة

حال، وينبغي أن يعيش دورة حياته كما تعيشها الكائنات على هذه الأرض، الغربان والسّمك والبقر والضّباع وديدان الأرض والفراشات البيض والكلاب التي ظلّت تنبح ليل نهار في الصّيف الذي وُلد فيه وربّما الشّتاء. تعتقد أمّه أنّه كان شتاء. وكان هناك جوّ خانق، رطب من أنفاس النّساء والسّوائل ودخّان البخور، وقد استقبل كلّ ذلك وهو يخرج من عزلة الرّحم، وعلى شفتَيه ابتسامة غامضة. هل كان يدرك وهو يبتسم بأنّه ذات سنة سيقول لنفسه: كلّ شيء باطل وقبض ريح؟ خلاصة فلسفيّة صارت تترسّخ في ذهنه سنة بعد أخرى دون أن يفقه سببها. لم يبكِ إلّا ثوانٍ فقط، لتعتاد عيناه المغمضّتان على هذا الجوّ الاحتفاليّ بولادته، الولد البكر لأمّه وأبيه الذي كان غائباً في عمله بإحدى المدن البعيدة. هل كان هناك مطر؟ عواء لثعالب؟ لصوص يتجوّلون بين البيوت؟ عشّاق يسيرون على الطّرق غير قادرين على النّوم؟

روت له أمّه أجواء تلك الليلة بعد سنوات طويلة من ولادته. وهكذا من الكهف المغلق داكن السّواد، إلى رحابة الوجود بنخيله، ومياهه، وشمسه، وحشراته الطّائرة، وديوكه المنتشرة في كلّ بيت من بيوت القرية. وُلِد مثل مليارات البشر. انتقل من فكرة هائمة في الفضاء إلى كتلة من لحم، وعظام، وأنفاس. قالت: إنّك وُلدت في زحمة فيضان الفرات تلك السّنة، وحين هلّت النّجمة ذات الذّيل التي كنّا نراها في الليالي الصّافية، في وقت لم نعرف فيه الكهرباء بعد، وخمّنّا أنّ أمراً جللاً سيحدث. لماذا وُلد في تلك الليلة تحديداً؟ لا يدري، مثلما لا أحد يعرف إطلاقاً لمَ يولد البشر، ولمَ يموتون، وما هو الهدف من كلّ ذلك؟. هل وُلد شاعراً؟ لطالما فكّر بذلك على مر السّنين. بين الولادة والموت جزر هائلة الحجم من المعاناة، والألم،

والحزن، والحلم، والدّموع. ست سنوات قضاها وهو يغادر، قليلاً قليلاً، عزلة البيت والأسرة إلى أحضان أكبر، هي أحضان القرية. صار يتكلّم، ويرى ما حوله، ويسمع صوت باص الرّكّاب الذي يذهب صباحاً إلى المدينة ثمّ يعود بعد الظّهر. وأخبرته أحاسيسه إنّ هناك فصولاً في هذه الحياة تبتدئ في الصّيف وتنتهي في الخريف، والشّتاء يقود الرّبيع، ثمّ تعاود الدّنيا الكرّة من جديد حتّى آخر الزّمن المكتوب على جبين هذه الصّخرة الطّائرة بسرعة آلاف الكيلومترات في الدّقيقة حول قلب المجرّة. تعلّم في الحقول قتل الأفاعي، وصيد القبّر، والتّقاط الفطر. تسلّق نخيلاً عالياً مثقلاً بالعذوق الصّفر والحمر، من مختلف الأصناف. واصطاد حماماً، نسج عشه في أملود مائل أو سعفات نخيل ملتفة. جنى التّمور وبحث عن أعشاش الطّيور وبيوضها. سبح في نهر الفرات صيفاً، ورافق أمّه وخالاته لالتقاط الحشيش للبقر من حقول تجاور المستنقعات المكتظّة بالبطّ والحذّاف والخضيري، أو ملء براميل المياه من السّواقي الجارية. سبح أيضاً في السّواقي العريضة بلذّة، وسرق البطيخ من حقول أخواله وأقربائه، وراح يهيّء نفسه للّقاء الأكبر، لفهم هذا الوجود الذي ألفى نفسه تتحرّك فيه. العلم، اللغة، الحفظ، والمدرسة حيث سيلتقي أولاداً من قرى بعيدة، ليتعلّم سرّ أبجديّة الحروف، وطريقة اللفظ، وسحر ترتيل الآيات القرآنيّة في كتاب الدّين، كي يتلقّى عقوبات بالعصا على راحتَي يديه بين الحين والآخر. وخلال تلك الفترة من عمره حدثت أشياء كثيرة تركت أثرها في ذاكرته. اشتغل أبوه في بناء جسر كركوك، وصار يزورهم كلّ شهر مرّة، جالباً معه الجوز، واللوز، والتين المجفّف. قال لزوّاره إنّها تنمو هناك، في جبال الأكراد. من هم

الأكراد؟ لا يعرف، وتطلّبت معرفته بهم ما يقرب عشرين سنة، ليسافر إلى مدينتهم السّليمانيّة في زيارته لأخيه فؤاد الذي كان يدرس فنون الزّراعة هناك. لقد حفظ قصّة الملّا مصطفى البارزاني منذ ولادته وحتّى سقوط دولة مهاباد على يد الشّاه. وُلد أخوه فؤاد وصار مدلّلاً أكثر منه. انتقلت العائلة من بيت الطّين إلى بيت من الحجر والجصّ، وكان البيت له حوش واسع تنفتح عليه الغرف. أشاد عمّه فاضل بيته على بعد عشرين متراً من بيتهم، سكن فيه مع زوجته العقيم سلمى، وزرع نخلة وسط الحوش أحاطها بتليل من التّراب لتحفظ المياه حول جذورها، ولم ينجبا أطفالاً. ألّا ينجب الزّوجان أمر يُعتبر قدراً مشؤوماً وقسمة غير عادلة، وكان ذلك حديث العائلة وأسفها، فلا يتصوّر أحد أن تكون هناك عائلة من دون أطفال. أصبحت القرية عالمه. لا تختصر كوناً إنّما تمنح مخيّلة وسحراً. كانت قرية بكراً، ابنة للرمال والماء والشّمس. صنعته مثل حائك ماهر. أنتجته في النّهاية من رفرفة أجنحة اليمام، وضوع نبات السّعد، ولون زهر الرّمّان. من دقّات الطّبل في الأعراس صاغت طبلتَي أذنيه ومشقت أعصابه بروح موسيقيّة عاتية يستقبل بها نغمات ما يتردّد في نهارات القرية ولياليها. صنعت منه كائناً يبحث عن أفق آخر، عن جنّة لا يمكن لها أن تكون في العالم الأرضيّ. هل زرعت بذرة الشّعر في دمه منذ تلك السّنوات؟ لم يسمع أيّ فرد بالحرب العالميّة الثّانية، ولا قنبلة هيروشيما الذّريّة. لم يسمع بشر باغتيال جيفارا الأرجنتينيّ في أحراش بوليفيا. ولا بهزيمة ألمانيا في أوروبا. واليوم حين يفكّر بما كانت عليه مدن مثل باريس، ومدريد، ولاس فيغاس، وطوكيو، وسان باولو، وبازل، وبرلين، وكيف تسهر مدينة فينّا حتّى الصّباح، واليخوت التي كانت

تمخر المحيط للسّياحة والمغامرة، يحسّ بالحزن. والحزن الشّديد. ويحسّ بالعطف على أولئك الفلاحين الذين عاشوا حياتهم بين مضخّة المياه وسواقي الحنطة، بين ليالي الشّاي والتّبغ والحكايات الخياليّة، وبين الجهل المطبق على حياتهم والرّضا بذلك الجهل.

وبدأ سنته الأولى في المدرسة، وراح عالمه يتسع يوماً بعد آخر. وحصل على الكتب، والدّفاتر، والأقلام، وحقيبة من القماش، وحذاء جديد من الجلد كان أوّل حذاء يرتديه في حياته. لقد كبر، وصار يعقد صداقات مع تلاميذ من قرى قريبة، ويشترك بألعاب جديدة في ساحات المدرسة. أفاق فجأة على أفكار غريبة ووجوه تختلف عن وجوه أفراد أسرته، وراح يحفظ أناشيد بكلمات تقع في مسمعه أوّل مرّة. كلمات تمجّد الوطن، ويسمع حكايات وقصصاً من تاريخ بعيد. وفي تلك السّنة جلب أبوه سجّادة من القشّ مرسوماً عليها صورة كبيرة لرجل عسكريّ مبتسم، يسمّونه الزّعيم عبد الكريم قاسم، علّقها في مضافة البيت، مقابل الباب. وكان ذلك في بيتهم الجديد الصّخريّ بعد أن ودّعوا بيوت الطّين وانتقلوا إلى بيوت أكثر ثباتاً في مقياس الحضارة. لا يمكن لأحد الدّخول إلّا وتقع عيناه على تلك الصّورة. الزّعيم. الزّعيم. يقول كلّ فلّاح يدخل بيتهم. أذناه تشبهان أذنَي الزّعيم، يقولون له فيغضب. لا يغضب لأنّهم يقارنونه بذلك الرّجل العسكريّ، بل لأنّه يمتلك أذنَين طويلتَين. والأذنان الطّويلتان توحيان بشبهه بالحمار. وفي تلك المضافة تقع عينا الدّاخل على جدّه مستلقياً، متكئاً على مخدّة صوف في تخته الخشبيّ، يدخّن سيجارته بمتعة فائقة. كان بلحية بيضاء وأصابعه تمسك بمشرب خشبيّ ويمتصّ دخّانه بلذّة وينفثه نحو الهواء الرّاكد.

وتلك الصّورة لبثت لاصقة في مخيّلته طوال أكثر من أربعين سنة. وكانت أمّه تردّد لزوّارها ضاحكة حكاية تشابه الأذنَين بينه وبين الزّعيم وكان يشعر بالخجل، فأذنا الزّعيم طويلتان وهو لا يرغب في أن تكون لديه أذنان طويلتان. سبّب له الزّعيم منذ تلك السّنة أزمة نفسيّة. كرهه لطول أذنَيه. رفع أبوه تلك الصّورة بعد بضع سنوات، بعد أن جلبوا أقرباءهم المتطوعين في الحرس القوميّ قتلى، واجتمع النّاس على ضفّة النّهر لتوديعهم وهم يمخرون الماء في قارب خشبيّ عادة ما يُستخدم لنقل العابرين من ضفّتهم المسمّاة الجزيرة إلى ضفّة أخرى يطلقون عليها الشّاميّة. وكانوا مدروزين بالرّصاص، وملفوفين بالبطّانيّات التي نزّت دماء خفيفة على القارب. تلك هي أوّل دماء بشريّة تترك صورتها في دماغه، وتلك أحداث لم يستطع نسيانها. وكثيراً ما رواها لاحقاً على موائد الشّرب في بغداد لأصدقائه الشّعراء والقصّاصين علّهم يستفيدون منها درساً في الكتابة الواقعيّة. الكتابة الواقعيّة التي تشبه، لغرابتها، الخيالات الجامحة.

(رسول) المشلول، الشّاعر النّائم في سرير المستشفى محدّقاً في الفراغ القادم من النّافذة، كان على قناعة صلدة بأنّه خُلق شاعراً منذ تلك السّنوات.

وعقب هذه الانثيالات المتعبة، سقط في غيبوبة عميقة أعمق من هاوية.

2

اجتازت به سيّارة الإسعاف كورنيش الفرات، وانعطفت عند الجسر الضخم يساراً، وتوجّهت إلى ناظم الورار، ومن هناك نحو بيته في حيّ التّأميم، ورافقته في هذه الرّحلة الحزينة زوجته (براء)، صامتة معكترة التّعابير وهي تتطلّع في وجهه وعينَيه المغلقتَين.

وكان أوّل ما فتح جفنَيه وقعت نظراته على تلك الصّورة الغريبة المعلّقة على الجدار، وهي تظهر وجهاً صارماً لحيته كثّة، وشعره طويل يؤطّر وجهه الملكيّ، وكانت يده اليسرى تمسك حيواناً صغيراً تضمّه إلى جسده، وترتسم على الوجه تعابير ثقة مطلقة بالنّفس. وكانت إكسسوارات ملابسه غير مألوفة لعينَيه، السّوار الحجريّ يطوّق معصمه، ورأس الأسد المضغوط بين ساعده وجسده، والعينان الفارغتان كأنّهما عينا شبح من الماضي السّحيق. حسبه للوهلة الأولى صورة لجدّه الذي عمّر ما يقارب المائة سنة، لكنّه هنا دون مشربه الخالد الذي لم يفارق فمه حتّى مماته. ومع استعادة تركيزه، وذهنه يصفو لحظة بعد لحظة، تبين أنّ تلك الصّورة لجدّه فعلاً، لكنّه ليس جدّه المدفون في المقبرة، بل هو جلجامش ملك أوروك، والإنسان الباحث عن الخلود. اشتراها ذات يوم من سوق المتنبّي البغداديّ، وكانت معروضة في بسطة لبائع جوال يقف قريباً من مطعم (كبّة السّراي) الشّهير. وحين تبيّن الحقيقة راح يسمع النّشيد وهو يتردّد في ذاكرته: هو الذي رأى كلّ شيء فغُنّي باسمه يا بلادي، وجاء هذا النّشيد السّومريّ القديم في

رأسه أثناء ما كان الضّوء يتسلّل من الفجوات بين السّتائر الثّقيلة، المسدلة على النّافذة.

إنّه في البيت إذن، جسده مشلول وذاكرته تغلي. الانتقال من المستشفى إلى البيت تمّ بحركة سريعة لم يسمع خلالها سوى عويل سيّارة الإسعاف يجلجل في أذنَيه وكان يتأمّل، فلسفيّاً، في موته القادم. انتهت الرّحلة، وسيؤوب إلى أمّه الأرض.

وكانت الشّمس في مكان ما من ذلك الفضاء البعيد والغامض لبني البشر. الضّوء البكر، حامل الرّوح الكونيّة المنبعث من المجرّات البعيدة. ذهب إلى الشّعاع الأصفر القادم من مليارات الكيلومترات المتجه إلى مكان ما في الكون الأعجف. لمح الضّوء من بين رموشه المتراقصة، الفرحة لقدوم نهار جديد وهو ما زال حيّاً. تمنّى ألّا يكون نهاراً ثقيلاً ثقل جسده المقعد الممدّد على السّرير. ترنّم لنفسه مثل عابد سومريّ: أنت الشّاعر المقعد، الشّاعر المحبط، أنت الشّاعر اليتيم، القتيل، الشّاعر الرّاقد منذ الأزل على خيباتك، وهزائمك، وسنواتك التي نسيت عددها، رأيتهم يرحلون، ويغيبون، أصدقاؤك الجميلون، في عراق يأكل نفسه، يأكل بعضه، يأكل يديه إن لم يجد ما يأكله. وكان جسده منهكاً يحمل ثقل خمس وستين سنة، أو أكثر، من المفاجآت.

وضعت زوجته (براء)، زوجته المتوّجة على عرش قصائده ملكة من رخام، وربّما من طين الفرات، وضعت بحبّ صباحيّ سريره بمواجهة الجدار. لا يرى الشّبّاك إلّا مواربة، لم يعد يمتلك الصّوت لتنبيهها إلى هذه الخطيئة الكبرى، الجحود والتّجديف والكفر الصّريح. فظاظة ما بعدها فظاظة أن يحدّق في جدار يخفي عن باصريه الشّاعريتَين منابع

النّور ومباهج الحياة. يريدها أن تضع سريره بمواجهة النّافذة ليرى الضّوء، يريد أن يكتب، أن يدوّن حكمته المستخلصة من خمس وستين سنة، تنفّس فيها الهواء اللذيذ الرّائق مثل كأس جعة بارد في واحد من بارات ساحة الميدان. وخلال ذلك سيمنح فضيلة رؤية الشّمس وهي تسطع وكأنّها ليرة عثمانيّة تركها السّلطان عبد الحميد الثّاني لجدّه الذي عاش مائة سنة. يريد التّنقّل على ساقَيه الضّعيفتَين، الشّريانَين الغليظَين، العاتيَين، الموصلَين إلى أمّه الأرض. أمّ هذا الوطن الذي يعتنق البشر ديانته ويشربون من مائه ويأكلون من طرائده. لقد ابتكر طريقة جديدة للكتابة، هو الشّاعر الميت جسداً وحسّاً، طبقاً لما يعيشه من موت سريريّ. كان معتاداً على تناول قلمه وأوراقه ليكتب الشّعر أو المقالات والخواطر، ولاحقاً امتلك حاسوباً تعلّم أسراره وساعده على التّخلّص من الورق والأحبار وملفّات الحفظ لما يكتبه. كان ابنه (بشير) خير عون في فهم التّكنولوجيا الحديثة. جيل ما بعد الحداثة. جيل الغزو الأمريكيّ، وأبي مصعب الزّرقاوي وجورج بوش والدّيكتاتور الخارج من حفرته ببلاغة السّخرية المرّة للبطولة، والتّاريخ. في هذا الجهاز العجيب يمكن للمرء أن يحفظ كلّ شيء. ويتسامر مع أصدقائه الغائبين بين البلدان عبر برنامج (الفيسبوك)، وينشر قصائده مهما ركّت وتفهت. يده اليوم لا تطاوعه، فهي ملقاة دائماً إلى جانبه. وعضلاته تحوّلت إلى خيوط عنكبوتيّة واهية، ولكن قلبه ما زال يعمل، وذاكرته ابتكرت، ومنذ أن انتقل من المستشفى إلى بيته، طريقة جديدة للكتابة تناسب رقدته الأخيرة قبل الرّحيل. يكتب في الهواء، علّ شخصاً يلتقط ذات يوم حكاياته ويدوّنها على شكل قصّة طويلة تعتبر بها الأجيال القادمة. أمّا إذا قيّض له الخروج من المتاهة، هذه الأزمة، الغيبوبة اللعينة، فسوف يكتبها رواية حسب موضة هذه

السّنوات حين تحوّل بعض الشّعراء إلى روائيين. سيطلق عليها رواية الشّاعر وأشباحه. رغم أنّه عنوان شائع في سوق النّشر. زوجته (براء) لا تدرك ابتكاراته هذه، تعتقد وهي تراقبه أنّه يحدّق في السّقف فقط، أو يتأمّل بصورة جلجامش المعلّقة على الجدار. بينما في الحقيقة كان يكتب ذاكرته الممتدّة في الزّمن الموحش منذ أن ولدته أمّه في تلك الليلة الباردة وسط غرفة الطّين. نعم، سيدوّن في رأسه كلّ ما جرى له بسنواته العجاف منذ ولادته وإصابته بالجدري، وكان عمره شهراً فقط، وحتّى اللحظة. لحظة تسلّل الضّوء من السّتائر.

يقول للضّوء المتسلّل من السّتائر مخاطباً: أيّها الضّوء الكونيّ أغثني في تسطير حكمة وجودي، وأنت أيّتها الأصوات اهدئي لحظة كي يتوحّد الشّاعر مع ذاكرته. سيكتب، ويكتب حتّى يزفر أنفاسه الأخيرة، فليس له من عمل آخر سوى الكتابة. كرياته أبجديّة عتيقة، وقلبه مرجل يزن السّنين العجاف، وعيناه كلّتا من رؤية المذابح. هي متعة وتسلية وصرف لوقت ثقيل لم يعد يعنيه شيئاً. الممثل في طريقه لمغادرة المنصّة كما يقول جدّه شكسبير. وسيترك صورة غامضة في رؤوس جمهوره الذي غادر هو الآخر، أو في سبيله للرّحيل. يبوح بسرّ لا يهتمّ لو انتشر وشاع بين الأمم. الرّاحل لا يهاب الفضيحة كما تقول الأمثال. يغنّي لنفسه في عزلة الصّالون، تيمّناً بالشّاعر الأمريكي والت ويتمان، رغم أنّه ملقىً على سريره الذي وضعته زوجته (براء) بعيداً عن النّافذة، وستصل أغنيته العالم دون شكّ: أنت الشّاعر المحبَط، الشّاعر الجثّة، أنت الشّاعر المقعد ابن النّخيل، والهزائم، وثمار الخرنوب في الضّفاف الرّمليّة والحقول المترامية حول الفرات، أنت ابن حربَين وهجرتَين واحتلالَين، بل ثلاثة، وربّما أربعة، أنت من تغزّل بزوجته (براء)، الطّالبة السّمراء

الطّويلة الأنيقة دائماً، منذ أن كنت تجلس في نادي الكليّة مع صديقك (هاتف) الذي قُتل بقذيفة هاون وسط سوق الغزل، وصديقك التّونسيّ عمر العروسيّ الذي خرج من البلد وغاب أربعين سنة. وكان يترنّم بقصائد وأغانٍ منسية، كما لو صار شخصاً خاشعاً يصلّي لربّ من أربابه. يعيش في داخله سديم سرّيّ يظهر عادة في لحظات السّكر، في أحلام اليقظة، وفي الكوابيس الليليّة. شياطين ونساء ورغبات حيوانيّة تدفعه كي يصرخ ملء فمه. رغبات دوديّة في التّزاوج بين الأنثى والذّكر، وملاحقة الدّهاليز المظلمة، وفوق كلّ ذلك مشاعر موت يرغب في أن يعيشها. لديه دائماً عالمان، الظّاهر والباطن. وبالتّزاوج بينهما، كما تتزاوج العناكب، أثمرت شجرة الشّعر في قلبه. هكذا انتهى به صائغ الأبدان والمشاعر، وربّما يكون على وهم في النّهاية. لا شيء مطلق الصّحّة في هذا الوجود الغريب، وجود كائن ينتمي إلى برج العذراء.

تسلّل الضّوء من السّتائر، وتسلّلت إلى روحه تلك النّهارات النّائية، والسّنين العجاف، والمشاهد المرعبة التي عاشها حين كانت له قدمان مثل بقيّة البشر يسير بهما، وعينان يرى فيهما ذلك الجمال المحيط بالشّباب. وكانت له أذنان يلتقط منهما موسيقا الوجود البشريّ المفروض على العالم.

هجم الصّبح هجوم الحرس، يقول الشّاعر الأندلسيّ لسان الدّين بن الخطيب في قصيدة غنّتها له فيروز اللبنانيّة. سمعها على ضفاف دجلة في منتجع أبي نوّاس مع السّمك المسقوف، والصّحاب الضاحكين على النّهر، والبيرة الفريدة، على نسمات هابّة من العشب الرّطب. سمعها تحت جسر الرّمادي، وفي أحياء محلّة البتاويين، وفي ظلال آثار بابل. غنّاها على دف، وطبلة، وبزق،

وغيتار، وناي. ورغم ذلك طارت الذّبابة فوق وجهه ولا يستطيع نشّها أو قتلها، مع أنّه لا يرغب في قتل حتّى الذّبابة. إنّه مسالم، حتّى لو مرّت عليه حروب طاحنة وحشيّة، ورأى القتلة يمثّلون بالجثث، ويفجّرون الأطفال حسب نظريّة التّرس القاعديّة. شاعر كره ما رآه في هذه الأعوام الطّويلة المسمّاة عمر الإنسان.

***

وجد الضّوء الخفيف يلوّن الجدار أمامه، أدار عينَيه فرأى وجوهاً شاحبة، بينهم امرأة، كانوا يجلسون على الأريكة الواقعة جنب النّافذة إلى يساره، والحقيقة أنّه لم يعد يحب الزّيارات، فهي تعيده إلى وجود لم يعد يهمّه. كائن محشور في جلده فقط. لقد غادر خشبة المسرح الشّكسبيريّ، والجمهور ما عاد يشكّل له هاجساً، فالشّعراء لا يتبعهم الغاوون، ولا يمتلكون جسداً بساقَين عبلاوتَين ليجدهم في كلّ واد يهيمون. وهو منشغل بالكتابة العميقة، باستعادة لحظات الفرح والحزن، الخوف والسّكينة، مستحضراً الوجوه وأصواتها ونبراتها وتعابيرها في أغرب المواقف والأحداث من سنواته التي تعدت السّتين سنة. خمسة وستون. ست وستون. سبع وستون. تسعون. ما الفرق؟ كلّ طريق يوصل إلى الدّيماس، إلى العالم السّفليّ الذي دخلته عشتار كي تعيد جدّه البعيد تموز من العالم السّفلي إلى الحياة.

توالت القبل على وجهه ورأسه، وهو متخشّب وسط السّرير، الحيّ الوحيد في جرمه تلكما العينان الذّكيّتان، عينا الشّاعر. والبعض من الزّوار قبّل يديه، يديه الملوّثتَين بالحبر والكلمات، وخرجتا من هذا الحقل الثّقافيّ الطّازج المخضرّ، مهزومتَين بلا مشاهدين. كانوا

يتكلّمون عن مواضيع لا تخصّه وكأنّهم استغلّوا فرصة غيبوبته لكي يفرغوا ما تراكم لديهم من أفكار وتساؤلات. يصيح عليهم أن يهدؤوا لكن دون صوت. إنّه يدوّن، يكتب، يتأمّل، يحاور، ولا أحد ينصت إلى صياحه، وسمعهم يحتسون الشّاي بلذّة، الشّاي مع الكعك. يدخنّون حوله دون أن يحترموا توقه لسيجارة (كلواز) يستعيد بها صفاء روحه الشّاعرة والخيط الذي يشدّه إلى حياتهم. الرّجل المسنّ رأى وجهه كثيراً قبل اليوم، عادة ما يتكلّم دون أن يكمل جملته كما لو أنّه يخاف التّصريح عمّا يحسّ به حقيقة. وحين عصر ذهنه لالتقاط ما يتكلّمون به، أدرك أنّهم يناقشون موضوع الجنّ والملائكة، وهل هم مصنوعون من لحم ودم مثل البشر أم لا، ثمّ حسم الشّابّ الملتحي من بينهم الأمر بقوله: إنّ الجنّ والشّياطين مصنوعون من النّار، بينما الملائكة من الضّوء، وهذا ما أجبره على إغلاق عينَيه وسمعه، وتمنّى لو يستطيع الإمساك بالقلم وكتابة قصيدة هجاء ببني البشر وخفّة عقولهم وأوهامهم. ولكن، لفت نظره أمر شديد الأهميّة، ألّا وهو غياب أخيه فؤاد. مرّت أكثر من دقيقتين على عجبه المستولي عليه حتّى تذكّر أنّه قد مات. مات قبل أن يقع هو ويكسر حوضه ويدخل في غيبوبة أعضائه ومواتها.

أنت ميت إذن يا فؤاد؟ يا أخي؟ تساءل مع روحه بألم عميق أفقده الإحساس في من حوله. أطبق عينَيه وسدّ أذنَيه وسقط في غيبوبة النّوم مثل جثّة. ولعجبه وجد فؤاد حيّاً في تلك السّنة البعيدة. كان في رحلة غريبة إلى أرض الجوز والتّبغ والجبال العالية. جبال عالية كأنّها مردّة من بلاد آشور. زهور نرجس تضحك صباحاً ومساء. طرق ملتوية بين التّلال والجبال لا تفضي إلى متاهات بل إلى قرى جبليّة مبنيّة من صخور وطين. ملابس كرديّة غريبة، وقعقعة

وأصداء لمعارك تعود إلى عقود مضت. يقول له أخوه فؤاد: هذه هي المدينة، هنا أدرس الزّراعة وأمامي المستقبل الزّاهي، وقد أُنشئ مزرعة للبرتقال في سهل من سهول الوطن، أو أستصلح جزءاً من الصّحراء لزراعة الحنطة والشّعير. وربّما أفتتح محلّاً للأدوات الزّراعيّة كالأسمدة الكيمياويّة، والمعازق، والمناجل للحصاد، والمكائن لقصّ الثيّل في الحدائق البيتيّة، والصّوندات لنقل المياه من السّواقي. من يعرف؟ قد تتطوّر مهنتي لتشمل بيع التّراكتورات، ومضخّات الماء الصّغيرة، والمبرّدات، ومكيّفات الكهرباء لتقضي على صيفنا اللاهب. ثمّ يتأمّلان المدينة وهي تقترب، وتبين بين الجبال المحيطة بها وكأنّها بيضة رخّ في عش من أشجار السّنط والاسبندار. أوّل مرّة يزور مدينة كرديّة في حياته. كان لديه أصدقاء أكراد في الكليّة لكنّه لم يمتلك أيّ مشاعر عنصريّة تجاههم. الشّاعر ليس عنصريّاً أو طائفيّاً، فملّة البشر واحدة في نظره. حينئذ كان الهواء ربيعيّاً يدخل من نافذة السّيّارة الكوستر اليابانيّة المنحدرة نحو المدينة.

يراها بوضوح، مع أنّ الصّورة مضت عليها عشرات السّنين.

تلك الشّوارع الملتمّة على بعضها، المسجد الكبير وسط السّوق، المقهى الضّيّق المقابل للسّينما، والجالسون على تخوت الخشب وهم يحتسون الشّاي ويقرؤون الصّحف. الخليط هم من عرب وأكراد وتركمان ومسيحيين ومسلمين يتبادلون الإشارات والرّموز فيما بينهم. نعم، وبوضوح كائن يمضي نحو العالم السّفليّ، عالم عشتار الباحثة عن حبيبها في مملكة الموت، تذكّر وصف فؤاد لروّاد المقهى، حين قال بنبرة العارف لهذه المدينة التي لم يرها سوى تلك المرّة: كلّهم من اليسار، ألا ترى الصّحف بين أيديهم، ليس من بينها صحيفة للحكومة

وحزبها؟ ثمّ يمضي به فؤاد إلى مطعم يصعد له بدرج معتم، يتذكّر الاسم حتّى اللحظة، وكان اسمه مطعم (تارا)، وكان يشبه صالوناً طويلاً معلّقاً يقدّم الوجبات الفخمة والمشروبات من بيرة ونبيذ وويسكي وعرق محليّ، والوجبات الغربيّة التي لم يرَ مثلها قبل ذلك اليوم. ولاحظ هناك فتيات يجلسن مع شباب أنيقين، وأغانٍ كرديّة تنطلق من مكان ما مضاء في الزّوايا الخشبيّة، فيخبره فؤاد إنّهنّ طالبات جامعة على الأغلب، حتّى إنّه ألقى التّحية من بعيد على بعض منهنّ كونهنّ من زميلات صفّه. يحتسيان البيرة ويأكلان الكباب، ثمّ يمضيان نحو تلك السّاحة الواسعة المكتظّة بالبشر، ساحة المحافظة المزنّرة بأشجار الجوز والاسبندار. ومن هناك قاده فؤاد نحو الأزقّة البعيدة حيث يقع القسم الدّاخليّ المجاور للمقبرة. لا صور للرّئيس، وهو ما نال استغرابه فسأل فؤاد عن ذلك. ضحك ضحكته الخجولة وأخبره بأنّهم حاولوا وضعها في أكثر من مكان لكنّهم يجدونها ممزّقة في الصّباح، أو مرسوماً عليها صورة لحمار، أو بعض المرّات ملوّثة بالبراز. الأكراد لا يروّضون. فؤاد يمتلك حماساً هائلاً لحياته في المدينة المختلطة في كلّ شيء، اللهجات، اللغات، السّحنات، وهو من تأثير جامعتها كما يقول، جامعة السّليمانيّة. صور تلك الرّحلة تومض في خياله مثل مصباح كهربائيّ.

نام في سرير أخيه وكان واحداً من عشرة أسرة تحتويها قاعة طويلة تنفتح شبابيكها على الجبال. ومصباح بعيد معلّق في السّماء ظنّه نجمة، وإذا بها ليست مصباحاً واحداً، بل مصابيح متنائية تلتمّ على نفسها في البعيد، حيث يخيّم ظلام دامس على الجبال. يخبره

فؤاد إنّها قرى في السّفوح. وفي منتصف الليل، كما تذكّر، فزّ من فراشه على أصوات رصاص قريب، حسبه حلماً أوّل وهلة لكنّه لم يكن حلماً. تجمع الطّلّاب في الأسفل كي لا يصاب أحد برصاصة طائشة، وكان هناك من يقول إنّهم «البيشمركة»، والبعض سمّاهم الجيب العميل، وآخرون كانوا يرفضون هذه الصّفات خاصّة من الكرد القادمين من أربيل، وجمجمال، وكركوك، وبغداد، ورانية، ودهوك. رجال بحقّ، تذكّر بأنّه سمع صوتاً هامساً من حشد الطّلبة، ودمدم البعض من طرف القاعة السّفليّة بنشيد، «أي رقيب»، الذي يبشّر بدولة للأكراد فشعر بالخوف. تلك الليلة لم يستطع النّوم بشكل مريح، جاء لإيصال نقود إلى أخيه فؤاد وسيعود على عجل إلى بغداد. (براء) الفتاة الأنيقة القادمة من الحلّة ستنتظره في حديقة الزّوراء. وكان ثمّة توتّر في الشّوارع والمقاهي وحتّى في مقصف الجامعة الذي يشبه صالة مربّعة واسعة للطّعام والشّاي والقهوة بأسعار مخفّضة. تلك الرّحلة، التّاريخيّة، كما وصفها مع نفسه، تركت صورها وساعاتها في ذاكرته.

حدّثته نفسه قائلة: اسمعْ، عُدْ ببصرك أربعين سنة إلى الوراء، أشعلِ النّار في ذاكرتك الشّعريّة، ماذا تجد؟ سوقاً ضيّقاً مسقوفاً يعبق برائحة القماش والبهارات. نيران على الجبال توحي بحدوث شيء خطير. سيّارات (بيك أب) تتجوّل في الشّوارع تمتلئ خلفيّتها بمسلّحين، تجوب الطّرق والسّاحات. نوادٍ تقدّم العرق والبيرة. أفلام جريئة لا تعرض في سينمات بغداد، يقول فؤاد إنّهم يسمحون لها بالعرض في سينما (سيروان) لتدمير ذائقة الشّباب الكرديّ. صديقه الشّيوعيّ محمّد العاني يلتهم كلّ يوم كيلو بقلاوة. يقطن في حيّ العامل في

بغداد، وهو سمين جدّاً، يلهث كلّما مشى نحو الجامعة لأنّ الطّريق يبدأ بالصّعود من ساحة المحافظة حتّى الجامعة. أخبره فؤاد بعد سنوات إنّه توفّي في مرحلة الحصار بسبب نقص في أدوية علاج السّكّر، ونهمه للحلويات والطّعام الدّسم. مات طبعاً من دون أن يتزوّج. أمّا في الشّتاء فيصبح طريق الجامعة طريقاً جحيميّاً حين تهبّ رياح (الرّشه به) الرّياح السّوداء، التي تظلّ تدوّم بين الجبال لمدّة ثلاثة أيّام على الأقلّ. الجبهة الوطنيّة بين الشّيوعيّين والبعثيّين. جريدة (طريق الشّعب) مقروءة في مقهى (مام علي) المقابلة لمحلّ الحلويات الذي يلتهم منه محمّد العاني البقلاوة كلّ يوم عصراً. وهناك خلال تلك الأيّام القصيرة، تعرّف على المغنّين الأكراد، حسن زيرك وعلي مردان ومحمد عارف جزراوي، والمغنّي الكرديّ الفذّ من تركيا (شفان) وقد تعوّد على سماع أغنيته أي فرات، فرات، فرات.

وبعد عودته من تلك القفزة الذّهنيّة انتبه إلى مغادرة الزّائرين مع شياطينهم وملائكتهم، وسمع القطّة تموء في الحديقة. القطّة حزينة على أبنائها. القطّة لا تنام ولا تدعه يواصل كتابته. القطّة تشوّش أفكاره. لقد مات أخوه فؤاد قبل سنة، وربّما سنتين، رغم أنّه أصغر سنّاً منه، ورثاه بقصيدة عصماء حزينة اختصر فيها رفقة خمسين سنة في هذه الحياة. فتح عينَيه وتغيّر المشهد حوله تماماً. وتناهى إلى سمعه هسيس بعيد لسيّارة تسير على شارع ناء وكأنّه قادم من حلم سحيق الغور في داخله: آه يا داخلي، يا مرجلي المجبول من هزائم، وخيبات، ومذابح، وحروب. ثمّ تناهت إلى سمعه أيضاً حركة الأفلاك هناك، في الفضاء الأعلى، في السّماوات السّبع أو المليون، في الثّقوب السّوداء ذات الكثافات المطلقة حيث لا يهرب ضوء ولا تطير أحلام.

المريخ دار حول الشّمس، والأرض تمهّلت في سيرها غير عابئة بهم، بأبنائها المقعدين.

***

ثلاثة. فقط ثلاثة. هي الكلمة التي سمعها من فم الطّبيب، فهل هي ثلاثة أيّام أم ثلاثة أسابيع أم ثلاث سنوات أم ثلاثة قرون؟ المدينة تغفو على كتف النّهر مثل فتاة غنجة، وثمّة خطوات زاحفة من خلف الباب. لقد ارتفعت الشّمس بلا شكّ فوق المدينة وفوق زقاقهم، وكانت خطوات حذرة، سمعها تتجه إلى الحديقة الصّغيرة، حديقة البيت. هل هو الشّيطان عاد ثانية في مهمّته التي يجهلها؟ هل هي خطوات الموت؟ الموت يهجم، الموت بمنجله يتجوّل في الحديقة، لقد ورث جسداً مشلولاً لكنّ روحه فائرة. سيواجه الموت بالكلمات، بالخيال، بالشّعر، بالوفرة الذّهنيّة التي تتملّكه فيما تبقى له من زفرات الأوكسجين.

وجاء الشّبح المرعب لينتصب جنب سريره، واقفاً فوق رأسه تحيط به هالة مظلمة، حجب عن عينَيه الضّوء المنسلّ من السّتائر. هي وقفة ثابتة، شجاعة، لا يمتلكها سوى ملك الموت، بوجه عريض سمين، تنتأ على صفحته خيوط سميكة تكاد تشبه حبّات الكريستال. الموت بشعر كثّ أسود ينتهي بلمعات ذهبيّة، والعينان لا تبينان من الشّعر المنسدل إلى الأمام، لكنّه لم يمدّ إلى جسده منجله، ولا حربّته، ولا سيفه ليلتقط روحه من هذا الجسد العاطل. وإذا به يسأله فجأة: الفطور، عليك أن تأكل. إذن هو ليس الشّيطان الذي زاره قبل أيّام في المستشفى، ولا عزرائيل، وبعد ومضة من الوعي تبيّن أنّها زوجته. ولكونه يسبح في عتمة الزّاوية

التي ركم فيها سريره مضت (براء) وأزاحت السّتائر فتدفّق الضّوء إلى الصّالون، هجم عليه كما يقول ابن الخطيب هجوم الحرس. ليته سافر إلى الأندلس ليرى جوامع الأجداد وحدائقهم وبقايا قلاعهم، هي التي أصبحت قبلة للسّيّاح. ولكنّ عمره تاه في صحاري الحروب، والمعسكرات، والليالي المظلمة، وفرقعات القنابل المعبّأة باليورانيوم المنضّد، وغزوات المجاهدين، وقعقعة السّلاح.

كشف الضّوء ما يحتويه الصّالون، حتّى من دون أن يدير رأسه. هو لا يستطيع أن يدير رأسه، نال العطب من أعصاب جسده وعضلاته ومفاصله، وتحوّل إلى ذاكرة فقط، إلى خلايا عصبيّة متوهّجة لها نشاط واحد هو إشعال النّار بتلك المنطقة المسمّاة ذاكرة. كم تمنّى في شبابه لو يستطيع إشعال النّار في الكرة الأرضيّة عسى أن يأتي جيل من البشر يكره الحروب، والثّارات، والعنف، والعبوديّة. جيل يمتلك عقلاً في إدارة شؤون حياته اليوميّة. أجل، كثيراً ما فكّر بإشعال النّار في ما حوله، أليس الشّعر هو إشعال النّار في كلّ ما يحيط بالشّاعر؟ في العقائد والطّقوس واللغة الخشبيّة التي توارثتها المجتمعات عن أقوام عاشت قبل ألف سنة أو يزيد؟ أليس الشّعر هو تمرّد على القناعات الرّاسخة وأفكار القطيع الدّينيّة ونمط عيشهم اليوميّ وأحلامهم السّاذجة في الخلاص من البؤس والألم والوحشة واليأس والعبثيّة في وجود بشريّ لا يعني في النّهاية أيّ شيء؟ أليس الشّعر هو ما ينفتح على حقيقة الوجود وهي إنّ كلّ شيء باطل وقبض ريح؟ الموت هو ما يرغب في التّمرّد عليه، وأكبر تمرّد ضدّ الموت هو أن يتقبّله الإنسان كجزء من الحياة اليوميّة. هو مثل رغيف الخبز، ومضاجعة المرأة، والسّباحة في نهر،

والنّوم الهادئ دون كوابيس. ربّما يتغلّب الفرد، الكائن الضّعيف السّائر نحو حتفه على العيش باستخدام ذلك السّلاح السّاحر، السّلاح الغامض، سلاح الخيال. والخيال كلمة ضخمة، أضخم من الأرض، تخبره فلسفته التي وصل إليها في زمن متأخّر من حياته. تكون من ذرّات كونيّة سافرت مليارات السّنين الضّوئيّة كي تؤسّس العقول الهشّة النّاعمة. لذلك يستطيع أن يقول في المحصّلة إنّ عمره يبلغ مليارات السّنين. فكيف يخترق اللحظة أسرار مليارات من النّجوم، والمجرّات، والأشعّة البرّاقة، والثّقوب السّوداء؟ أعجوبة، أليس كذلك؟ إذن، ينبغي عليه أن يفهم أنّ المكيّف ما زال في مكانه عند الزّاوية المجاورة للنّافذة، وأنّ الأرائك الضّخمة تتوزّع على ثلاثة أضلاع. وعن يساره المكتبة الخشبيّة وهي تكتظّ بالكتب، الكتب التي لوّثت عقله وجعلت منه (تيمون) أثنيّاً آخر، بطل تلك المسرحيّة التي كتبها شكسبير عن الوجيه اليونانيّ بعد أن هجره الأصدقاء والخلان. مثله هو بالضّبط، تحت رحمة زوجته وابنه.

أحسّ بالسّرير يرتفع، ويرفع معه رأسه والجزء الأعلى من جسده، ليعرف أنّ (براء) تعدّ فمه لاستقبال الطّعام. هو متنوّع حسب مواقيت النّهار. ثريد الحليب. دولمة محشوة بالرّز واللحم الضّاني. فخذ دجاج مشوي في الفرن. رز عليه مرقة فاصولياء. سيخ كباب بطعم البصل والثّوم. تمرات من النّوع الخستاوي، لونها أسمر يميل إلى الحمرة. حز برتقال له رائحة نفّاذة. شوربة الرّز مع الدّجاج. خبز مفتّت بقطع صغيرة جدّاً. لبن رائب وحامض. كلّ تلك الطّعوم تشابهت طوال شهور أو يزيد في فمه. وهكذا ظلّت زوجته تحشوه بالطّعام بعد أن أصبح مشلولاً تماماً. وكأنّها تنتظر معجزة

مثل تلك التي اجترحها عيسى بن مريم كما تقول الكتب. هذا الجسد الميت يحتاج إلى طعام هو الآخر، مادّة الحياة المتوارثة منذ ملايين السّنين، بل منذ مليارات السّنين، منذ أوّل خليّة حيّة تكوّنت على الأرض أو ربّما سقطت من الفضاء، جلبها نيزك من المجرّة الشّاسعة أو من مجرّة ثانية لا يراها أحد. يفتح فمه ليلتهم طعام المجرّة. هبط الملاك في بابل، وراحت الملعقة الرّقيقة تزقّ فيه الخبز المفتوت بالحليب السّاخن المطعّم بالزّبدة والسّكر، ملاكه الأنثويّ الذي أحبّه حين كانت زميلته في قسم اللغة العربيّة. بصمت يمتصّ العصيدة اللذيذة، وقد امتلأ الصّالون بأشعّة الشّمس. وفي مكان ما يأتي صوت التّلفزيون، من غرفة الجلوس الواقعة بعد ممرّ المدخل، وهو يهدل بأغنية عراقيّة ظنّها حسب ما استعادتها ذاكرته لزهور حسين، المغنية الأنيقة التي عرف لاحقاً أنّ اسمها كان في البدء زهرة عبد الحسين. لقد بدأ التّلفزيون يذيع أغاني قديمة وجديدة بعد انحسار الموجة الدّينيّة من البرامج في السّنتَين الأخيرتَين، وكان الملاك يضيء عينَيه، يهبط من الماضي البعيد، حين كانا يتجوّلان في شارع النّهر الذي يبدأ قرب المدرسة المستنصريّة ويمتدّ نحو جسر السّنك. الذّهب المعروض في الواجهات، الشّابّات المعطّرات يرمقن زجاج المحلات النّسائيّة، ويقفن متسمّرات، مسحورات، أمام طقم نسائيّ على موضة باريس أو روما، ويتأمّلن بالفنّ كما لو كن يتأملن لوحة لبيكاسو كما وصف المشهد واحد من أصدقائه كان يجلس معه في مقهى البرلمان أيّام الجمع، منتظرين فتح الحانات على كتف دجلة، لتناول طقوس الخيال التي تضخّها فيهم بيرة السّتينيّات والسّبعينيّات، بيرة فريدة. وكانوا يحلمون بأوروبا، موسيقا بيتهوفن وموزارت وجايكوفسكي وهايدن، ولوحات بيكاسو الأصليّة المعلّقة

في متحف برشلونة، وحانات البيكاديلي، ونهر السّين، والجلوس في المقهى التي دأب سارتر على الجلوس فيها. ولكن للأسف لم تتحقّق أيّ من تلك الأحلام بعد أن داهمتهم الحرب في صيف تعيس لم يخرجوا من قيظه حتّى هذه اللحظة، لحظة شلله المميت. يردّد لنفسه كما لو كان في شكّ من مشاعره، بغداد اليوم تختلف. ثمّة الكثير من مضمر بغداد الذي يحتاج إلى تسليط الضّوء عليه، وإنارته حتّى يرى المتأمّل، ويستلهم، ويتعلّم من حكمة الزّمن، وحكمة الحياة التي لا تتوقّف عند جيل من الأجيال.

وكاد يقول لـ(براء) تلك الحقائق بثقة، لكنّها غادرت نحو الصّالون الدّاخليّ ربّما لتتابع أغنيتها الأثيرة. أغنية زهور حسين. نعم، اختفت البنية التّقليديّة الثّقافيّة في بغداد، أو كادت، بسبب مرور الزّمن وما رافق ذلك من حروب، وقمع، وهجرات طالتّ المجتمع البغداديّ، والعراق كلّه في النّهاية. لاحظ كلّ ذلك في جولاته على الأمكنة التي عاش فيها أو تسكّع فيها عندما سكن هناك ردحاً من الزّمن. اختفت أماكن معروفة كالمقاهي، والشّوارع، والحانات التي شكّلت ذات يوم ملاذاً للفنّانين العراقيين، والمثقّفين، وكانت مساحة للحوارات حول الأوضاع السّياسيّة، وآخر الاصدارات من مجلّات وكتب وأفلام. لكن لماذا؟ يسأل نفسه ويصمت. فريدة وشهرزاد وجوهرة، فتيات الأزقة الرّاقصات في خيالات مائتي حانة في الكرخ، والرّصافة. يفكّر: يا لقلبك، قلب الشّاعر المهزوم، المشلول، القادم لمواجهة الموت بعزم متين. نعم كان هناك في زمن الشّباب وتوهّج القصائد في الحانات والمهرجانات وأوهام الشّهرة قبل زمن الحروب التّعيسة التي لفّته مثل ملايين المواطنين في إعصارها المتصاعد إلى

السّماء، حاملاً أحبابه وأصدقاءه وأمكنته الأليفة في ضياع الأزقّة التي زالت أو تآكلت. يغنّي لنفسه: نعم، يا طيري الحامي، ويمامتي، وضوء روحي، يا برائي، وكان الجميع يتذكّر مقهى البرازيليّة في شارع الرّشيد، بواجهته الأنيقة وروّاده ورائحة قهوته المجلوبة من أصقاع الأمازون وسهوب ساو باولو، ومقهى البرلمان ذي التّخوت الخشبيّة وعبق الهيل في الشّاي، وحسن عجمي الجاد أكثر من اللازم، ومقهى أم كلثوم الرّاقص، وبار جبهة النّهر، ومقهى المعقدين، ومنتجعات (أبو نؤاس)، وقد ظلّت طوال عقود أماكن ذات نكهة حضاريّة خاصّة، مثلها مثل ساحة التّحرير، وساحة الميدان، وشارع الرّشيد، وبارات دجلة على الرّصافة وهي تستدير بحنوّ كأنّها قوس خياليّ مرتسم في الذّهن. أين ذهب كلّ ذلك الألق؟ يعرف عياناً أنّ من يتجوّل في بغداد اليوم، كما كان يفعل حين عمل مصحّحاً في تلك الجريدة، وقطن في الفندق الكرديّ، (جبل قنديل)، لا بدّ أن يرصد بوضوح تبدل إيقاع العاصمة بشكل جليّ، بعد الاحتلال خاصّة. فهناك تآكل ماديّ لأعمدة شارع الرّشيد، وانهيار الأناقة في محلاته ومقاهيه وأزقّته، وقد كان ذات سنة جوهرة بغداد، وظلّ كذلك طوال القرن تقريباً، منذ أن أسّسه خليل باشا، الوالي العثمانيّ. وذاك ماض موغل في تلافيف الذّاكرة القلقة، المضطربة، المتصارعة مع روحها، والماضي لا يمكن استعادته، لكنّ المقعد مثله يستطيع تذكّره، وجلب تفاصيله، واستنباط الصّور القديمة بشاعريتها، إذا ما تواشجت مع مياه دجلة ونوارسه وجسور الضّفتَين كرخ، ورصافة. كما لو أنّ تلك الجسور خالدة منذ أن رأوها في طفولتهم وشبابهم، ومنذ أن بدأ الاهتمام بالشّعر، والقصّة، والرّواية، والفن التّشكيليّ،

والمقامات البغداديّة التي كانت تعقد كلّ جمعة في المتحف البغداديّ. هناك حيث غنّى ذات يوم شعوبيّ، وحسن خيوكة، ويوسف عمر، ومحمّد القبانجي، وربّما سليمة مراد وعفيفة إسكندر وأختها أنطوانيت، مروراً بناظم الغزالي ذي الحنجرة العباسيّة المرتفعة فنّاً وأداء. وليس بعيداً عن ذلك تمثال شاعر الخمرة العراقيّ، وهو يمسك كأسه في لهفة للعبور إلى عالم الغيب، والاندماج مع المطلق بالخمرة أو غيرها، وهنا تقصد ذاكرته (أبو نؤاس) المتربّع على ساحة معشبة من ساحات الحدائق التي تسمّت باسمه. (الحسن بن هانئ) ما زال هناك، شامخاً منذ أوّل قصيدة سكرى، لكنّه مهمل مثل ساحة الوثبة، وجداريّة فائق حسن، وجداريّة عملاق النّحت السّومريّ جواد سليم.

يفكّر لو أنّهم يصنعون له تمثالاً هو الآخر، ولكن أين يضعه يا ترى؟ سأل نفسه بعد مغادرة زوجته المترهّلة الحنونة التي عرفها قبل خمس وعشرين سنة أو يزيد. حتماً ليس جنب تمثال الرّصافيّ، فساحته لم تعد بمظهر لائق لكي يقف وسطها شاعر. لقد تحوّلت إلى مرآب لعربات النّقل الخشبيّة، وبسطات لبيع الجوارب والأحذية الرّخيصة المستوردة من تركيا وإيران. ولا قرب تمثال الزّعيم عبد الكريم قاسم النّصفيّ، المنزويّ في ساحة ضئيلة يستريح فيها شارع الرّشيد. لأنّ أذنَيه ستقارنان بأذنَيه، ممّا يوقظ لديه الغضب ذاته الذي كان يعيشه قبل ستين سنة. لقد مات هذا الرّجل وشبع موتاً ولا أحد يعرف قبره. زال مثلما زال الملك فيصل، والدّيكتاتور العتيد، وجنرالات حروب إيران والكويت. وكما زالت صورته، أي الزّعيم، تلك التي وضعها أبوه قبل ستين سنة جوار باب المضافة.

يستحقّ تمثالاً، من البرونز أو الغرانيت أو الفضّة، لا يهمّ. أليس شاعراً؟

اسمعوا إذن هذه المعلّقة، ثمّ ترنّم باكياً: لست تجيد الرّؤيا/ كي تبصر ذاتك/ فامض بعيداً/ واكسر مرآتك/ ها أنت بقايا التّاريخ/ فلملم أشتاتك/ يوم رأيتك متشحاً ثوب الرّيح/ تخطّ على الرّمل صلاتك/ ناديت عليك/ لكم أنت هلامي/ تخلط ما كان/ بما سيكون/ وغداً تدرك من أنت/ فتطفئ مشكاتك/ لن يحسدك الشّعراء/ فما كنت المتنبي/ أو كنت أبا تمام/ بل أنت صريع الأوهام/ تختال كعرف الدّيك/ وتسرج خيلك نافرة من غير لجام/ ها أنت تغذّ خطاك/ وتمضي في الفلوات بلا أحلام. أليست قصيدة فذّة؟ تساءل مع نفسه، وقد كتبها ذات شتاء ماطر بعد سكرة عرمرميّة مع صديقه (هاتف) في واحد من بارات السّعدون لا يبعد كثيراً عن ساحة النّصر التي دأبا على ركوب باصاتها نحو باب المعظم. الشّاعر المقعد، ابن الهزائم المتواشجة والانكسارات اليوميّة والكوابيس المتلازمة التي شكّلت مظلّة لشعب كامل منذ مئات السّنين. الخوف يجول في شراييننه مثل الهواء. الهزائم شجر يوكالبتوس ظليل يتفيؤون تحته جيلاً بعد جيل.

الشّاعر السّكران، والمهزوم، والمقعد، يراقب الذّبابة تحطّ على وجهه ولا يستطيع طردها.

نشر في جريدة الجمهوريّة والثّورة والقادسيّة والأقلام ومجلّة الكلمة والطّليعة الأدبيّة، وحاول النّشر في مجلّات عربيّة بعيدة لكنّه لم يُوفَّق إلّا مع ذلك النّص الفذّ عن المستبدّ وقد نشرته جريدة لبنانيّة على صفحة كاملة. صحيح أنّه لم يجمع ديواناً لكنّه

يمتلك مخطوطات لقصائد يمكنها أن تشكّل خمسة دواوين، بل مجموعة كاملة للشّعر. ابنه (بشير) يعرف ذلك وسيوصيه بنشرها في شارع المتنبي إن غادر المسرح. هذه التّفاهات التي ظهرت بعد الاحتلال ليست أفضل منه. أمكنة بغداد التي عايشوها مراهقين وشباباً وطلّاباً جامعيين لم تعد أمكنة شعريّة، أصبحت أطلالاً، هناك حيث يصدح الشّاعر بمعلّقته: لخولة أطلال ببرقة تهمد/ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد. والحديث يقود إلى الوجوه المتعبة، وجوه النّاس النّاضحة بالبؤس: باعة الطّيور في شارع الجمهوريّة، وحمّالو الشّورجة، والشّحاذون نساء ورجالاً وأطفالاً، وسائقو سيّارات الأجرة من حملة الشّهادات العليا، وعربات التّكتك التي شكّلت ذات يوم رافعة عجيبة للثّورة التي اندلعت ضدّ الحكومة وشارك فيها (رسول) على الهامش. ثمّ المتعبون من مشرّدي الحروب الكبيرة والصّغيرة، حروب الأحياء والطّوائف والقوميّات، من مقطوعي الأطراف، ومن فقد عقله، ومن تشرّد دون مأوى في الزّوايا، وتحت الجسور، وفي مداخل البنايات المهجورة، سويّة مع القطط الجائعة والكلاب السّائبة ومخلوقات العالم السّفليّ. كلّهم هناك، في بغداد مرتفعة الضّجيج، القانطة حيناً والمتفائلة حيناً، وكأنّها دولاب ألعاب يصعد عالياً ثمّ يهبط نحو الأرض في رقصة تدور خلل الأزقة، والسّاحات، والمنعزلات تحت الجسور وبين العمارات الكئيبة. رقصة عجائبيّة تدور كلّ صباح، ودون توقّف.

***

أحسّ أنّ الوجبة الحليبيّة استغرقت سنوات. يغلق فكّه بقوّة فتلبث (براء) لحظات ممسكة بالملعقة المليئة بثريد الحليب المحلّى

بالسّكّر. ينتابها اليأس من عناده ورفضه للطّعام. فتضع الصّحن مع ملعقته على الطّاولة الصّغيرة المركونة جنب السّرير، ثمّ تتناول الكأس وتدنيه من فمه. يشفط الشّاي الدّافئ عبر مصّاصة بلاستيكيّة مثل التي تستخدم لامتصاص العصير في المحلّات، عصير البطيخ والبرتقال والرّمان والموز بالحليب، وقد شاعت كثيراً بعد الاحتلال الأمريكيّ وانفتاح التّجارة على العالم. يمتصّ الشّاي برغبة عارمة، يمتصّ ويمتصّ وكأنّه سيشرب مياه بحيرة الحبانية كلّها، وكؤوس دجلة، وجرار الفرات عند مدينة هيت. ويفكّر بسيجارة بعد هذا الفيض من الحلاوة الدّاخلة على خلاياه، لكنّه للأسف ممنوع منها. قبل أن يموت جسده، كان يدخّن ثلاث علب يوميّاً، البن والكنت الخفيف والكلواز بعض الأيّام، إذ إنّ الدّخان صار دواء للحياة المريضة، الحياة الجافّة جفاف خياله في ليلة موحشة خالية من القمر. هل كان يستعجل تلاشيه من مسرح المذبحة؟ هل يرفض الحياة التي منحت له مرّة واحدة؟ هل يرغب في الرّحيل عن مجتمع يفتقد للشّعر ويغوص لحظة بعد أخرى في بحيرات الكره والثّأر والتّفاهة؟ كان يسأل روحه، يفسّر الغامض والعويص من الظّواهر والأحداث فينتهي، مثل الملايين غيره، إلى العجز. فيستعجل الرّحيل نحو ذلك القبر الموحش الذي يتخيّله شاخصاً في مقبرة القرية التي دفن فيها أخوه فؤاد وجده وأمه وأبوه، وعشرات الأشخاص ممّن عرفهم، وسمع أصواتهم وحكاياتهم في ليالي القرية المظلمة قبل أن تتكرّم عليهم الحكومة وتمد أسلاك الكهرباء لتنير العقول. غاب الجنّ، واختفت السّعلاة، ونام الأموات نومتهم الأبديّة على صوت الذّئب عاوياً في الفلاة، والقبّرات تهدل محزونة على بيضها، وخيالات السّراب وهي تحاكي الماء. وكانت يداها

الماسكتان بالكأس حانيتَين، وجلّ ما يستطيع لمسه أثناء جولاتهما في بغداد بعد أن ينتهيا من دروس اللغة العربيّة اليابسة كنبات الشّيح، كانت تلكما اليدين النّاعمتين، يدي حبيبته في كلية الآداب، قبل ما لا يستطيع تذكّره من سنين. عادة ما يدخلان، قبل الكوارث الوطنيّة، منتجع الزّوراء من الباب القريب من معرض بغداد الدّوليّ، ويسيران في الممرّات مبتعدين عن قسم الحيوانات الأليفة والبريّة والطّيور، وبعيداً عن قسم الزّهور، فعادة ما تكتظّ تلك الأماكن بالزّائرين، ويتوغّلان في الأحراش يفتّشان عن ركن منزو بين الشّجر والورود والسّيسبان، جوار البحيرة الصّغيرة التي عادة ما تكون محاطة بالزّهور والعشب والأطفال. وكان صوت فيروز يكتسح الفضاء من مسجّل في مكان ما في الحديقة. ويفكّر، في هذا الصّباح، بأنّ جيلهم سمع فيروز وهم في أوج المراهقة، وكانت نمطاً جديداً قادماً من مدرّجات بعلبك، وجبل صنّين، وصخرة الرّوشة، يشتّت قليلاً رتابة الغناء العراقيّ وحزنه. تعوّد جيلهم على سماعها في صباحات هادئة، الشّباب يلملمون أنفسهم للذّهاب إلى الجامعة أو إلى العمل، وكانت تصعد بالشّعراء إلى عوالم المثل، والصّور، والخيالات، والطّفولة. زوجته (براء) كانت تعشق فيروز مثله. وسمعها الحالمون لاحقاً حين كبروا وبدأ الشّيب يغزو عوارضهم، وإذا بها تتجدّد على مر الزّمن. كلّما تأصّلت تجربة الفرد في هذه الحياة، وازدادت حكمته، كلّما لامست فيروز روحه بعمق أكبر، وهذا يعود إلى الصّدق الفنيّ، والبراعة الموسيقيّة، كما خطر بذهنه، وفوق ذلك نمط الكلمات المختارة لكلّ أغنية.

وفي تلك الحديقة الغنّاء، حديقة الزّوراء الملوّنة بالزّهور والطّيور والعشب، كان يحدّث حبيبته (براء) عن المجتمع المتخلّف الذي

يراقب العشّاق كما لو أنّهم سيرتكبون مذبحة إذا ما تلاقت أيديهم أو شفاههم. كان يكيل الشّتائم للأخلاق، والأديان، والأعراف، والكتب المقدّسة، كي يثبت لها مقدار تحرّره في رؤيته الشّخصيّة نحو المرأة وتقديره لرغباتها. بالكاد يجدان مقعداً تحت شجرة يوكالبتوس ظليلة، ويجلسان محدّقين بالبرج القريب من ساحة الاحتفالات، ثمّ يستعرضان سيرة أصدقائهما في القسم، والأساتذة، والواجبات الجامعيّة، وتحدّثه عن القسم الدّاخليّ الذي تأوي إليه، وكيف تعيش البنات، أحلامهنّ ورغباتهنّ وأفكارهنّ في زمن مشوّش مضطرب لم يكن يدرك المطبّات التي سيسير فيها. ويقتربان قليلاً قليلاً، جسداً لجسد، ثمّ حين تخلو الدّروب تتلامس أصابعهما فيسري ذلك التّيّار الغريب في دواخلهما. تيّار الرّغبة، والعشق، والتّوهّج بين الذّكر والأنثى. حدث كلّ ذلك قبل عقود طويلة، ولا يدري لِمَ تخطر تلك اللحظات البعيدة على ذاكرته؟، والحاضر الماثل أمامه هو أنّ زوجته تأخذ كأسها وصحنها وتبتعد عن سريره. ثمّ يسمع خطواتها البطيئة تتجه نحو المجاز داخل البيت. لا بدّ أنّها تجهّز نفسها للمضي إلى السّوق القريب كي تجلب حاجات اليوم. يراها وقد ترهّل جسدها وأصبحت تجرّ نفسها وكأنّها تنوء تحت وطأة عبء الزّمن. تلهث وتشهق الهواء بمشقّة فائقة، خاصّة حين باتت تعاني من الرّبو، وتكاد تختنق في الصّيف حين يطبق الغبار على الآفاق.

فكر أنّه في الضّوء أكثر ممّا يجب، الشّاعر المقعد المشلول، الشّاعر الميت الجسد الحامل لإرث عقود من تاريخهم المسنّن مثل سكاكين، مثل حسك سمك ينغرز في الحلوق. تاريخهم الزّاني، المنحرف، المشقّق مثل أسفلت شوارعهم. تاريخهم الدّموي، الذي

لوّث بصره قبل أن يصبح شاعراً، وقبل أن يرحل إلى بغداد لدراسة اللغة العربيّة. يتسع حلمه ويشطّ به الخيال، بعد أن شارفت الرّحلة على خطّ النّهاية وكأنّها لعبة كرة قدم ساخنة.

***

كان عمره ستّ سنوات، الشّيء الوحيد المتأكّد منه هو حدوث تلك الواقعة، وأنّه بلغ طفولته على فوضاها وبؤسها ودمويّتها، لكن ذلك اليوم يستحيل نسيانه. حدث ذلك حين قاربت السّاعة الظّهيرة. نادى المنادي بين البيوت بأنّهم جلبوهم، جلبوا القتلى، ولم يكن أحد يعرف من هم القتلى، على الأقلّ من ناحيته، الجميع يتوجّه نحو شاطئ النّهر، فيركض مثل الآخرين بين بقايا القمح المحصود، ويجتاز السّواقي الموحلة، وينطّ فوق نباتات العاقول المسنّنة ذات الإبر الرّمادية التي يخشاها الأطفال خاصّة في الليل. القيامة الآن، يقف البشر في الضّفّة الأخرى، يقف البشر في ضفّة القرية، ناظرين إلى ضفّة القتلى الممدّدين في قاع سيارة الـ(بيك أب). وكانوا ثلاثة وجوه مدمّاة، أجسادهم ملفوفة بشفوف صوفيّة مثل التي يتغطّون بها في الشّتاء. بقع دم على التّراب، والفرات يطمي، يحمل ماؤه عروق الطّرفاء، وسعف النّخيل، وحوافر الخيل النّافقة، وربّما الحمير والسّمك. يعرض على عيون قتلى من سمّوهم بـ(الحرس القوميّ) خفّته، ذلك الفرات النّبي قبل إبراهيم. انقلب عليهم الرّئيس الفجّ عبد السّلام عارف وأبادهم في الشّوارع، ولم تنفعهم رشّاشات بورسعيد المستوردة من مصر. قتلوا الزّعيم عبد الكريم قاسم في الإذاعة، وقتلهم عبد السّلام عارف صديق الزّعيم بعد أن طاردهم الجيش في الأزقّة والمحلّات التي اختبؤوا فيها. حملت تلك الواقعة الدّمويّة أسماء غير مألوفة، مثل معسكر الوشاش

والهنيدي والرّشيد، وأزقّة الأعظميّة والوزيرية والبتاويين. يتذكّر طيّات الزّمن عبر تلافيفه الموحشة، زمن البدايات. فيرى الدّم يتمدّد من الجثث ويسيل، كأنّه فيضان فراتيّ في ربيع ماطر، ليظلّل بساتين النّخيل التي تبدو مثل قطعة متماسكة من العاقول الرّبيعيّ، والفرات يتحوّل إلى مسيل أحمر قادم من عانة وهيت ودير الزّور، وأبوه يلبس دشداشة بيضاء، حليق الرّأس بشارب أسود، يقلّب في الرّؤوس بقلب حجريّ، ونظرة ثابتة، متعرّفاً عليها. أجل، هم أقرباؤه البعيدون وعائلاتهم تسكن بيوت الطّين في المقابل لهم تماماً، لكن ينبغي العبور بالقارب إلى الجهة الثّانية والفرات بحر خابط الماء ينحدر عنيفاً إلى الشّرق، إلى الفلوجة والحلة ومدن الجنوب. وحين أركبوهم القارب، ومدّدوهم في قعره سار الخشب مع المجذافين كأنّه طلقة صامتة، بينما الجميع يقفون حزينين يحدّقون بأبيه وهو يرافق القتلى. وفي ذلك المساء عاد أبوه ونال منه صفعات قاسية. لو أنّه يستطيع تحريك يده الآن لتلمس آثارها على خده، صفعات الطّفولة المنسيّة يكيلها الآباء والأخوال والعمّات والخالات على وجوه بريئة بالكاد تتلمّس مجسّات حياتها وبيئتها. قد لا يجدها بعد مرور السّنوات الطّوال لكنها ما زالت في ذاكرته، صفعة والده، لأنّ مكانه كما قال له، لا يكون جنب جثث إنّما أمام كتبه. أوّل قتلى رأتهم عيناه. لم يكن أخوه فؤاد قد ولد بعد، كما أنّه ميت الآن بسبب الكورونا.

يسأله أيّ شخص يزوره إن كان ينام، فيقول له في خياله نعم أنام، لا يهم إن كان الوقت ليلاً أم نهاراً، فهو يرسم جنّته في خياله وينام فيها.

- سأكتب مذكّراتي كاملة وعليك أن تنشرها إذا ما متّ.

يقول لـ(بشير)، إيماء، وهو يطلّ على سريره، كعادته، كلّ صباح. لم تصدر منه سوى همهمات غير مفهومة.

يقف (بشير) بجسده الفارع، وعينيه الصّغيرتَين السّوداوَين اللتين تشبهان عينَي أمّه، على سريره مذهولاً يحاول فهم ما يبربر به. لكن دون جدوى. الكلام في الجمجمة فقط. ثمّ يتساءل في سرّه: ما جدوى النّشر؟ روحه الدّخّانيّة لا تفقه هذا السّؤال، فيتذكّر تراث آلاف الشّعراء ممّن سبقوه، وآلاف الكتّاب ممّن تركوا إرثهم للبشريّة واستضاءت به طوال تاريخها البربريّ، هل يحسّون بالأمر في قبورهم؟ هل هم فرحون، غاضبون، يشعرون بالفخر على ذكرهم الذي لم ينطفئ؟ ترّهات. عظامهم، إن بقي لديهم عظام، لا تعنيها من الأمر شيئاً. سقراط، امرؤ القيس، أبو حيان التّوحيديّ، الأنبياء، الفلاسفة منذ جلجامش وحتّى جان بول سارتر ونوسترادامو‌س، مضوا ولن يعودوا، وستتبخّر أفكارهم ونبوءاتهم كما تتبخّر الكرة الأرضيّة ذات يوم بعد أن تلتهمها الشّمس المتمدّدة خارج مدارها. أين الحلاج الذي شغل بغداد ذات سنة بقتله وحرقه؟ أين المغول والتّتار الذين حولوا ماء دجلة إلى حبر ودماء، حين ألقوا الجثث والمخطوطات بين الضّفّتَين؟ أين جلال الدّين الرّوميّ ورقصته الإلهيّة؟ أين الغجر وأغانيهم في ليل القرى البهيم؟ هذه التّأمّلات، ومثلها الكثير، توصّل لها ليس اليوم في محنته هذه، إنّما منذ أن كان يسكن ذلك الفندق الكرديّ في منطقة البتاويين. وكان يعمل في تلك الجريدة مصحّحاً، يعود إلى فندقه ويستهلّ أرقه بشرب العرق، ويتسمع إلى أنفاس بغداد المتلاحقة، الخائفة، المتوتّرة من مذابح قادمة. في الفندق الكرديّ المسمى (جبل قنديل) تتوصّل من خلال تأمّلاتك المجنونة إلى المصير البائس للجنس

البشريّ، إلى عبث الولادة والموت دون معرفة سبب كلّ ذلك وجدوى قضاء ستين سنة، سبعين سنة، ثمانين سنة ثمّ السّقوط في البئر المظلم. أجل، وحين يغلق ذاكرته، وهو ممدّد على فراشه المتحرّك، سيتحوّل كائناً آخر. يسبح، يطير، يعجن الأعوام كي يشكّل منها عالماً موازياً يخترق حاضره. تقنية لا بدّ منها إذا ما أراد الحفاظ على عقله. التّواصل السّحريّ مع عالم لم يعد له. مثل هذه اللحظة التي استحضرها بغتة: ينزل الدّرج المعتم لتستقبله أضواء خافتة تنبعث من صالة هادئة مريحة صمّمت للخلوة، خلوة العشّاق والمتآمرين والأصدقاء الباحثين عن مكان لا تصله عيون الوشاة وأسماعهم. يعرف أنّه في مكان قريب من ساحة حافظ القاضي وسط بغداد. يجلس في زاوية معتمة كالعادة هو وصديقه (هاتف). وهو شاعر، وشيوعيّ متقاعد، قدّم براءة من الحزب الشّيوعيّ بعد مطاردته في نهاية العقد السّابع من القرن الماضي، وعمل بائع طيور في فترة الحصار سنوات التّسعينيّات. وكانت الإضاءة خافتة وكلّ طاولة مكتفية بنفسها وبحواراتها الهامسة، وغيمة الشّكّ والرّعب تدوّم على الرّؤوس. أكثر من عشر طاولات تسبح بحوارات جادّة ورعب السّلطة، رجال خشنون، شباب وفي منتصف العمر، وكي لا يدخلان في متاهة الأوضاع القلقة يبدأ (هاتف) بنقل أخبار الأصدقاء والمجايلين: فسعدي غادر العراق، وموسى كريدي صار رئيس تحرير الموسوعة الصّغيرة، وصباح محمود يفكّر بالصّعود إلى جبال كردستان، وقد حقّق حلمه بعد ثلاث سنوات من ذلك التّاريخ وصار، كما حدثه لاحقاً على برنامج (الفيسبوك)، آمر مفرزة في الأنصار الشّيوعيين تتجوّل في جبال قنديل. وثامر حسين الرّسام فرّ إلى بلد مجهول وانقطعت أخباره. وفلان أُدخل السّجن، وعلان قدّم براءة من

الحزب الشّيوعي وأصبح في الصّف الوطنيّ يكتب تقارير للجهات الأمنيّة عن أصدقائه. العرق المستكي هذه المرّة، والمزّة اللبلبي الهش، الخسّ والخيار المملّح ويفكّران بأكلة سمك مسقوف على كورنيش أبي نؤاس المطلّ على القصر الرّئاسيّ. بعد أن ينهيا جلستهما المريبة، يشربان البيرة مرّة أخرى، وهنا يحضر الرّصافيّ على المائدة، وكتابه السّيرة المحمّديّة كتاب مدهش وجريء يقول (هاتف)، ثمّ الجواهريّ والسّيّاب ومحمود البريكان ورشدي العامل وفاضل العزاوي، ومن ثمّ يسري الحديث عن جدوى الكتابة على طريقة الشّعر العموديّ، فيمجّدان قصيدة النّثر التي يكتبها الشّاب المسيحيّ القادم من كركوك المعروف بسركون بولص. يلقي عليه (هاتف) قصيدة عموديّة للجواهريّ تتوعّد الطّغاة فيفهم الرّسالة، وأمّ كلثوم تغنّي من جهة البار عبر مسجّلة ضخمة أغنية (فكّروني) الشّجيّة، وهي من كلمات عبد الوهاب محمّد وألحان محمّد عبد الوهاب. ما تلك المصادفة الغريبة في أسماء تتعاكس لتبدع تلك الأغنية الملائكيّة كلمات وألحاناً؟ ومثل كلّ جلسة خمر، تنثال الذّكريات في الرّؤوس، وتتصاعد الآهات، وتندلق الكؤوس في الحلوق، ويتسمعان إلى دوي الليالي المظلمة تأتي من الجدران، وطبول الحرب القادمة. ستتراكم النّعوش في الفسحات الصّغيرة بين الطّاولات، وغناء سكارى كأنّه رثاء للبشر والبلد. ويمضي الكحول في الرّؤوس مثل جيش مغير على أعدائه. ياه لتلك الأيام، وحين يتصاعد بخار الكحول وتفوح رائحة المستكي يتمثّل له وجه (براء) التي رحلت إلى مدينتها، وتواعدا على الزّواج مهما قست الظروف وتعدّدت العوائق. وكان هناك أغانٍ لحسين نعمة وياس خضر وسيتا هاكوبيان ويوسف عمر وجبار عكار

وملا ضيف الجبوري وزهور حسين وصديقة الملاية وجواد وادي. وكان هناك صابئة ومسلمون وعرب وأكراد وتركمان ويزيدية وبدو وكاولية ومعدان. كان هناك حزن عميق في الوجوه، ورعب في العيون القلقة التي تمسح الجهات بسرعة.

صديقنا الذي لا تعرفه، يقول (هاتف) موجّهاً كلامه إلى (رسول)، أركبوه سيارة من المخابرات ليلاً وجالوا به في شارع السّعدون، والكرادة، والمنصور، وقالوا له: انظر، انظر الفتيات المتبرّجات، والشّباب الضّاحك، والمحلّات المتوهّجة بالضّوء والبضاعة، والمطاعم الغاصّة بالزّبائن المنكبّين على طيّب الطّعام. انظر يا قرد، هل تعتقد أنّ صلابتك الشّيوعيّة وموتك تحت التّعذيب ستعني قلامة إظفر لهؤلاء؟ أنت حمار إن اعتقدت ذلك. تلك اللوحة قادته إلى الاعتراف على أصدقائه، والموافقة على الانضمام إلى تشكيلات الصّف الوطنيّ التي ابتكرتها السّلطة وقتها. ولبث أيّاماً في المخابرات ثمّ أُطلق سراحه، لكنّه غادر الوطن ما إن نشبت الحرب. رحل مشياً إلى الكويت ومن هناك إلى ألمانيا مع باخرة تجاريّة، مقيماً في مدينة فرانكفورت تحديداً.

غيمة تلك اللحظات، وهج هاتيك السّنين سرعان ما تحمله على أكفّ من قطن، من صوف ناعم، من شباب بعيد له طعم الحلاوة الطّحينيّة التي كانت عزاء للأرواح في ليالي البيت الكبير عند شتاءات قارصة البرودة تجمّد الماء في الزّيران، وسواقي الحقول المتوغّلة بين جذوع النّخيل وجذور الصّفصاف ونباتات الخروع. ما جدوى كلّ تلك الانثيالات المجنونة، والعقيمة؟ تحيط به ظلمة مطبقة. تنام المدينة وتنام زوجته وينام الشّارع وينام (بشير) في

الطّابق الثّاني. وتنام القطط في الحديقة، أو ربّما أشباحها إذ إنّها ماتت منذ أشهر بغلطة فادحة من (بشير).

يخاطبه (بشير) بعض الأيام وهو يجلس على حافة السّرير: رأيتك وأنت تنظر إلى سقف الرّدهة في المستشفى، وكأنّك كنت فرحاً بالذّهاب، فقد سئمت هذه الدّنيا المليئة بالجبابرة والفاسدين والسّراق الذين يأكلون قوت من يلوكون الصّخرَ خبزاً. تستذكر حتماً أباك الذي قُتل برصاص المحتل، الغرنيغو، وأقرباءك الذين ذهبوا جرّاء انفجار سيّارة مفخّخة. شاهدتك وأنت تتفحّص وجوه العائلة، حيث بعثت نظراتك رسائل الشّكر والامتنان بصمت. كنّا مقصّرين كثيراً، وكأنّك تعترف وتبوح لأمّي بالقول، كنت وفيّاً صادق المشاعر والحبّ. تقول لأمّي سامحيني على سرعة غضبي وانفعالي لأنّني نقي القلب والسّريرة. وشاهد ولده (بشير)اً وقتها وهو يمسح دمعتين سالتا على خدّيه الأسمرين، وتاق لاسترجاع السّنين العشرين التي عاشها مع (بشير)، وعدّه أجمل معلّقة كتبها وألصقها على أستار هذا الكوكب المجنون. أجمل جنّة سيزورها عقب ما يأخذه ذلك الشّيطان أو الملاك أو المسخ السّماوي الذي سيستلّ روحه في يوم كالح. ولم يستطع الرّدّ على كلام (بشير) المؤثّر سوى بنظرات غائمة وحزن عميق في قلبه. ليته جرادة تنطّ في حقل قمح محصود، قطّة تتمشّى فوق السّطح أو تتجوّل في الأزقّة، أزقّة الحيدرخانة والفضل وعلاوي الحلّة والكرادة، أزقّة حي التّأميم والقطّانة والحي الرّوسي وشارع عشرين وشارع المعارض القريب من مبنى المحافظة.

ينام كأنّه قتيل من الحرس القوميّ جلبوه في سيارة (بيك أب) في تلك الظّهيرة. أمّا إذا راح ذلك الشّبح يقف أمام سريره فهو سيموت

من الرّعب. لقد صدقت ظنونه وهواجسه، ويا ليت أمّه لم تضعه في تلك الغرفة المسحورة، المعبّأة برائحة البخور وأنفاس النّساء الفلّاحات السّاهرات على تراقص الأشباح في ضوء فانوس شحيح الضّوء، مركون على حافّة النّافذة.

عاد الشّبح من جديد رغم كثافة الضّوء في الصّالون.

هذه المرّة ليجبره على تناول الدّواء، الكبسولات والحبوب الصّغيرة والكبيرة يديفها الشّبح بكأس ماء ثمّ يصبها في فمه ويرفع رأسه إلى الأعلى كي يتم البلع. وعلى حين غرة نزل رأسه إلى الأسفل، إذ أعادت (براء) السّرير إلى وضعه الطّبيعي عبر تلك الأداة المثبّتة في أسفله. انتظر العذاب اليوميّ مرّة أخرى. التّنظيف. يا للعار. يا للخجل. تلك الفتاة الرّومانسيّة الرّقيقة تتطلّع إلى برازه، تشمّه، تغمض عينيها، تقلّبه بحركة شديدة يحسّ وكأنّه علق خلالها بخطّاف من نار. قلّبته إلى جهة النّافذة بعنف، كما تفعل كلّ يوم، يا للفضيحة. ينبغي أن يعود إلى كهف النّوم، إلى ذلك الحيّز الغامض، الدّخّاني، الحيّز المتأرجّح بين الموت والحياة، وينبغي أن يستذكر مشهداً يجلب الهدأة إلى روحه. أزالت (براء) حفّاظة الأطفال من مؤخّرته ووضعت واحدة جديدة، وعطّرت أسفله بمسحوق البودرة الأبيض الذي تستخدمه الأمّهات للأطفال حديثي الولادة، ثمّ أغلقت الحفّاظة وقلّبته ثانية على ظهره، وأحسّ بالرّاحة، ومن ثمّ غادرته بصمت.

غادرت بعد أن أطبقت الباب خلفها واتجهت إلى الحديقة.

3

- هذه هي حقيقة البشر يا معتوه، هي ليست الشّعر، والحبّ، والعقل المغامر. إنّها البراز أيضاً. المرأة تدرك ذلك أكثر من الرّجل. لأنّها الأقرب إلى إبداع الحياة وغرائبها. زوجتك لا تتقزّز من رؤية هذا الجانب من جسدك.

- حقيقة بائسة، ردّ على صوت ذلك المسخ المنبعث من مكان مجهول في الصّالون. حقيقة تجعل من البشر مخلوقات لا تختلف بشيء عن الجراثيم والدّيدان والقطط والدّعالج وبقر الحقول والقرود.

- لا تستأ لما أنبّهك عنه، فأنت تغفل جسدك بعض الأحيان. ينبغي لك أن تكتب قصيدة عن البراز ذات يوم. بل الصّحيح القول قصيدة نثريّة في مديح البراز. ها ها ها.

ثم اختفى الكائن الدّخّاني ضاحكاً، وسط ذهوله، وتقزّزه من طرح غير لائق مثل ذاك، وسمع الحياة تتماوج في الشّوارع المحيطة بالبيت، وبطرف عينيه لمح الكرسي المتحرّك، ويستخدمانه لنقله إلى الحديقة، ليرى النّهار، وشجرة الليمون ونمل الثّيل وواجهة البيت المقابل، أو لكي يحمّماه في النّهارات الدّافئة. ليته مات مثل أخيه فؤاد، فكّر بحسرة شاعر محبط، يائس، مخصي، معوق الجسد، ينتظر الطّيران إلى سماء لا تشرق عليها شمس ساخنة الأشعّة. ليته مات مثلما ماتت أمّه، أمّ الوطن، دون أن يتحوّل إلى هذا المسخ مشوّه اللحم. هو مسخ بجسد خشبيّ وذاكرة تغلي. الشّيء الذي لمسه في نهايات حياته البائسة، حياة الشّاعر المقعد، هو أنّ البعض من

القطيع يتمسّك بالنّصوص وأنّ البعض يتمسّك بالطّقوس، وبين الجمعين ضاع منطق الجاحظ وعقلانيته، وضاع البلد منذ الإسكندر المقدوني ودقيانوس الإثيني وهولاكو القادم على حصان أبيض ليحتلّ العاصمة الموقّرة التي تحوّلت إلى فخّ مميت للجميع. تلك خلاصة حكمة لن يتنازل عنها. غربان وقبر وحمام. لقالق وزرازير وهداهد. عصافير ونوارس وبطّ بريّ. قبج وسمّان ونعّام. ديوك ودجاج وأرانب. ومن ثمّ بقر وحمير وخيول. وهو مثل صقر مستوحش، يطير فوق الصّحاري البعيدة يرصد الفأرة المتوارية تحت نبتة يابسة، والجرذ الباحث عن قرينة مثل جميع المخلوقات، والضّبّ البشع، والحرباء الهائمة على وجهها بين كثبان الرّمال تفتش عن طعام أو قطرة ماء تروي ظمأها. ويرتسم أمامه طريق صحراويّ، لكنّه ليس ككلّ الطّرق، على امتداد كيلومترات من ذلك الطّريق تشتعل الحرائق بمركّبات وآليّات ودبّابات وجنود يتلظّون باللهب وهم يخرجون من علبهم الحديديّة، ودوي الانفجارات يهيمن على الفضاء، والغبرة سارية بين واديَين ومدينتَين وبلدَين.

***

(طريق الموت)، أُطلق على الطّريق هذا الاسم بعد أن دمّرت فيه قوات التّحالف أكثر من ألف آليّة تابعة للجيش العراقيّ كانت في طريقها إلى البصرة منسحبة من الكويت. حيث تحوّل الطّريق من طريق سريع يؤدّي إلى البصرة، إلى طريق للهلاك. وكانت القوّات الأمريكيّة قد رصدت تحرّك القوّات العراقيّة في هذا الطّريق في ليلة دامسة، فشنّت هجوماً جويّاً على الآليّات والمركّبات العراقيّة المنسحبة، ونتج عن الهجوم مقتل آلاف الجنود، تخلّى

الكثير منهم عن مركباتهم تجنّباً لتدميرها أثناء القصف، وذاك تاريخ لا ينسى، وسنة بغيضة على الجميع. يتجسّد التّاريخ على شكل صور واضحة في ذاكرة مريضة، فائرة. لقد هرب قبل تلك المذبحة بشهرين، وسكن في منطقة القطّانة وسط المدينة عند قريب له، ولم يظهر أمام البشر إلّا بعد أن انجلت المعارك وصدر ذلك العفو الرّئاسيّ الذي أنقذ رقبته من المشنقة، أو جسده من الرّصاص. وهو صقر على هيئة إنسان، يرى أبناء بلده يحترقون، وتتصاعد في السّماء رائحة شواء حادّة، وكان الطّريق بين الكويت والبصرة يتلوّى مثل أفعوان أسود، عربيد ركبه الجنون والألم، وتلك ليست نهاية الحروب. هي كارثة، مقتلة، كما يقول الجاحظ في كتابه الحيوان، والجاحظ من مدينة البصرة، يجلس كما ناسك بوذيّ بين كتبه، مثلما درس في السّنة الثّانية من الكليّة، عن سبب موته. فالمكان الذي كان يجلس فيه وأمامه أدواته من محابر وأقلام وورق من جلد غزال مكان عتيق، متداعٍ، والمخطوطات تتراكب بعضها فوق بعض على محامل من الخشب وأرائك من سعف النّخيل. ولهوسه بالكتب كان يشمّها ما إن يفتح عينيه في الصّباح، وعادة ما كان الشّيخ العجوز المهووس بالكتب يمدّ يده العجفاء لينتقي واحدة من المخطوطات الثّقيلة محشورة بين كتابَين. وذات يوم رطب من أيّام البصرة، مدّ يده المعروقة إلى كتاب ثمين في النّحو، فإذا المحامل تتهاوى على رأسه، وإذا به يدفن بين الورق وما تضمّه من كلمات، وجمل، وفصول. بعضها شبه مذهّبة الحروف وبعضها مثقل بمداد جاف ثقيل، وهنا يعترف لروحه، اعتراف فرد يمشي إلى قبره المهمل في المقبرة، إنّ من كتّاب التّراث أكثر كاتب قرأ له وأحبه هو الجاحظ. وأكثر كتاب أحبه له هو البخلاء، ولطالما كان

يقرأ ويضحك على نوادره التي جمعها من الأسواق، والمساجد، وحلقات الدّرس، والصّاغة، والمسافرين، والبحارة. ذاك كاتب عرف حقيقة الحياة قبل ألف سنة، وعرف الأدب الواقعيّ قبل روجيه غارودي وكتابه واقعيّة بلا ضفاف الذي انتشر انتشار الهشيم في مقاهي بغداد ومكتباتها. ورافقت صدوره بالعربيّة سجالات حامية بين المثقّفين، شيوعيين وبعثيين. وكانت بلده البصرة، أي أبي عثمان الجاحظ، تكتظّ بالغرباء والمجانين وأصحاب النّوادر والشّحاذين والعيّارين، ووجد (رسول)، من بين التّراث المكتوب على امتداد مئات السّنين، أنّه هو العقلانيّ الأكبر في الخزانة الفكريّة على امتداد قرون. وهو الواقعيّ المؤسّس للأدب النّابع من الحياة اليوميّة، رغم أنّه لم يكن يعرف عن وجود قارّة أمريكا وحضارة المايا، ولم يكن يدرك أنّ الأرض هي التي تدور حول الشّمس. ألف سنة قبل هذه اللحظة أدرك أنّ اللغة نتاج للبشر من كلّ شكل ونوع، فيقول لروحه وثمّة ابتسامة صغيرة، ناعمة، ترفّ على شفتيه وسط الظلام: مجّدوا الجاحظ معي، وترحّموا على روحه السّاكنة بلا شكّ في غلاف الأوزون. ترى كم يبعد البيت الذي مات فيه الجاحظ عن ذلك الشّارع الأسود الذي جرت فيه المذبحة بين البصرة والكويت؟

عليه أن يخبر الكون بحقيقة ذلك العهد المظلم، العهد الذي عاشه البشر ثانية بعد حوالي عشر سنوات، على يد الغزاة إيّاهم، الغرينغو المدججين بالفانتوم واليورانيوم المنضّد، وعبوات المياه وأصابع الدّاينمايت للمواجهات القريبة والحراب المعلّقة في الأحزمة وقناني حامض النّتريك للدّفاع الفرديّ عند الضّرورة. فحين انسحب الجيش من الكويت شنّت الطّائرات الأمريكيّة غارات مكثّفة أُطلقت خلالها قنابل حارقة فتكت بتلك القطعان السّائرة

على الشّارع الأسفلتيّ كما لو كانت في نزهة. تركت تلك الغارات وراءها سيّارات إيفا سوفيتيّة محترقة، ودبّابات تي 52 تفحّ ناراً وانفجارات، وناقلات جند مقسومة إلى قسمين من هول صاروخ جرّب لأوّل مرّة، وجثث جنود بلا أحزمة أو أحذية، وبعضهم تسلّخت وجوههم فلم يعد أحد يعرف سيماءهم وصورهم. ولكنّ المذبحة الأكبر كانت لتك المخلوقات الصّغيرة التي صادف وجودها في النّهار وسط تلك البقعة، من نمل وصراصير وطيور قبّر وسحالٍ صحراوية وعناكب رماديّة تحمل بيضها على ظهرها، وعقارب صفراء لم تجرّب اللدغ كونها ماتت قبيل النّضوج.

هو إذن صقر الزّمن، هو ذاته (رسول) الشّاعر الذي يطير فوق الصّحاري، ويعمي عينَيه الدّخّان المتصاعد من حريق الجند، ومركباتهم، وعتادهم.

هو من يسمع النّشيد المصمّ المتصاعد بوتيرة تبعث على الجنون: يانكي، يانكي، يانكي.

حدّق في الظّلام ولمح بطرف عينَيه مكتبته المكتظّة بالكتب فألفاها ثابتة مستقرّة، لن تهبط عليه وتقتله، وكان كتاب الحيوان للجاحظ ينام هناك بجوار المحاسن والأضداد والبخلاء، وتمنّى لو يمتلك يداً طويلة تختبر متانة مكتبته، وهل ثبتّتها (براء) جيّداً، لكنّه للأسف مشلول، لا يملك سوى عينَين وذاكرة وجلد يتحسّس الضّوء المنسكب مرّة من المصباح ومرّة من ثنايا السّتائر أو من بلّور الشّبابيك. بدأت عضلات ساقيه وساعديه ورقبته تتراخى، وتضمحلّ، ولا يعتقد، بعد تأمّل عميق في باطنه وعلمه، أنّ الطّبيب أشار إلى ثلاث سنين، فيمكن أن يموت قبل ذلك، وإذا ما تمّ الأمر ليمت سمك

الفرات ولتضمحلّ موجات دجلة، ليختفِ الطّين عند الجزر في أعالي النّهر ولتضقِ الضفاف على مسيل دجلة، ولتمتِ الحنطة ويجف الشّعير في الحقول، لتتهاوَ المدن بعده حتّى لا تجد البومة سقفاً تأوي إليه. إذا متّ ظمآناً فلا نزل القطر، يقول الشّاعر الحلبيّ الذي يجيء صوته من قرون ماضية حلبيّة اللون والرّائحة. الزّقورة، خرائب بابل، طاق كسرى، جسر المسيب، سد الرّمادي الذي بناه الإنكليز، حقول الدّواجن عند تخوم الصّحاري، جسر كركوك الذي بناه أبوه قبل آلاف الأيّام من رقدته هذه على سريره، وليجفّ السّعد والشّلغم والبرسيم والشّلب والباقلاء وعنب ديالى ونرجس السّليمانية الذي رآه يباع على الطّريق بين مدينتي جمجمال والسّليمانية حين زار أخاه فؤاد في كليّة الزّراعة ذات ربيع بعيد.

أجل، ليختفِ كلّ ذلك حين يرقد في تلك المقبرة الموحشة القريبة من قريتهم الكئيبة.

منتصف يوم بعيد تهاوى مثل شجرة توت جافّة وسقط جنب سريره.

كيف حدث ذلك؟

أحياناً يتذكّر وأحياناً ينسى، وتغيب الأحداث التي عاشها من ذاكرته، أو تصبح عصيدة دخانيّة يتشرّب بها الماضي والحاضر، فلا يعود يفرز الصّحيح من الخطأ، القريب من الغريب، الشّعر من القصّة، وتلك من أعاجيب هذه الحياة البشريّة الغامضة، بل المعقّدة في الحقيقة. المستقبل معروف، لا شيء يحدث لا أحد يجيء يقول ذلك الشّاعر الذي ينسى اسمه دائماً. قياساً لما عاشه طوال تلك العقود فالمستقبل مظلم، بل إنّه لا يرى من شدّة ظلامه. وكان لطالما يفيق من

نومه ما أن ينبلج الفجر، ويراه يتسلّل من بين ثنايا السّتائر المسدلة، وسريره يوضع في وسط الصّالون، يوضع على الأرض المفروشة بالسّجّاد وتفضّل (براء) عدم رفعه حتّى يحلّ الصّيف السّاخن.

***

قبل شلله كان يضع جنب السّرير عادة منفضة السّجائر وإبريق ماء لعطش الليل، وكان جسده ثقيلاً من الكسل وقلّة الحركة. كان طعامه دسماً وخاصّة بعد انتشار ذلك الوباء الرّهيب، وباء الكورونا لعنه الله ولعن من صنعه في المختبر، أو سرّبه من قرود وكلاب وحيوانات صينيّة، أو ربّما رشّته قوّة قادمة من الفضاء الخارجيّ على كوكب الأرض للخلاص من بني البشر، كما روّج أخوه فؤاد في بداية الوباء. هو المولع بعالم الفضاء والحضارات المنتشرة بين المجرّات البعيدة.

ذلك اليوم، وفجأة ما أن وقف على قدميه حتّى هجم عليه الظلام هجوم الحرس كما قال الشّاعر الأندلسيّ الذي غنّت له فيروز. تغيب السّتائر وتختفي ذرات النّور القادمة من المآذن والنّخيل والتّلال البعيدة قرب بحيرة الحبّانيّة، وتختفي المكتبة والجاحظ وابن سيرين وديوان المتنبي وكتب علي الوردي ودواوين الشّعراء الحديثين وعلى رأسهم السّيّاب والبياتي ونازك الملائكة.

ذلك اليوم، وبفعل سحريّ، يراقب ما حوله حين تختفي، فجأة، الثّريا المعلّقة من السّقف، وشمعة الضّوء، والذّباب الطّائر في الهواء، ويتهاوى مثل ريشة لقلق على حقل من الذرة. جاءت الضربة من داخله مصمّة محكمة، سدّدها له جسده بغدر

محسوس، وقد حدث ذلك في ضجيج الحروب، والصّراعات، والهجرات، والتّوقّعات المتشائمة على هذا الكوكب.

- جسدك ينتقم، هذه كلّ الحكاية. سمع صوت الشّيطان المتردّد في أذنَيه بنبراته الجافّة غير البشريّة.

- كلّا بل هي روحي المتمرّدة ترغب في مغادرة هذه الحياة الموبوءة بالشّرّ. حياة خالية من الشّعر ينبغي على المرء الهروب منها. جاوبه ولم يكن متأكّداً إن كان قد سمعه أم لا.

- لا، لا، أنت واهم، كعادتك دائماً. ما أطاح بجسدك هو الخمر، والتّدخين، ومقت البشر، والأرق، وفوق كلّ ذلك نضوبك من الشّعر. وحين انتهى من صراحته القذرة قهقه في وجهه، ثمّ خرج من النّافذة.

عادة ما كان يتأمّل بذلك حتّى في سنوات نضجه المتأخّر، نضجه الفكريّ، نضج التّجربة الحياتيّة التي رسمت خطوطها على تعابيره وتغلغلت في ذهنه. وعدّ ذلك من تجلّياته الفلسفيّة الأعمق غوراً في روحه. يقول لنفسه إنّ المرء ينسى أن ثمّة حقول ذرة يانعة، وحنطة متماوجة، وطيوراً تحلّق في الفضاء، وسماء تسبح فيها غيوم بيض لها روح الشّعر. وينسى وجود أشجار تنمو وتنتظر الرّبيع لتعطي ثمارها لاحقاً، كما ينسى المرء رائحة السّواقي، ونداء الحشرات البريّة التي تقاسمهم هذا الوجود الغريب، وألوان الحقول المرسومة بريشة (غوغان) سماوي مجهول. أمّا الهواء فقادم حتماً من نافذة تطلّ على وجود آخر، وجود خالٍ من الهموم البائسة لبني البشر. والآن يغيب الوعي والنّظر واللمس والسّمع والنّطق، وينسدل غطاء سميك على عينيه، لا يعرف كيف ولماذا، يذوب في غيبوبة الموت فيجد روحه جالساً في صالة واسعة معتمة ولا ينبعث ضوء سوى من شاشة

عريضة تعرض فيلماً عن مركبة فضائيّة تسافر بين النّجوم والكواكب. وحين أعتمت الصّالة تحوّل البصر إلى عالم ثلاثيّ الأبعاد، وتلك المركبة تغادر الأرض فيجد جسده راكباً فوقها تماماً، خارج المنطق. فلا جاذبيّة هناك ولا حاجة لأوكسجين للتّنفّس.

وثمّة سكون مطلق والمركبة تغادر الأرض، في البداية يرى الجبال تختفي ومن بعدها البحار والمحيطات والمدن الشّاهقة، وكلّما تمرّ الدّقائق يتباعد ذلك الكوكب الملوّن بالأخضر والأزرق والرّمادي، ويرتفع هو مع المركبة لتتجاوز القمر وقد رآه لا يبعد عن يمينه إلّا بضعة كيلومترات، وكان كامداً بعض الشّيء. كم كتب عنه الشّعراء قصائد حبّ، وكم تأمّله العشّاق طوال قرون في الليل وهم يبكون، والشّمس تدور وتدور، والمركبة تصعد في العمق الكونيّ الرّهيب، لتبتعد عن العنصر البشريّ مفجّر الحروب، وصانع الصّحاري، ومؤلّف الكتب المقدّسة وكأنّه لا يرى نفسه إلّا وريثاً وحيداً لهذا الكون الغريب. ويمرّ بالمريخ والمشتري والإله نبتون. وتتضاءل الأرض حتّى تصبح نقطة مضيئة. والشّمس ذاتها تتضاءل في عينيه، وهو يتوغّل بين الكويكبات والصّخور العملاقة المصنوع بعضها من مياه، وبعضها من زمرد، وأخرى، يا للعجب، من ذهب خالص، ولمعت زهور من نار في مجرّة بعيدة، وبانت أعمدة الخلق مضاءة بآلاف الشّموس العملاقة وهي تتبعثر على سطح فارغ مظلم، ووسط كلّ تلك الأعاجيب ثقب أسود بحجم خرافيّ يدوّم بسرعة الضّوء وهو يلتهم كلّ شيء. ومن ثمّ عبر عاصفة أيونيّة عاتية، تندفع المركبة وهو فيها إلى عمق المجرّة. وإذا الشّيطان يصيح قائلاً بنبرة غاضبة، كما لو أنّه شخص يركب بجانبه، أو شخصيّة خرافيّة من صنع شركة هوليوودية:

- تأمّل أيّها الحشرة، أنت لم تبلغ حتّى نصف المجرّة، وتذكّر أنّ هناك في المديات الشّرقيّة والغربيّة، العلويّة والسّفليّة، إذ لا يملك المرء بعد ذلك أيّ اتجاه، هناك مليارات المجرّات في هذا الفضاء، وهناك مليارات مثل أرضكم التّافهة الملوّثة. هذه عبرة الإنسان منذ أن وقف على قدميه. السّرّ الأعظم. والسّرّ يبقى ولا يزول.

يصمت الشّيطان غاضباً ويدرك (رسول) أنّها الحقيقة، فيحدّق مذهولاً شابح العينين، بشعر واقف كرؤوس الميدوزا، وجلد متغضّن من الأدوية والنّوم الأزليّ، يحدّق في السّماء فلا يجدها. ولأوّل مرّة يشعر بأنّه حشرة فعلاً، وأنّ كلّ ما يعيشه البشر على تلك الأرض، لا يعدو أن يكون حلماً برقيّاً في عقل كائن مجنون أو خرف، أو كائن يمرّ بغيبوبة لا طبيب في الكون يدرك سببها.

***

عرف أنّه عاد من رحلته الفضائيّة ليجد نفسه ماشياً في ساحة التّحرير متجهاً نحو جسر السّنك. من المجرّة يتهاوى نحو الأرض الدّائرة في الهواء. فلم يكد يخرج من بناية الجريدة الواقعة مقابل تمثال السّعدون حتّى وجد نفسه وسط المعمعة. التّظاهرات الكبرى في ساحة التّحرير، والضوضاء البشريّة تطالب بأصوات عالية تغيير نمط هذه الحياة التي يعيشونها. ولتفادي الاختلاط بالمتظاهرين وكان سيلهم يتجه نحو السّاحة، اتخذ طريقه على جانب النّفق واستطاع الوصول إلى نهايته، وفكّر أنّ أفضل حلّ له هو التّوجّه مباشرة نحو منطقة السّنك، والنّفاذ بجلده من غبار المعارك.

لم يعد مهيّأً لاحتمال معارك جديدة، فهو كما همس لحظتها، جبان منذ الولادة. إنّه تلك الحشرة التي وصفه بها الكائن

الشّيطانيّ، حشرة تختبئ في غارها: أنت، خائف، ومذعور، لا تجد شجاعتك إلّا في كتابة الشّعر. فكّر مع نفسه وكانت هناك غيمة دخان تهيم فوق جداريّة جواد سليم، تدوّم في الهواء ثمّ تتفتّت إلى مزق، فترحل لاحقاً باتجاه الكرادة وطريق محمّد القاسم، أو تنحدر على ضفاف دجلة تحت جسر الجمهوريّة المغلق بالصّبات الكونكريتيّة. كانوا يحمون المنطقة الخضراء من غضب الشّعب. وكان يدور ضمن خيمة ناريّة محكمة. وليلتها كان شارع المتنبي ذا منظر مبهج، حيّاً يعجّ بالبشر والمكتبات. أمّا شارع أبي نؤاس فبائس ليلاً ونهاراً وخاصّة الحدائق الجافّة والمهملة والمزرية، طبعاً هو ومنظر المنطقة الخضراء المقابلة للحدائق، وأشفق حقّاً على تمثال الشّاعر الخالد (أبو نوّاس)، ولطالما أحبّ قصائده في الخمر والمسامرة، لما لحقه من توحّد وتآكل، لوناً ورونقاً. في حين كان منظر شواطئ دجلة ساحراً إذا ما أطلّ المتسكّع مثله تقوده خطاه، من جسر الشّهداء نحو شارع الرّشيد ثمّ حيّ القشلة، ومن ثمّ الرّصافة العتيقة. انفجارات ضخمة لقنابل الغاز المسيل للدموع، هتافات ضد النّظام الطّائفيّ الذي تشكّل بعد النّظام الدّيكتاتوريّ، وبعد عشرين سنة بقليل من مذبحة طريق البصرة.

وكان الصّدى يتردّد من العمارات على يمينه وشماله، ومعظم المحلّات على جانبي الشّارع تغلق أبوابها، إذ اختفت ثلّاجات الماء المعروضة على الرّصيف، ورزمت الأحذية من أمام الواجهات، وأطفأت المطاعم مواقدها، وانقطعت السّيارات من المرور. وثمّة رائحة ثقيلة للبارود في أنفه، وألفى خطاه تستعجل الوصول إلى السّاحة. اجتازها مهرولاً، وهناك هرج ومرج وشباب يتقاطرون على

السّاحة أو يغادرونها. وثمّة ضوضاء في مسامعه لمنبّهات صارخة في جهة بعيدة من بغداد، تتضاءل أو تتسع حسب وجهة السّير، وقلبه يرتجف، خشية تعرّضه للرّصاص. وكان قلب بغداد يخفق بقوّة. لا ماء، لا كهرباء، لا صناعات، لا زراعة، لا معايير أخلاقية لسلطة نصبها اليانكي. بطالة وتقاسم للمغانم بين الأحزاب والمجاميع المسلحة والعصابات والمافيات الدّوليّة. وكان قلب بغداد ينتفض غضباً من أجل تغيير هذه الخارطة البائسة. سيدخل زقاقاً عتيقاً من أزقّة ألف ليلة وليلة للخلاص من كلّ ذلك.

على اليسار، وبعد اجتيازه لساحة السّنك، وجد فسحة ضيّقة خالية فتوغّل فيها ثمّ دخل زقاقاً ثانياً يغوص في لحم المدينة، يتجه به نحو شارع الرّشيد. متاهة. الحياة متاهة. قلبه متاهة. الزّمن في الزّقاق متاهة لا يمسك لها طرف أو مفتاح. يخطو بتردّد فيما هو يمتصّ سيجارته الجيتان الخفيفة. أمام هذا العنف هل البشر بحاجة إلى شعر؟ تفكّر في ذلك ثمّ سأل نفسه بغضب، أيّ حمار يؤمن بهذه المقولة؟ يواجهه شخص يرتدي دشداشة عتيقة، ويتمنطق بحزام جلديّ عريض، ويلفّ رأسه بقماشة مرقّطة ويعرض عليه طبقاً من الكبّة المقلية. ويشير له بدخول مطعمه الصّغير الذي هو عبارة عن عربة خشبيّة صغيرة تحتلّها مقلاة تطرقع بالدّهن النّباتيّ، رائحته ثقيلة محصورة في هواء الزّقاق، وهو يركن عربته أمام باب خشبيّ تكاد تسدّه، لكنّه لا يلتفت. حدّق بالجدران من الجانبين، وبالأبواب الخشبيّة المتآكلة، والصّور الملصقة لرموز دينيّة، ومرشّحين في انتخابات سابقة. صور لوجوه كالحة ذات تعابير لصوصيّة، تهرأت بسبب المطر، والحرارة،

والبصاق، والرّيح الرّمليّة التي عادة ما تغزو بغداد كلّ سنة. منذ أن وعى على هذه (الحياة الحمى) كما يقول شاعر فرنسيّ.

يمشي متوغّلاً بين فتيان يشحذون، ونساء ملفوفات بعباءات رماديّة، تشي نظراتهنّ بالبؤس والمذلّة، ورجال شيوخ يرتدون النّظارات المكبّرة يخمّن أنّهم متقاعدون منذ الحرب الأخيرة، وخدموا بلا شكّ في الحرب الأولى. رآهم يجلسون على دكك البيوت ويسبّحون بمسابحهم الرّماديّة أو السّوداء، وينظرون بقرف، أو بلا اهتمام لمن يدخل الزّقاق أو يمرّ فيه سواء إلى الشّورجة أو شارع الرّشيد. معوقون شباب يجرّون أرجلهم الصّناعيّة. عجائز على كراسٍ متحرّكة. واحدة تتميّز بصغر حجمها، فهي تشبه صرّة من الملابس لا يبرز منها، أو يدلّ على وجودها ككائن حيّ في كرسي متحرّك عتيق، سوى الوجه الصّغير المجعّد بأنفه الطّويل وفمه الأدرد. أمّا رجلاها فكانتا مثل عصوين ناشفتين مطويين على حديد الكرسي، يدفعها في وسط الزّقاق طفل لا يتجاوز عمره السّت سنوات. وبغداد تستجدي، الطّعام والكرامة والهويّة، وهي تثور لهذا السّبب. والكائن الحيّ المسمّى بشراً يفتح يده كلّما لمح عابر سبيل مثله. يتفكّر كيف تنام هذه العجوز ليلها، من يطعمها، ومن يجلب لها طعامها، وكيف تستحمّ؟ وماذا تعرف عن ثروة بلادها من النّفط؟ وماذا تحسّ حين تنقطع الكهرباء وتسقط في دامس الزّمن وغيهب ذاتها، وحيدة، ضئيلة، تنتظر موتاً سيأتي عاجلاً بعد أن غادرتها الحياة اليوميّة ولم يعد لها أيّ دور؟ ولم تعد تهم أحداً، لا في الحياة ولا في الممات؟ هل هذه الكائنات تقاسمه الوطن؟ هل هذه الكائنات تعيش الحياة كما يعيشها هو كشاعر قرأ ذات يوم ليرمنتوف، وبوشكين، ورامبو، وريلكة، وبابلو نيرودا، وأدونيس، وبدر شاكر

السّياب، وأنسي الحاج، ومحمد الماغوط؟ تجابهه رائحة المجاري من مكان ما، والشّمس تصبّ أشعّتها على كتل حديد مركونة عند الأبواب، وعلى ورق فقد لونه، ومسيل ماء ينبع من باب ذي عتبة عالية. وثمّة كراسٍ أمامها طاولات لمطعم ملفق يسدّ الشّارع. يجلس على الكراسي آكلون مسحوقون بسحنات كامدة يتمتعون بوجبة من البيض المقلي أو الشّوربة المصنوعة من العدس، أو صحن كبّة بالمرق. هم غير عابئين بأصوات الرّصاص البعيد، ورائحة المجاري المختلطة برائحة البارود، والدّخان المسيّل للدّموع.

يصطدم بهيئة الوالي مدحت باشا وهو يضع طربوشاً أحمر مائلاً إلى اليسار، ثمّ الوالي داوود باشا وهو يتمشّى مع السّلطان عبد الحميد الثّاني. حتّى الوالي ناظم باشا رآه يجر خلفه مرضى مصابين بالطّاعون، وثلّة من الجندرمة الأتراك يمشون مشية نظاميّة بأزرارهم الملتمعة، وشواربهم الكثّة، وبنادقهم الطّويلة، والحراب فيها تتجه إلى السّماء. لست في حلم بالتّأكيد!! يبربر مع روحه. فيركض دون وعي باتجاه المنفذ، لكنّ النّفق يمتدّ ويمتدّ ويعتم كلّما توغّل فيه. وعوضاً عن الضّجّة راح يتوغّل في سكون مطبق وعتمة تتراكم حتّى تتحوّل إلى ظلام. ونفسه بالكاد يسحبه إلى الرّئتين، وجسده كما لو كان مطوّقاً بالرّصاص. لا يمكن أن يكون قد تحوّل إلى تمثال مثل تمثال الرّصافي، المواجه لجسر الشّهداء، المحاط بالعربات الخشبيّة، والورق الكارتون وبقايا سندويشات الفلافل والكبّة والكص، أو تمثال شهريار قريباً من الجريدة التي اشتغل بها مصحّحاً، وقطن في فندق (جبل قنديل)، الذي لا يبعد عن شارع أبي نؤاس سوى عشرين متراً. أو تمثال مثل تلك التّماثيل المثبتة على

جداريّة النّحات والرّسام جواد سليم المغروزة مثل خنجر عتيق في أرضيّة ساحة التّحرير المكتظّة بالبنادق وهي تلاحق الحمامات الخائفة في أفق العاصمة. يختنق بلعابه، والتّنفّس عسير والظّلام يتجمع على عينَيه كأنّه كتل من الرّمل.

حاول فتح جفنَيه، أخفق في المرّة الأولى لكنّه حاول مرّة ثانية فصدمه ضوء ساطع قادم من لا مكان. بدا وكأنّه عاد من رحلة جحيميّة، فاستجمع ذهنه وتركيزه وأدار حدقتَيه إلى اليمين والشّمال فلمح وجهها، المرأة التي تزوّجته ذات سنة بعيدة. فمه مغلق، ثمّة جهاز ينفث الهواء في رئتَيه، والغرفة التي وُضع فيها صغيرة تحتوي على أسرّة أخرى خالية من مرضاها. بإشراقة وعي نادرة تذكّر أنّه أُصيب ذات يوم بوباء الكورونا، التقطه ربّما من أخيه فؤاد، وكان عليه أن يرتدي تلك المنفسة الغنيّة بالأوكسجين. تقول له (براء) من خلف كمامتها: إنّهم يشكّون بإصابتك القويّة بالكورونا. وكان المكان في منطقة خمسة كيلو، وهي منطقة نائية على مشارف المدينة. لا تبعد كثيراً عن مدينة هيت التّاريخيّة. كمامة زرقاء تناسب الوجوه النّسائيّة البيضاء. كمامة لها خرطوم صغير يشبه خرطوم فيل وليد. كمامة بألوان تشبه لوحة لبيكاسو في مرحلته الزّرقاء. كمامة سوداء للحزن وكمامة طبيّة تنقّي الهواء من الفايروسات. كمامات وطن، ذلك المسلسل الممتع حول المظاهرات تابعه بمتعة على التّلفزيون قبل أن يقع في حبائل الشّيطان. ما الذي يقوله أولئك الغزاة الفضائيّون الذين رشّوا الأرض بهذا الفايروس؟ كمامة من البروكار الدّمشقيّ، من التّفتة والسّاتان، وهو يتنفّس من ذلك الخرطوم ورئتاه تكادان تتحوّلان إلى جلد مجفّف تحت قيظ الشّمس الصّيفيّة

في رمال الصّحراء الممتدّة حتّى دير الزّور، وتكريت، والرّطبة، والنّجف. كان آنذاك مقعداً لا يحرك جسده، ويفهم من (براء) أنّه كسر حوضه في تلك الوقعة حين عمّ الظّلام ودخل في الغيبوبة: أنت الضّحيّة، الفاشل المقعد المشؤوم منذ ولادتك، الشّاعر المغرّر به من مجتمع لئيم يرصد حتّى النّفس الدّاخل إلى الرّئتين.

حدّثته جدّته لأبيه ذات يوم وكان في العاشرة من عمره عن شؤم يلاحقه منذ أن سقط رأسه في تلك الغرفة المعطّرة بالبخور. قالت له إنّك وبعد شهر من ولادتك بذلك البيت الطّينيّ الواقع قرب غابة النّخيل، المفتوح على الصّحراء، ضربك الجدريّ الرّهيب وكاد أن يذهب بك رغم إنّك كنت الابن البكر لوالدك وأمّك الطّفلة ابنة الخمسة عشر ربيعاً. السّيّارة الوحيدة التي ركبتها جدّته في حياتها ذلك الباص الخشب. المحرّك من حديد فقط، والجسد من خشب. حوض للسّائق ولنخبة القرى من شيوخ وشرطة ومعلّمين. يليه حوض للرّجال يجلسون متقابلين لكلّ واحد منهم عمله في المدينة، هذا يجلب السّكّر والشّاي، وذاك يجلب القماش لزفاف ابنه، والبعض يجلب كفناً لمريضه العاجز الذي ينازع وسيسلّم الرّوح بين دقيقة وأخرى وينبغي إعداد الكفن والبخور لتعطير الجثمان، والرّز لعشاء المشيعين. بينما كان البعض يراجع مستشفى المدينة لكشف علّته والحصول على دواء. الحوض الثّالث للنّساء، اللواتي ينوين زيارة الممرضة، أو الطّبيبة النّسائيّة، أو لشراء أحذية وعباءات، أو لشراء صيغة لفتاة ستتزوّج قريباً. الحوض الأخير للفتيان وفقراء القرى وبعض الأحيان لخروف سيأخذه مالكه للبيع في سوق الغنم الكائن في طرف السّوق. أمّا السّطح المغطّى بطبقة حديديّة لمنع تسرّب

الماء، فغالباً ما يركب عليه الأشخاص المرافقون للغنم، أو ممّن لا يجدون مقعداً في الأسفل. نعم. جدّته تلك ما زالت حاضرة في رأسه، وهو يرى الباص يغصّ بدخّان السّجائر اللف، وروائح الغنم وعطن الأجساد ورائحة الخضار المجلوبة من الحقول للبيع في المدينة. كان الباص يأتي صباحاً إلى المدينة ويغادر إلى القرية في السّاعة الواحدة ظهراً، هكذا كانت الأمور تجري حتّى بلغ الخامسة عشرة حين تغيّر كلّ شيء. بعد الوصول إلى بناية يسمّونها المستشفى، تقع وسط الرّمادي، مع ذلك الباص الخشب، تقول جدّته: نقلونا بسيارة الدّائرة إلى بناية الحجز المسمّاة الكرنتينة، وهي حين يقف الشّخص أمامها يمكنه رؤية السّد الرّابط بين ضفّتَي الفرات.

تقول جدّته: كنّا ننتظر موتك، وكان جسدك مثل كتلة لحم غير واضحة الملامح يخرج منها صديد ذو رائحة كريهة. هو لا يتذكّر شيئاً، طبعاً فعمره لم يزد على شهر، حتّى أمّه يئست من بقائه على قيد الحياة. هذا يعني أنّ حياته كانت صدفة لم يتوقّعها أحد. صدفة أو معجزة دفعت به إلى آتون الزّمن ليختبر عشرات السّنين من غيوم بلده السّامة، ومن مذابح السّنين المرّة، وتقلّبات الأحوال التي تقع فجأة على شعب لا يدرك ما الذي يحدث له، وكيف. شعب اليورانيوم المنضّد وأحواض الأسيد لتذويب المعارضين، شعب القائد المهزوم الذي وجدوه مختبئاً في حفرة قرب مسقط رأسه، شعب بليد، يهمس له الشّيطان من مكان وهميّ وهو يختبئ عن محسوسات البشر.

هل هي صدفة أنّ المنطقة التي سكنها في بغداد أيّام الدّراسة كان اسمها الكرنتينة أيضاً؟

لا يتذكّر أيّ شيء ولا أيّ تفصيل من تلك الفترة، فترة الجدريّ والجدّة والباص الخشب وعبد الكريم قاسم الموضوعة صورته جنب باب المضافة. لكنّه يلمح اليوم نخلة بعيدة تقف وسط عاصفة هوائيّة تحرّك سعفها بقوة، يراها من شبّاك ضيّق حديديّ في الغرفة. نخلة بعيدة، تمر وزنابير وليف وسعف وجذور وأعشاش يمام تندسّ في قواعد السّعف.

هل كانت الرّحلة غير مجدية؟ ماذا سيخسر لو أنّه مات في ذلك العمر ولم يعش هذا السّيناريو الطّويل الكابوسيّ؟ ماذا لو كان نسغاً في شجرة مشمش، أو ذرّة رمل على ضفّة النّهر، أو ذبابة تعيش فصلاً واحداً ثمّ تموت؟ هل تدرك أسماك النّهر التي تعيش في الأعماق كيف يسير جسده اللحظة، وقد تحوّل إلى عينَين وأذنَين فقط؟

الموت، كلمة يردّدونها أكثر ممّا يتنفسّون. هنا في هذا البلد يأكل النّاس مع الموت، ويلعبون معه، ويتصارعون معه بعنف، ويقدّمون له الطّعام كي لا يوارونه التّراب. رئيسهم، مستبدّهم العادل، ديكتاتورهم الجميل، الشّجاع المتوّج بشاربَي الرّجولة، قدّموا له ملايين الأجساد من أصدقائهم ومعارفهم وأشقّاء الوطن، كي لا يرحل عن خيالهم. قدّم له الأمريكان الجسور، الطّرق، المدن، اليورانيوم، الدّولارات المليونيّة، وآخر مبتكرات التّكنولوجيا. قدّموا له الدّين والطّائفة. الجبال والسّهول والصّحاري. قدّموا له البدو والميليشيات والفصائل المسلّحة والطّائرات المسيّرة ورقائق السّيليكون، وكان الجندي الغرينغو يتسلّى بقتل المارّة في ساحة النّسور قرب مطار بغداد الدّوليّ. الموت فقد طعمه منذ عشرات السّنين. لم يعد له رهبة. لم يعد يمتلك قيمة تذكر. صار سعره أرخص من سعر الدّينار،

عملتهم الوطنيّة التي كان ابن الرّئيس يطبعها ذات سنة، في مطابع شارع المتنبي أيّام الحصار، وشهوره، وسنينه.

أسبوعان، تقول له (براء)، صرفناهما في تلك الغرفة خارج المدينة ننتظر نتيجة فحوصات الكورونا، وجاءت الفحوصات سالبة. بمعنى ما، إنّ جسدك خالٍ من ذلك الفايروس. لكنّهم ما زالوا يضعون تلك المنفسة على وجهه، تلك المنفسة الموصولة إلى زجاجة الأوكسجين، وهذا ما سهّل له العودة إلى المستشفى على كتف الفرات. أي فرات. أي فرات. أي فرات. أغنية سمعها من مغنٍّ كرديّ اسمه شفان ذات ليلة موحشة وكان في زيارة لأخيه فؤاد في مدينة السّليمانيّة قبل عصر الحروب والحفر الرّئاسيّة ومظاهرات إسقاط السّلطة التي عمّت العراق كلّه، وكان ذلك العام نهاية عمله مصحّحاً في تلك الجريدة ونهاية سكنه في فندق المالك الكرديّ، الفندق المسمّى (جبل قنديل) وسط بغداد.

نعم، أطلق فؤاد ساقَيه للرّيح، تركه وحديداً مع الليل، وثمّة انتظار لتلك الرّحلة المصيريّة التي اقترحها، بل أوصى بها الطّبيب لزيارة مجمع الحارثيّة الطّبي. إنّه ينتظر، عشرات السّنوات وهو ينتظر شيئاً سيحدث ويغيّر مصيره، لكنّه في النّهاية لا يأتي. القصيدة وحدها تأتيه في جميع الأوقات. ولكن ما جدوى القصائد في فضاء الاحتضار، والشّلل، والتّحلّل الجسديّ؟

***

سمع صوت القطّة قادماً من الحديقة، وخمّن أنّها أم ثكلى في النّهاية، فقدت ثلاث قطيطات بسبب ابنه (بشير). فات الأوان على

حزن القطط. تمدّد الليل على خور الزّبير وساحة عبد المحسن الكاظميّ وجسر الورّار وسدّ حديثة، وأسدل ستاره على أحلام البشر السّيئين منهم والطّيبين، وشكّل طبقة كثيفة على الصّحراء. إذ هناك، في الرّمال، يدبّ العنكبوت من مخبأه ليلتهم ذبابة نائمة، ويترصّد الذّئب حيواناً تائهاً ليطعم صغاره، ولا بدّ أنّ السّمكة شعرت وهي تسبح في الفرات بانحسار الضّوء من الأعلى، ولم تعد الكائنات النّهريّة تتلمّس طريقها سوى بذبذبات جسدها المتمدّدة مثل موجات كهرومغناطيسيّة. وفي الأعلى، في ذلك الفضاء النّاء، تسترسل المجرّات البعيدة لكي توصل رموزها إلى هذا الكوكب. رموز على هيئة رسائل، وذبذبات، وومضات كونيّة، وأشعة لامعة. ومن تلك الرّسائل تبيّن له أنّ أرضهم لا تعدو أن تكون صخرة تافهة في كون لا حدود له. وهي ليست مركزاً لشيء، وما لا يعرفونه أضخم بكثير ممّا يعرفونه. ومعظم كتبهم ومعارفهم إن هي إلّا صورة مشوّشة لوجودهم كبشر يجهلون تماماً ما تبثه تلك المجرّات من رسائل. والرّسائل طبعاً ليست حروفاً أو كلمات أو كتباً مقدّسة، كلّا، هي مواء قطّة في الظّلام، مواء مصنوع من أشعّة وفوتونات وإلكترونات وموجات وذبذبات لا تُرى، وعلى الإنسان أن يصمت ويرضى بمصيره، أي بكلّ بساطة، هو الموت الذي لا مفرّ منه. ثمّ صمت رهيب لا يقطعه سوى مواء القطة. ذهنه شفّ في انتظار رسالة ما، ورغم ذلك يستطيع أن يفهم لغة القطّة الثّكلى، حين تقول لقطيطاتها الغائبة: أينكم. أنا آسفة لقد تركتكم وتبعت رغباتي الحيوانيّة مع قطّ الجيران. وهو قد أخذني بعيداً نحو ضفاف القناة المائيّة، قناة الورار. وتُهنا هناك حتّى خرج الفجر من الشّرق وجلب معه ضجيج الطّرق، ونداءات البشر المنكرة، ونباح الكلاب السّائبة. تركتكم أسبوعاً كاملاً ولا أعرف ما حلّ بكم. تتبعت رائحة البيت إلى

أن وصلت إلى الباب الأسود العريض، فانسللت من الفتحة السّفليّة الواقعة بين الحديد والإسمنت. لكنّني لم أجدكم. أين أنتم يا صغاري؟

فهم من سريره العطن كلّ كلمة، كلّ مواء حزين، وفكّر بما باحت به القطّة في هذا الليل الكئيب: ليلك، ليل جسدك الميت، أنت الشّاعر المقعد، الشّاعر الموهوم، كريه الرّائحة، الجائع، ذو العضلات المتخشّبة الذي يكتب دون ورق، وحبر، وأزرار حاسوب.

وجد أنّ واجبه أن يكتب على تلافيف مخّه، ويخزّن في ذاكرته، ليختلط فيها الحاضر والماضي. والقصص سيعيشها كما لو أنّه احتسى لترين من الويسكي الاسكوتلاندي.

متى بدأت قصّة القطّة تلك؟ منذ شتاء، منذ شتاءَين، منذ سنة، منذ سنتَين، النّجوم وحدها تعرف.

4

في السّنة الأولى وُلدت قطّتان في الحديقة، فتكفّلت الأمّ بإرضاعهما تحت شجرة البرتقال المزروعة في الزّاوية مقابل المرحاض. وبعد شهور طلب واحدة منهما ابن الجيران، ابن السّت جميلة، فأوصاه (بشير) أن يعتني بها ويُطلق عليها اسماً. وفي الأسبوع الذي تلاه طلبت عمّته القطيطة الثّانية كي يلعب عليها حفيدها الصّغير، فحملتها معها بصندوق أحذية قديم كان متروكاً في الحديقة. كانوا يضعون للأمّ بقايا الرّز وعظام السّمك وثريد الباميا وحافات البيتزا التي تصنعها (براء) في الفرن. وظلّت الحديقة بيتاً للقطّة، تتشمّس في الشّتاء قرب العتبة مقعية على ذيلها تلعق بين فترة وأخرى فراءها الرّمادي، وتحدّق بعينَيها الثابتَين إلى الأفق حيث يقع بيت الجار المقابل، العامل موظّفاً صحيّاً في مستشفى الولادة، لعلّها تعجب كيف لموظّف صحيّ أن يبني بيتاً يكاد يكون قصراً بواجهاته ذات الزّجاج الملوّن، وشرفاته المرمريّة، وبابه الفخم المصنوع من زخارف الحديد المذهّبة. الحقّ معها، هذه الحيوانة ذات الفراء والقطيطات المسكينة السّارحة في الحديقة. هي لا تعرف شيئاً عن الرّشوة، والفساد، وتجارة الأدوية التي دخلت مع الأمريكان. وهي بالتّأكيد لا تعرف أنّه شاعر.

وفي صيف آخر لاحظوا أنّ بطنها بدأ يكبر، وحركتها تثقل في المشي، ولازمت الحديقة تتجوّل بين الممرّ تحت الشّبّاك والسّياج عند الباب الخارجيّ، تختبئ عند شجرة الآس المجاورة للمرحاض. وذات يوم

تفاجأ (بشير) بالقطيطات تتشبّث بها في وسط الحديقة. هذه المرّة ثلاث قطيطات رماديّة لا ترى، تفتّش عن ثدي الأمّ بإصرار. ترفسها الأمّ بعض الأحيان وتتركها وتهرب نحو شجرة البرتقال. وهي ظاهرة تثير العجب. فكيف لأمّ هجر أولادها؟ لكن هذا الكون عجيب، هو ومخلوقاته وظواهره وريحه وغيومه ومياهه، وجاءت المفاجأة أخيراً في الصّباح. كانت القطيطات تتجمّع في منتصف الحديقة المزروعة بالثيل، تلتم بعضها مع بعض، تطلب الدّفء ربّما، تموء بصوت واهن، ويبدأ (بشير) بالتّفتيش عن الأمّ. ليس هناك أمّ، العيون مغمّضة، الخيبة في الوجوه الصّغيرة مغلقة العينَين، والألسن المتلمّظة الجائعة.

وتقدّم (رسول) بدوره نحو الحديقة وبه عجب هائل، وكان في ذلك الحين يمتلك جسداً متوثّباً ويدخّن بإفراط، ونما كرشه حتّى لامه الجميع على نهمه للأكل. ودأب على كتابة ثلاث قصائد كلّ يوم، دون أن ينضب خياله السّومريّ، أو تكلّ يده من الطّباعة على شاشة الحاسوب، ويسهر على برنامج (الفيسبوك) حتى الفجر. لا يمكن لأمّ أن تهجر أولادها، قال لروحه، فما الذي حدث؟ كانوا يتفرّجون ثلاثتهم، ويسمعون المواء الخافت، و(براء) تمضي إلى الثّلاجة لتجلب حليباً عادة ما تحتفظ به لصنع الكيك أو لخلطه مع القهوة، إلّا أنّ الصّحن المفلطح الذي قدّمته (براء) لم يجذب شهيّة القطط. وحاولت وضع قطرات في فم كلّ واحدة على حدة فلم تجد تجاوباً، ثمّ راحوا ينتظرون عودة الأمّ. تركوا مشاغلهم اليوميّة وجلسوا على كراسي البلاستيك في الممرّ ينتظرون، ويحدّقون بهذه الأعجوبة الحيوانيّة. أمّ تهجر أطفالها وترحل! وظلّوا يبحثون عن السّبب الخفي، ويثرثرون حول الفرق بين البشر والحيوانات.

الأمومة غريزة، تقول (براء) وتحدّق بـ(بشير): لولا ذلك المرض الخبيث الذي نالني في الرّحم ممّا اضطرني لإزالته حسب وصية الطّبيب، لكان (بشير) اليوم يمتلك أخوة وأخوات، ولكنت ضحّيت بحياتي من أجلهم، وهذا أمر ينطبق على القطط والبقر والسّمك والجراد والذّئاب والجرذان وحتّى الدّيناصورات. فلا أمّ تترك أولادها للموت.

وجدت الحلّ، قال (بشير) ونهض داخلاً إلى البيت، وبعد دقائق خرج بكامل ملابسه وأخبرهما إنّه سيذهب إلى تلك العيادة لجلب الحليب. عيادة البيطرة. هي في ذات الاتجاه الذي يقع فيه المستشفى الذي رقد فيه لاحقاً، وسيرقد فيه ثانية، وربّما يموت فيه أثناء ما كان يحدّق إلى مقبرة وهميّة هناك في البعيد. وثمّة ثلاثة كورنيشات في هذه المدينة، الكورنيش الأوّل يمتدّ من السّدّ الواقع على الفرات حتّى منطقة الغابات، أو ما كان يسمّى بالغابات، لأنّ الغابات أُزيلت منذ أكثر من عشرين سنة بسبب توسّع المدينة شرقاً ووصولها حتّى المناطق الرّيفيّة، وهذا الكورنيش يسمّى كورنيش الرّمادي. أمّا الكورنيشان الثّانيان فكلاهما يسمّيان بكورنيش الورار، لأنّهما يمتدان على الضّفّتَين كليهما، ولا يبعدان عن البيت، بيت القطط الواقع في حي التّأميم المقابل لمعمل الزّجاج سوى مئات الأمتار. إلى الكورنيش الأوّل مضى (بشير) لجلب الحليب بعد أن يئس الجميع من عودة الأمّ الجاحدة. امتدّ الانتظار ساعة وساعتين ولم تعد الأمّ. لكن (بشير) عاد عند العصر وبجعبته زجاجات من حليب القطط كما أخبره بائع الصّيدلية المختصّة بأدوية الكلاب والقطط وأطعمتها وشؤونها. حليب للقطط!!! هذا أمر لم يُسمع به في مدينته

قبل احتلالها من قبل الغرينغو الأمريكيّ. لم ينسَ (بشير) جلب مميّة مثل تلك المستخدمة للرضّع، وما إنّ حلّ المساء حتّى كانت القطط شبعة ونامت تحت شجرة الآس وهي تحلم بعودة الأمّ العاقّة. وعمّ الصّمت في الحديقة حتّى الصّباح.

كان (رسول) معتاداً على النّهوض باكراً، يُعِدّ شاياً ثقيلاً في المطبخ يضعه في الصّالون ويدخّن الجيتان الخفيف، وعادة ما يتسلّى بكتاب لا على التّعيين من المكتبة، أو يفتح الحاسوب ويراقب ما نشره الأصدقاء في الليل على صفحات برنامج (الفيسبوك). وقد أصبحت تلك الصّفحات جزءاً مهمّاً من حياته اليوميّة، حياة شخص متقاعد لم يعد لديه الكثير على هذه الأرض. وحين عاد من المرحاض انتبه إلى أنّ القطط نائمة في الحديقة، في وسطها بالضّبط. وانتبه إلى أنّ الأمّ ليست هناك، ولم يلاحظ ما يريب في الأمر. وهكذا عاد في ذلك الصّباح الخريفيّ لجهازه وكتابه، وكان ديوان شعر مترجم عن الفارسيّة لسعدي الشّيرازي، اشتراه في السّفرة السّابقة إلى شارع المتنبي. لكن لم تمضِ سوى ساعة حتّى فاجأه صوت (بشير) وهو يستنكر بكلمة، لا، طويلة، أمراً ما. لقد وجد القطط ليست نائمة كما ظنّ هو، بل هي ميتة، الحدث الذي شغل الجميع طوال النّهار، وأصبح البحث عن السّبب هاجس الجميع.

لماذا تموت القطط؟ لماذا تموت المدن؟ لماذا تموت الشّوارع؟ لماذا تموت العناكب؟ لماذا تموت الأنهار؟ لماذا تموت النّساء الجميلات؟ لماذا يموت أبوه برصاص الأمريكان؟ لماذا يموت كوكب الأرض بعد مليارات السّنين؟ تلك عيّنة من أسئلة هلاميّة غامضة، صحيح أنّه فكّر بها مئات السّاعات، لكنّه لا يعرف أجوبتها على الإطلاق. لذلك اقتنع،

ومن خلال تجربته في الحياة، أنّ هناك أسئلة لا يمكن الإجابة عليها. وعودة إلى القطيطات المنكوبة التي رآها ممدّدة في وسط الحديقة كما لو كانت نائمة في ملكوت الجنّة الحيوانيّة، فقد تأمّل (بشير) في علب الحليب، وبدأ يدقّق فيها ويحاول قراءة ما مكتوب على السّطح، وانتبه إلى أمر محيّر، ألّا وهو أن الصّيدلي النّطاسي البيطريّ أعطاه حليب كلاب، وليس حليب قطط. تخيّل وقتها طفلاً صغيراً يشرب حليب الصّراصير أو الفيلة، وهو جائز في هذه الأزمان. وهكذا، بعد رمي أجساد القطط الصّغيرة على مزبلة المحلّة القريبة من الكورنيش مضى (بشير) مع العلب إلى الطّبيب البيطريّ وشرح له المأساة. وجده يدخّن أمام متجره ويتفرّج في شاشة ال(هاتف) الجوّال. الرّجل يريد أن يبيع. سوء فهم. التباس. ثمّ هي قطط، يا ولدي، حيوانات لا تتطلّب كلّ هذا الزّعل. يقول له ببرود. حياة البشر لا تستحقّ كلّ هذا الزّعل، والغضب، فكيف بقطط مولودة حديثاً؟ من يأبه للكائنات غير البشريّة؟ هل نحن من الهندوس والبوذيين أم من أتباع أكلة الخضار؟ حاججه البائع مستخدماً كلّ ما قرأه في الجرائد الرّخيصة وسمعه في القنوات التّلفزيونيّة المبتذلة التي تفشّت بعد الاحتلال مثل تفشّي الفطر في صحراء الفلوجة. الطّمّاع الفاسد قتل قططهم الجميلة التي تموء كما لو أنّها تعزف سيمفونيّة لموزارت، أو كما لو كانت فيروز تغنّي في قاعة الخلد، أغنيتها الشّهيرة: بغداد والشّعراء والصّور، ذهب الزّمان وضوعه العطر، وكان حاضراً هناك مع خطيبته (براء) في السّبعينيات. وكان يدرس في الجامعة، ويسكن في منطقة الكرنتينة قرب باب المعظم.

***

والقطط ماتت ولكنّ المواء ظلّ في أذنَيه، وها هو يكبر ويكبر، فيتجسّد متخذاً هيئة قطٍّ ضخم بشاربَين طويلَين وعينَين قادحتَين يلبس ملابس عسكريّة تزيّنها نياشين لحروب سابقة في الجبال، والأهوار، والتّلال، والصّحاري. عيناه حادّتان وفيهما التماعات بربريّة مخيفة، وينسدل سيف من نطاقه العسكريّ، وهو قد انبثق من ظلام الحديقة، أو هرب من مكتبته ليتخطّى الأرائك، ويقفز من فوق الكرسي النّقّال، ثمّ ليقف جنب سريره ويخاطبه بنفور قائلاً:

- أنتم تشبهون تلك القطط، حسبتم أنّكم تحرّرتم من ظلم الرّئيس لكنّكم شربتم حليب الكلاب، وتناثرت جثثكم على قاع دجلة، وقرب المطار، وقريباً من مدينة أمّ قصر. ثمّ قتل بعضكم بعضاً في مدينة الشّعلة، والدّورة، وحي العامل، وسامراء، وشارع حيفا، ومدينة بعقوبة، وقضاء سنجار. تعرف شارع حيفا أليس كذلك؟ بنوا عماراته في الثّمانينيّات، في ظلّ حكمي، وتحوّل إلى مزابل في الألفيّة الجديدة حيث انتقمت بغداد من نفسها، وراحت تمزّق ساقَيها، وصدرها، ورأسها، بيدَين مجنونتَين، وعقل مسطول وكأنّها شربت زجاجتَين من العرق السّوريّ المعتّق.

وراحت أنفاس القطّ العملاق تتدافع وهو يزفر بحرقة في وجهه، وجه مقعد متخشّب الجسد، لا يستطيع الدّفاع عن نفسه. وظنّ أنّ الشّيطان عاد ثانية للانتقام منه، سوى أنّه بهيئة أخرى كعادة الجنّ والطّنطل والعفاريت. يتحوّل وجهه إلى كتلة حمراء متلظيّة ربّما من الغضب والحقد والثّأر، ويتطاول أنفه كأنّه ثمرة خيار سميكة، في حين استحالت عيناه إلى ثمرة كمثرى خشبيّة يتوسّطها بؤبؤ أسود كأنّه قطعة ناضجة من الباذنجان.

ومن لجّة ذلك التّحوّل الغاضب ظلّ فمه المطبق يُخرج كلماته النّاريّة ويصبّها في أذنَيه:

- إذن لا تستغربوا من تفشّي وباء الكورونا، عالميّاً هذه المرّة. قال له بعينَين حارقتَين وكأنّه يحمّله وزر الشّرور الأرضيّة كلّها، ولم يقتصر على بقعة جغرافيّة صغيرة، محدودة، مثلما عودنا قبل اليوم، حيث أغلق المدن، وأجبر البشر على التّواري خلف الجدران، وأطاح بالأمل. فهو انتقام العوالم الدّقيقة التي لا ترى بالعين المجرّدة من حماقة الكائن العاقل الذي خلخل توازن الأرض الموجود منذ مليارات السّنين. أنتم جنس ملعون.

شرح القط العملاق، أو ربّما الشّيطان المتحوّل، المتخفّي بإهاب قط، وبأسلوب علميّ مقنع دوافع هذا الوباء الذي وشّح الكرة الأرضيّة بالرّعب. لقد ألقى في مرافعته بالذّنب كلّه على البشر، أطاحوا بذلك التّوازن في فترة قياسيّة لا تزيد عن الثّلاثة قرون، وهو زمن صغير جدّاً قياساً بعمر الأرض. الكرة الأرضيّة خليّة حيّة، تتنفّس وتوازن نفسها بكفاءة عالية، ثمّ جاء الإنسان ليخرّب ذلك التّوازن بعقلانيّة باردة جدّاً، وبقصور واضح لتلك العقلانيّة. استنزف نفطها وغازها ومعادنها وخشبها وأحياءها، ثمّ أحرق تلك السّوائل في الهواء، وألقى على جسد الأرض بلايين الأطنان من الأسفلت بتبليط الطّرق، والسّاحات، ليخنق رئتها بإتقان، وحوّل الأوكسجين، ذلك الغاز النّبيل، إلى أشعّة يورانيوم قاتلة. للأرض رئة أيضاً أيّها الحثالة. نعم أنتم جنس لعين منذ أبيكم آدم. أزال ملايين الكيلومترات من النّباتات والأشجار نتيجة لجشعه، وارتفاع مواليده، وكبريائه. وابتكر اللقاحات كي يطيل من عمر الإنسان، وحسّن النّباتات والأشجار

بتغيير مواصفاتها الوراثيّة التي توصّلت إليها الأرض بعد مليارات السّنين من قانون البقاء للأصلح، والانتخاب الطّبيعيّ. هل تذكر عمّك داروين؟ وكل ذلك نتج عنه تآكل درع الحماية لتلك الخلية النّابضة، ألّا وهو طبقة الأوزون، ممّا سهّل دخول الأشعة القاتلة القادمة من الشّمس والمجرّات. وتلك الأشعة تفعل فعلها في تغيير هيكليّة الأحماض الأمينيّة في جميع الكائنات الحيّة. عدا ذلك عمد الانسان إلى ابتكار المتفجّرات والقنابل النّوويّة والأسلحة الفتّاكة وتجريبها بهذا الشّكل أو ذاك في أمكنة عديدة من الأرض، دون التّكهّن بما ستكون النّتائج في المستقبل. التّفاعلات الصّغيرة ليست مرئيّة من قبل العلم حتّى الآن، افهمْ هذا أيّها المقعد، وبلّغ أقرانك البشر. فالفايروسات حالها حال الشّجر، والبكتريا، والأسماك، تريد أن تعيش هي الأخرى وتحافظ على استمراريّة وجودها. فلم يعد أمامها ضمن هذه الظّروف القاتلة إلّا تطوير نفسها، وذلك عبر تغيير جيناتها لتتكيّف مع جوّ الأرض الملوّث، ولتخترق مناعة البشر وتتغلّب على كلّ اللقاحات التي ابتكرها.

نعم، بعد هذه المحاضرة الشّيطانيّة التي استمع إليها بعمق فلسفيّ وشعريّ، فكّر بأنّ الحضارة الحديثة قد أنهكت خليّة الأرض من كلّ حدب وصوب، دون اعتبار للتّوازنات الصّغيرة غير المرئيّة في ذلك العالم الغامض المؤلّف من فايروسات، وجراثيم، وكائنات أحاديّة الخليّة، سواء كانت أوبئة أو غيرها. كلّ ذلك صحيح، الشّيطان على صواب، اقتنع بتلك الحجّة الفلسفيّة التي طرحها، فإذا ما تجاوزت البشريّة هذه الموجة القاتلة القادمة ليس من الفضاء، مثلما يقول أخوه الميت فؤاد ويدّعي كذباً، إنّما من العوالم

الغامضة غير المرئيّة، العوالم الميكروسكوبيّة التي يتقاسمون معها هذه الخليّة الحيّة المسمّاة كوكب الأرض. فعليها أن تفكّر مليّاً بوجودها، وتوجّه حكمتها لا لإنهاك الكوكب بتفريغه من دمه وتلويث فضائه، إنّما بترميمه ليعود صالحاً لعيش الأجيال القادمة. وهذا الكلام سمعه بالضّبط من صديقه الألمانيّ ذات يوم من عام البؤس الذي عاشه كمصحّح في تلك الجريدة. إنّه يعرف جيّداً أنّ ذاكرته مقطّعة، لحظاتها لا تتصل ببعضها، لقد ضربته تلك العوالم الدّقيقة في مقتل، وقطعت تسلسل ذاكرته الزّمنيّ حتّى عادت تخلط الماضي بالحاضر، والوجوه بعضها ببعض. والحوارات المختزنة في دماغه يمكن لأيّ شخص عرفه ذات يوم، أن يقولها. وبين الوضوح والشّواش، الصّلادة والمرونة، الفرح والحزن، الموت والحياة، بين كلّ ذلك يتذكّر ويحاول ضبط عدسته الغائمة كما لو كانت سماء عراقيّة في شهر كانونيّ. يفتح عينَيه في الفجر، بعض الأيّام، ولا يدرك في أيّ مكان هو. يسأل نفسه هل هذه غرفة في فندق وسط مدينة السّليمانيّة؟ هل هو جالس في مقهى يقع في سوق الغزل، أو سوق الطّيور كما يسمّيه صديقه (هاتف)؟ هل يقف أمام الطّلاب يلقي محاضرته عن، إنّ وأخواتها، وأبواب (حتّى) اللعينة وهي تستعصي على ابن جني وسيبويه؟ هل هو في تلك الجريدة يصحّح مقالة نقديّة مزعجة لكاتب لا يعرف بالضّبط ماذا يريد؟

تلك الجريدة إذن، فبعد أن وصل سنّ التّقاعد، وعاش ملله ممّا يجري في المدينة المغلقة، وجد فيها عملاً كمصحّح للمقالات، وكانت تقع على كتف دجلة، مقابل تمثال عبد المحسن السّعدون. هناك، وبمصادفة غريبة سمع التّأويل ذاته عن الفواجع البيئيّة

التي يعيشها الجميع في هذا البلد، بسبب الحروب المتعاقبة. سمعه من صديقه الألمانيّ الذي شارك في مؤتمر لإحدى منظّمات المجتمع المدنيّ حول تأثير الأشعّة على العراقيين بعد حروب ثلاث أكلت الأخضر واليابس. فعلاً، تضاعفت حالات سرطانات الثّدي والدّم، والتّهاب الرّئات والولادات المشوّهة، وربّما عطب رحم (براء) الذي أورثها العقم هو نتيجة للحروب المتعاقبة، وكلّ ذلك أصبح ظاهرة عامّة في المحافظات جميعها.

***

صديقه جورج، تعرّف إليه في الصّالة، أثناء ندوة الجريدة حول الأشعّة القاتلة التي لوّثت البلد، تربة، ومياهاً وبشراً، وأجنّة، وكروموسومات. أُوفد جورج إلى العراق من قبل واحد من المعاهد البحثيّة يقع في وسط برلين لتتبّع أثر الأشعّة القاتلة على البشر. وكانت لغته الإنكليزيّة معقولة، لذلك اختاره الألمانيّ ليرافقه في تلك العصريّة بعد النّدوة، حيث قال له بعد الاستراحة: لا أرغب في العودة إلى فندق بغداد، بل أتوق لجولة قصيرة في مدينة ألف ليلة وليلة، الأزقّة والشّوارع القريبة، مطاعمها وحاناتها وأعاجيبها. ورافقه (رسول) إلى ساحة التّحرير أوّلاً، حيث حدّق جورج مليّاً في جداريّة جواد سليم، وتأمّلها بعينَين مدهوشتَين، والتفت إلى فضاء المكان وراقب نوارس النّهر وهي تشكّل غيمة بيضاء فوق الأسطح، وذرى النّخيل واليوكالبتوس. من نظرات جورج العميقة وهو يدقّق في تماثيل النّصب العملاق، استشفّ (رسول) أنّ جورج أُعجب بالنّصب أيّما إعجاب، ثمّ شغفت جداريّة فائق حسن، وسط ساحة الطّيران، لبّه، وأحسّ الدّهشة في عينَيه من تلك الصّور التي كانت

ترسم بانوراما ذكيّة ملوّنة لهذا الشّعب. ومن ثمّ قاده للفرجة على سوق الطّيور في شارع الجمهوريّة، وشرح له (رسول) وهما يتجوّلان لاحقاً في شارع الرّشيد تاريخ الشّارع منذ تأسيسه على يد العثمانيين في بداية القرن العشرين وحتّى دخول أوّل جنديّ يانكي إليه. ولم ينسَ مرافقته إلى سوق البهارات العابق بالرّوائح النّفّاذة في منطقة الدّهانة. بعدها تناولا شاياً ثقيلاً في مقهى يقع وسط السّوق الشّعبيّ للأعظميّة، كما مشيا بعد ذلك ساعة على ضفاف دجلة عند تمثال شهرزاد وشهريار، وأشار له (رسول) إلى المنطقة الخضراء التي تحكم البلد. وفي مطعم تنّور المطلّ على شارع السّعدون تناولا نفري كباب، وأبدى جورج إعجابه بهذه الطّريقة من شيّ اللحم، ونكهة البهارات، والبصل المشوي، والطّماطم محترقة الجلد. في برلين يوجد آلاف اللاجئين العراقيين، بعضهم يمتلك مطاعم لتقديم الكباب، لكنّه أبداً لم يفكّر بالدّخول إليها، أخبره جورج ثمّ سأله إن كان يفكّر بطلب لجوء إلى ألمانيا، وسيساعده في الحصول عليه، لكنّ رفضه كان قاطعاً. وصارحه جورج برغبته في الجلوس بحانة بغداديّة تقليديّة لكي تختمر المدينة في قلبه، وليحملها في الذّاكرة حتّى آخر لحظة من حياته البرلينيّة، كما قال. ومن هنا قادتهما الخطا عبر الأزقّة العتيقة إلى حانة أبي سمير.

وحانة أبي سمير عجيبة، تقع في فرع ضيّق يربط شارع السّعدون بكورنيش أبي نؤاس، حيث ينتصب تمثال شهريار وشهرزاد. وكان (رسول) مرعوباً حين جلسا على طاولة ضيّقة تقع جوار البار، هو وجورج فقط. إذ جذب منظر جورج المختلف في الهيئة واللون واللغة أنظار الشّاربين، وهم خليط من العمّال واللصوص والقتلة، ومتقاعدي الحقب الماضية، وصحفيين جالسين

قرب المدخل الزّجاجيّ عرف (رسول) مهنتهما من وجود كاميرا موضوعة على الطّاولة مع أوراق وقلم جافّ مفتوح، وكانا يحتسيان كأسين من العرق ويدخنان بنهم وعصبيّة واضحة وهما يتحاوران بكامل الجديّة في موضوع ما. لا شكّ أنّ تلك السّنين، السّنين التي جلبت رعب الموت الطّائفيّ، والتّفجيرات الغامضة، وإرهاب القاعدة، والدّوريات الأمريكيّة، لم يعد مألوفاً فيها جلوس رجل أشقر الشّعر بعينَين زرقاوَين في منتصف العمر وسط بار أبي سمير، وفي مدينة بغداد الموتورة التي تسبح في فوضى عارمة، وتتقاتل فيها خطط وبرامج وتصوّرات لعشرات الدّول، والحركات، والمنظّمات، والجيوش. نعم، في تلك السّنة كان الانتقام لغة سائدة في شوارع بغداد، وقد شهدت عمليّات خطف للأجانب تحت شعارات وحجج وذرائع كثيرة، حسب الجهة الخاطفة، ومكان الخطف.

وهناك، وسط تلك الحانة المغلقة، الشّبيهة بمحل لبيع المرطبات، وعقب كؤوس من البيرة الألمانيّة من نوع هنيكن، التي يحبها جورج، كما قال، ووسط أغنية حزينة لياس خضر، كشف له جورج عن أسرار ما حدث في العراق. حكاية اليورانيوم المنضّد. تساءل في بحر الكلام والضجيج، إذا ما كانت قوّات التّحالف التي جاءت إلى العراق للعثور على أسلحة الدّمار الشّامل هي التي استخدمت تلك الأسلحة. وذلك بإطلاقها قذائف اليورانيوم بكثرة. وهي قذائف استخدمتها قوات التّحالف في كلّ حروبها. أخبره جورج بصوت خفيض يكاد لا يسمع: في البوسنة، وفي كوسوفو، وتمّ ضرب أفغانستان بالقنابل المدمّرة للملاجئ من عيار جي بي يو 28 و31. واستُخدمت في حرب إسقاط النّظام. كما تعرف، يقول هامساً، وعيناه الزّرقاوان تضيقان وتنمّ نظراتهما عن جديّة مطلقة:

اليورانيوم المنضّد هو نفاية الصّناعات النّوويّة وإشعاعه بسيط، ولكنّه، مثل المعادن الثّقيلة، سامّ جداً. وهم لا يعرفون كيف يتخلّصون من هذه النّفايات، وهناك مليون ومائتا طنّ منها، في أنحاء العالم، وتزداد كميّتها كلّ يوم. وجاء اكتشاف الاستفادة من هذه النّفايات هدية غالية الثّمن لمصمّمي الأسلحة، فهم إن شكّلوا مادة اليورانيوم على هيئة قضيب، وأضافوا له قوّة الدّفع، فإنّه يخترق كلّ العوائق. ونتيجة لدرجة الحرارة العالية التي تنتج بسبب الاحتكاك عند ضرب الهدف، يشتعل اليورانيوم المنضّد ذاتيّاً، ويتولّد عنه انفجار حارق وشديد. ومعنى هذا إنّ هذه القنابل لا تحتاج إلى متفجّرات. ويعتقد أنّ أمريكا استخدمت ذلك النّمط من الأسلحة لضرب القوّات العراقيّة المنسحبة من الكويت في حرب الخليج الثّانية.

وهنا تذكّر (رسول) طريق الموت الذي امتدّ من الكويت حتّى البصرة، وكيف توهّجت الدّبابات وناقلات الجند وحتّى الأسفلت بنيران غريبة غير مفهومة، حيّرت المراقبين. تذكّر مرأى الحيوانات الأرضيّة المحترقة والجنود المتفحّمين والرّمال المصهورة والدّبابات المتحوّلة إلى كتل لزجة من الحديد. تذكّر أيضاً تلك الجموع من الجنود الهاربة من المذبحة وهي تلقي سلاحها في الحفر والسّواقي والأجمات اليابسة، وتنتشر في الطّرقات عائدة إلى المدن القريبة.

نقابة الإيروميل وصفت هذا السّلاح بأنّه مدمّر وشنيع، وكانت تطالب دائماً بمنع هذه الأسلحة، واصل جورج كلامه. وهذا معناه أنّ نقابة العسكريين تلك تعرف خطورة هذا السّلاح. حلف النّاتو يعلم ولكنّه لا يكترث لطلب نقابة العسكريين بالتّوقف عن استخدامه. في البداية لم يرغب جورج في عمل فيلم عن اليورانيوم المنضّد، ولكنّه

خطّط لكتابة بحث يُصدره بكتاب عمّن يسمّونهم بالوشاة، وهم العلماء العاملون مع الشّركات المصنّعة لتلك الأسلحة وكذلك الأطبّاء. فهم، وحسب العقد المبرم معهم ينبغي عليهم الاحتفاظ بالأسرار حول هذا النّمط من الأسلحة. ويفترض أنّهم يمتلكون ضميراً مهنيّاً يدفعهم لتسريب معلومات عن خطورة استخدام اليورانيوم المنضّد.

- اسمعْ يا صديقي، يقول له جورج وسط ضجيج الحوارات، وقرع الكؤوس، ودندنة الأغاني القادمة من طاولة الصّحفيين اللذين بدا عليهما السّكر، اسمع ما يقوله البروفيسور زيجفارت هوريست جونتر، أخصائي الأوبئة والمناطق الحارّة: شاهدت الأطفال خارج البصرة معهم هذه القذائف يلعبون بها بعد تلوينها وجعلها على هيئة دمى. دمى اليورانيوم. يا للمسيح. وعندما مات أحد هؤلاء الأطفال بسبب سرطان الدّم، انتابني الشّكّ في الأمر. هنالك شيء في هذه القذائف ليس عاديّاً. قمت بنقل قذيفة من هذه القذائف في حقيبة أحد الدّبلوماسيين إلى برلين، وأردت أن أتأكّد ما إذا كانت هذه القنابل تمتلك إشعاعاً نوويّاً كما فكّرت، أم لا. وحاولت فحصها في ثلاث جامعات. في البداية كانت جامعة هومبولدت، وقالوا لي إنّها شديدة الإشعاع وسامّة، ولا نريد أن يكون لنا علاقة بها. اذهبْ إلى الجامعة التّقنيّة، التي قالت لي الشّيء نفسه: لا يريدون أن تكون لهم علاقة بهذه القضايا، ووجّهوني إلى جامعة أخرى. اذهبْ إلى معهد الإشعاع النّووي في الجامعة الحرّة. وفي المعهد قالوا إنّه يوم جمعة ولا نريد الاحتفاظ بمثل هذه الأشياء في بنايتنا، تعالَ يوم الاثنين، أي بعد عطلة نهاية الأسبوع. اضطررت إلى أن أتنقّل بها من أطراف برلين حتّى البيت. ثمّ مرّة أخرى انتقلت بالقذيفة إلى أطراف برلين، وهناك كان في انتظاري ستة عشر عنصراً من الشّرطة،

جاؤوا لاعتقالي لأنّهم أُبلغوا بأنّني أحمل قذيفة مشعّة، خطرة على الصّحّة. ثمّ جاءت قوّات خاصّة من الشّرطة بملابس واقية من الإشعاع ومعهم صندوق مدرّع لحفظ القذيفة. وبتعابير مرعبة أكمل جورج حكايته: بعدها تمّ اعتقال صديقي جونتر لهذا السّبب. وحُكم عليه بدفع غرامة ماليّة مقدارها ثلاثة آلاف يورو بسبب نشره الإشعاع المؤيّن. وجاء في حيثيات الحكم، إنّ الغرامة تمّت بسبب التّعامل الخاطئ مع القذيفة والذي ينتج عنه خطر الاندماج، والتّلوّث الإشعاعيّ الذي يمكنه أن يتسبّب بأضرار صحيّة.

***

يقول جورج نقلاً عن لسان صديقه جونتر: رفضت دفع الغرامة فتمّ اعتقالي وسُجنت لمدّة خمسة أسابيع، ولكن بهذا تأكّد لي وبالدّليل أنّ هذه القذائف نوويّة ومشعّة قاتلة. إذا أصابت قذيفة دبّابة فاليورانيوم المنضّد يتحوّل عند الانفجار إلى جسيمات نوويّة أصغر من الكريات الحمراء بمائة مرّة. ومعنى هذا إذا تنفسّها الإنسان، أو تناول فاكهة وبقوليّات ترسّبت عليها تلك الذّرّات، فسوف تصل إلى كلّ أجهزة الجسم. تصل حتّى إلى مشيمة الأمّ الحامل التي تغذّي الجنين، وتصل إلى المخّ. وأشعّة ألفا التي تنطلق من هذه الذّرّات المتأينة يمكنها أن تحطّم الكروموسومات وتشوّه الجينات لدى الكائن البشريّ. وهذا يعني تشوّه الصّبغة الوراثيّة للإنسان، وتكون النّتيجة تشوّهات خلقيّة مروّعة. اسمع الكوارث يا ابن البلد، يهمس له جورج وابتسامة شقراء ترفرف على شفتَيه، وأنت أخبرتني بأنّك شاعر: رضيع في بغداد، رضيع بفم وعين سمكة، جلده يشبه القشر الزّجاجيّ، وهو غير قابل للحياة بهذه المواصفات

المشوّهة. رضيع عراقيّ آخر كانت أعضاؤه الدّاخليّة على شكل كيس ملتصق بظهره. هناك وجه يشبه الكلب. وهناك طفل بعين واحدة أو برجل واحدة. نحن لسنا في مأمن، أيضاً، نحن الأوربيين، فلدينا كألمان، على سبيل المثال، جنود في أفغانستان والعراق ودول أخرى ممّن استخدم فيها اليورانيوم المنضّد، وسيحمل جنودنا الإشعاعات تلك في دمهم، وهؤلاء سيتزوجون ويأتي أطفالهم مشوّهين مثل ما يجري في العراق. لا أحد محصّن في بحر هذه الحروب المشبوهة القاتلة بأسلحتها غير التّقليديّة. يتوقّع العلماء أنّ أربعين بالمائة من الجنود سيتأثّرون بهذه الأشعّة. ولكن هناك تغطية وتضليل من قبل الحكومات على الفاجعة. تقوم بعض الحكومات، مثل حكومتنا الألمانيّة، بتكليف بعض الباحثين والأطبّاء الوشاة، بل قل رشوتهم، كي يثبتوا أن لا خطورة على الجنود المشاركين في الحروب تلك، ولا خطورة على البيئة. يجب تحريم هذا النّوع من الأسلحة، طبقاً للمعاهدات الدّوليّة التي وقعت طوال أربعين سنة، واعتبار استعمالها جريمة حرب، وتعويض البلدان التي استُخدمت فيها. يعدّد جورج، المتخصّص بالشّؤون السّياسية أيضاً، كلّاً من فلسطين والعراق وأفغانستان وكوسوفو والبوسنة والصّومال. كثير من المستشفيات الأفغانيّة ترفض فحوصنا الجينيّة للأطفال في المستشفيات، أو بأخذ عينات من خلايا القتلى، أو خلايا الأطفال المشوّهين. عدم الكشف عن هذه الجرائم يجعلنا مشاركين فيها، ومدانين بإخفائها. في خريف عام 2008م تمّ التّصويت في الأمم المتحدة على تحريم هذه الأسلحة، وقد صوّتت مائة وأربع وأربعون دولة بالموافقة على الحظر، بينما صوّتت أربع دول فقط ضدّ تحريم هذه الأسلحة وهي إسرائيل، وأميركا، وبريطانيا، وفرنسا. تخيّل.

ووصل الأمر حدّ استخدام الفيتو. وقد انتشر في الصّحافة العراقيّة في العام ذاته أنّ هناك ثمانية عشر موقعاً في العراق لم تعد صالحة للسّكن، وتمّ نقل السّكّان إلى مناطق أقلّ تلوّثاً. مناطق حول بغداد والبصرة والنّاصريّة والفلوجة. وهي المناطق ذاتها التي شهدت معارك ضارية بالدّبّابات في الحربَين المعروفتَين، حرب تحرير الكويت وحرب إسقاط صدام حسين، ولاحقاً في الحرب على القاعدة. وقد استُخدمت قنابل اليورانيوم المنضّد بشكل واسع في مهاجمة دبّابات الحرس الجمهوريّ حول المطار. نقل السّكان جاء بعد فترات طويلة من حدوث تلك المعارك، أي بمعنى ما إنّهم أخذوا كفايتهم من الإشعاعات القاتلة وستظهر عليهم لاحقاً، والجميع يعرف ارتفاع الولادات المشوّهة في الفلوجة والبصرة وبغداد، بل معظم مدن العراق. وارتفاع الإصابة بسرطان الدّم والوفيات بسبب ذلك. خاصّة مع عدم وجود مستشفيات متخصّصة كافية، وتخلّف الطّاقم الطّبي والإداريّ في علاج ذلك.

والسّؤال هو: هل تمّ التّخطيط لذلك من قبل التّحالف؟

يقول له صديقه الألمانيّ متسائلاً، وكانا يحتسيان البيرة الهينيكن التي صادف أن كان أبو سمير يضعها في الثّلاجة كي يحتفظ بها باردة، ويتعرّضان لنظرات المدمنين البغداديين على شرب العرق والبيرة، وسط رائحة اللبلبي المتصاعدة من حولهما وشرائح الخيار المملّح والجاجيك. ثمّ يجيب جورج على سؤاله بنفسه: أي القضاء المنهجيّ على شعب كامل؟

صاحبه الشّريف، النّبيل، الأوروبيّ النّظيف، الذي يسكن في فندق بغداد القريب من الجريدة، سرعان ما ودّعه (رسول) ورجع إلى

فندقه (جبل قنديل) في البتاويين. قطع المسافة من تمثال عبد المحسن السّعدون حتّى بداية نفق ساحة التّحرير وهو يتفكّر في ما قاله جورج، ودون وعي منه راح يدندن بأغنية يوسف عمر، ملك المقامات البغداديّة، بصوت خافت: ما لنا كلّنا جو يا (رسول)/ أنا أهوى وقلبك المتبول. وكانت المدينة تغني أغنيتها الحزينة في رأسه.

تلك سيرة مضت، وتلك جروح لن تندمل في أجساد العراقيين.

وفي الوقت ذاته، مع سيل الكلام القططيّ، سطعت أنوار الشّمس من النّافذة وعاد، في قفزة دماغيّة هائلة في الزّمان والمكان، إلى صفحة الحائط المقابل له، ليقضي صباحه متأمّلاً في ملصق جلجامش الذي تنعكس على ألوانه ذرذرات ضوئيّة لأشعّة الشّمس. نظر إلى تلك الآية المذهّبة التي ثبتّتها زوجته في الصّالون قبل سنوات، وهي تنصّ على وحدانيّة الإله الذي لم يلد ولم يولد، وغاص في تفكير عميق، خرجت منه بابتسامة لا تفسّر، وما هي إلّا ساعة حتّى امتدّت يد (بشير) تنتشله من كوابيسه وذكرياته ورعبه اليورانيومي. تأهّب لحمله كما جرت العادة منذ شهور، وربّما سنوات، إلى المغسل. إلى النّظافة. الصّابون والشّامبو والعطر. إلى الضّوء والحقيقة السّافرة. إلى الشّمس معبودة المجوس.

5

كان الوقت ظهراً، والشّمس في منتصف السّماء، والسّماء زرقاء دون غيوم. رفعه (بشير) كأنّه عقاب ذهبيّ من تلك العقبان الطّائرة فوق مرتفعات الجبال، والغابات التي كثيراً ما جلس يشاهدها على شاشة التّلفزيون. وضعه على الكرسي المركون جانباً بعجلاته المطاطيّة، وغطائه الجلديّ، وركيزة الرّأس التي سيضع محبرته الخياليّة في رأسه وقلمه الدّخاني عليها، رغم الألم المنتشر في مكان ما من داخله. نتعه بقوّة آلمته حقيقة، وأطلق صوتاً منكراً بلا كلمات، لكنّه لم يعره التفاتاً، كالعادة، ثمّ اتجه به نحو الباب. وما هي إلّا دقائق حتّى وجد روحه في وسط الممرّ، والأشعّة تنغرز في عينَيه غير المعتادتَين على وهج النّهار: الشّمس أمّكم، المجرّة أبوكم، الفرات راقصكم، دجلة عروستكم، وبغداد حانتكم، وتمثال أبي نؤاس يحدق حزيناً بأبنية المنطقة الخضراء، فمن هناك مرّ هولاكو، وركضت خيول جنكيز خان وسال الحبر في مجرى دجلة التي تلوذ الحمامات بين مائها وطينها، كما هتف ذات سنة شاعركم محمّد مهدي الجواهريّ، وكان الموت يمتطي موجة إلكترونيّة، الموت ينصبّ على رأسك من السّماء الزّرقاء، وها هو يطوّقك مثل غازات سامّة أُطلقت قبل عشرات السّنين على الجيوش القادمة من الشّرق، وعلى الجبال في تلك المدينة التي زرتها لرؤية أخيك فؤاد، وفؤاد ميت، دفنوه في المقبرة وهي نهاية كلّ ابن أنثى. ثمّ وجد في رأسه قصيدة مكتملة لكنّه عجز كيف يمليها على (بشير) ويده لم تعد تطاوعه على الكتابة الحاسوبيّة.

أشجار الحديقة تقف صانتة، ورائحة الرّبيع تلفّ الفضاء، وثمّة نحلة تطير قرب السّياج تفتّش عن زهرة متفتّحة. ستبدأ حفلة التّعذيب، وأجلّ ما فيها هو أن يكون مصيره بيد شخص آخر. لا ينفع تمنّي الموت، فهو مثل قصيدة الشّعر لا تأتي إلّا حين يحنّ عليه شيطانه ووحيه، فيجد نفسه في برزخ الخيال. يا لهذه الحياة المتأرجّحة بين الواقع المرّ والخيال المجنّح. وها هي (براء) تحضّر جنبه كأنّها إلهة الشّرّ، كأنّها تيامات المتوعّدة لبني سومر، وبابل، وآشور، وعقبان السّماوة المحلّقة فوق الرّمال. هي، تيامات التي أطلقت الوحوش على سكان بلاد ما بين النّهرين، وهي من خلق منها مردوخ ابن الإله إنكي، بعد قتلها وتمزيق جسدها، السّماء والأرض. السّماء مجهول لا يأتي والأرض نبوءات كاذبة، كما تجسّد ذلك في رأسه. تمدّ (براء) يدها، تخلع دشداشته، تنضو عنه الفانيلة الدّاخليّة العفنة، وتخرط اللباس من جسده اللدن. يضطجع عارياً وكأنّه في تلك الكرنتينة الواقعة قرب معمل الزّجاج، وليست الكرنتينة البغداديّة التي سكن فيها وهو طالب في الجامعة. إلّا أنّ جدّته غابت مع وجهها الوضاء، وحضرت بدلاً عنها (براء) فارعة الطّول، السّمينة، بعد ستين سنة من هذه الحياة الحمى، السّاخنة كأنّها صخرة قدمت من كوكب المريخ في غروب ساحر عطر. هناك شبح القطط في الحديقة، بل أرواحها وهي تغتذي من حليب الكلاب. وهناك واجهة بيت الموظّف الصّحي المرتشي، المنتفع من مجيء أطفال جدد إلى بحر اليورانيوم المنضّد. وشجرة النّارنج ترتعش بالنّسغ جنب المراحيض. لقد رشّوا المياه على جسده، وعطّروه بالبخور والشّنان والقرنفل. وفركوا رأسه بطين دجلة والفرات. الطّين الحريّ. وتغلغلوا في خلاياه بلمساتهما الحانية، وكان يقف عارياً بين الأيدي، عاري

الجسد والرّوح. الشّاعر المقعد المهزوم، الشّاعر الذي عاش الحروب كلّها، والقتل كلّه، والخطف كلّه، والجحيم الأرضيّ كلّه منذ دانتي الأليجيري وحتّى مذبحة ساحة النّسور. هو تاريخ الأسى، وحزن جرّة النّبيذ الفارغة، وقوس قزح الرّمال في البيداء. هو عاجز تماماً. هو ذاكرة مضطربة تخلط الماضي بالحاضر، الواقع بالخيالات.

وكان (بشير) يمسك به واقفاً أمام الكرسي، وأحسّ ببرودة الإسمنت الرّطبة تحت قدمَيه، ومسيل الماء يظلّل عينَيه ورموشه وينحدر نحو خباياه. وثمّة شعور بالسّمو يدفعه لكي يطير. يطير مثل عقاب ذهبيّ فوق مداخن معمل الزّجاج، وقصب ناظم الورار، وزاغ بحيرة الحبانية بلون ريشه الأسود مثل حظّ هذا الوطن الجائع إلى الحروب والدّم. يستدير نحو الصّحاري ليرى نواعير هيت، ووديان البغدادي، وبساتين عانة، وأثل أبي غريب. أجل، يستدير في الخيال كما لو أنّه طائرة شبح أمريكيّة قصفت جسور بغداد لتوّها، وقلبت الضّفّتَين عالياً سافلاً. ثمّ يستدير نحو الجنوب حيث بساتين النّخيل، وسمك الشّبوط، وتلك البواخر العملاقة التي تمخر في المحيطات. من هناك مرّ السّندباد وجلب حكاياته المضمّخة بالأفيون والخيال الجامح، ومن هناك جلبوا العبيد من غابات أفريقيا، تماسيحهم وأقنعتهم ورماحهم المريشة، وعقود العاج في أجيادهم، ومن هناك مرّت جيوش الإنكليز والسّيخ منحدرة من القرنة نحو الكوت. تردّدت أصداء معركة الكوت في رأسه رغم أنّها حدثت قبل أكثر من قرن بين جيش الإنكليز والجندرمة الأتراك ومعهم العشائر.

انزلق من يد ابنه أكثر من مرّة لكنّه تناوله بعاطفة البنوّة وأوقفه، وكانت المياه تندلق من يد عشتار سيّدة الولادات والزّهر

البري وعناقيد العنب وهي تلده من جديد نظيفاً، عارياً، بريئاً مثل جنين خرج توّاً من رحم هذه الأرض. عطّروه بالذرور والزّنجبيل والكمون والقرفة، والسّعد المطحون من دكان أمّ إحسان الواقع قرب السّاحة، والزّعفران فوق هذا، وأضجعوه على سريره مثل جثّة نظيفة في طريقها نحو عشّ الخلود في أحضان أمّهم الأرض. عشتار تستعيد طفلها من العالم السّفليّ، لتمنحه أيّاماً ضوئيّة هانئة، وسرعان ما هبط النّوم على قراطيسه وأوراقه وشاشاته وجلوده، ثمّ كفّنوه بالصّوف وأطفؤوا الضّوء. وسمع بين الخلو، والنّوم، والخيال، أصواتهم وهي تتمنّى له أحلاماً سعيدة ونوماً هانئاً، وكان صوت (بشير) يأتي من غيهب العقل المضطرب، عقله: ترتسم على محيّاك ضحكة خفيفة مليئة بحنان قلبك العطوف الحنون عليّ دوماً. هل تذكر وأنت تحملني على رقبتك بين أزقّة حي القطانة ذاهباً بي إلى بسطتك المعدمة أيّام الحصار؟ الجوارب والبلوزات والسّجائر اللف والقداحات وسقط المتاع؟ وكنت تجلبها من سوق الشّورجة وسط بغداد مخاطراً بجسدك في ظلّ المقتلة الطّائفيّة، وكلّ ذلك لتجترّ لقمة العيش من فكوك السّباع الضواري. راتبك كمدرّس لم يعد يطعمنا أنا وأنت وأمي. ونستذكر أيّام هؤلاء الأوباش ونحن نذهب إلى مدرستك، والرّصاص وأصوات الانفجارات يقتل حياة المدينة التي طالما كانت حاضرة في كلّ أشعارك. كنت تعطيها الحياة وتمسح عنها الدّموع وهي ثكلى حزينة.

وراح يدندن بقصيدة له تذكّره بليالي الخمرة على كورنيش أبي نؤاس مع صديقه (هاتف) حينما كانا يحتسيان البيرة، ويأكلان السّمك المشوي، فيغنّي له قصيدته الفريدة من نوعها:

اشرب فإنّ الكأس لم تنضب/ وحلاوة الأيّام أن تشرب/ غنّى لك الخيّام في شغف/ وتصايح النّدمان لا مهرب/ يا أيّها المجبول من حمأ/ قيثارك الفتّان كم أطرب/ ثمل تحدّث عن صبا شفة/ عسل بها التّقبيل بل أطيب/ اشرب فإنّ العمر أن تشرب/ فلقد تدانى منك ما ترغب/ ها جنّة الأحلام دانية/ فعلام دون قطافها تتعب/ ظمآن أنت فأي دالية/ رحلت وأنت رضيعها الأشيب/ في سرّ سرّك ألف عاصفة/ في وصفها لم تدرِ ما يُكتب/ هذي سماؤك جدّ غادرة/ إذ غادرتك وغادر الكوكب/ اشرب وغنِّ ولا تكن حجراً/ فالعمر مسلوب ولا مهرب.

ألمْ يقرّ له الجميع ببراعته في كتابة القصيدة العموديّة، نتيجة لثقافته التّراثية وإتقانه لبحور الشّعر، بل ويندهشون لإصراره الزّائد على رفض قصيدة النّثر بعد أن أصبحت موضة جيله؟ ويرتفع حوله ضرب مريع للدّفوف، وخناجر تلصف من يمين ومن شمال، وجمر يتلظّى يلتهمه دراويش يقيمون الذّكر في ليلة خميس تبرّكاً للأموات الرّاحلين. مثلما فعلوا به بعد الحمام الفضائيّ في الحديقة، وفي ذات زمن منقوش ومرقوش ومدوّن في ذاكرته قمطته أمّه، أمّه التي ماتت ودفنوها في المقبرة وهي لم تعرف، كما كانت تردّد لجلّاسها ليل نهار، لماذا وُلدت، وكيف عاشت ولأيّ غرض تبكي كلّ نهار من عمرها، بل كلّ ساعة. قمّطته بالقماش، ووضعته في كاروك من الخشب. يراها في السّماء النّائية بوجهها المدوّر القمريّ تبتسم له تلك الابتسامة السّمحة الحنونة. هل يا ترى تترقّب وصوله إليها؟ في تلك المقبرة المجاورة للصّحراء حيث يرقد أيضاً أخوه فؤاد؟ ولدته وربّته شخصاً يميل للتّأمّل، وكثيراً ما وقف على سطح بيتهم في الليل محدّقاً في تلك النّجوم البعيدة مفكّراً في المدن المتوهّجة المسمّاة بالنّجوم والمجرّات،

ويتسمّع في الوقت ذاته إلى هفهفة أشجار اليوكالبتوس التي تتنهّد مثل عاشقة في ليالي القرية. تتنهّد في الصّيف وتتمايل من الحرّ، أو تبكي شتاء بقطرات ذات صوت ثخين تقع على الثّيل والشّوك في السّاقية التي تحتها. دموع الحيارى، كان يدعوها مع نفسه، وفي القرية يسمّون اليوكالبتوس بالحيران لأنّه صانت مهيب على مرّ الزّمن، وقال أبوه إنّه شجر جلبه الإنكليز حين استقرّوا في الحبانية، وهي معسكر كبير وقاعدة طيران لا تبعد من سريره أكثر من عشرين كيلومتراً. وكثيراً ما وقف على السّطح أو فوق سدّة الفيضان العالية، في عتمة ليل القرية يتفرّج على ضوء الحبانية المشعشع من بعيد فوق النّخيل والمسافات والصّحاري، قوس نوره كان بعيداً مثل مجرّة. الإنكليز لا يتركون جنودهم ينامون في الظّلام، لذلك كلّه، بعد أن استكملوا سيطرتهم على البلد، أناروا لهم قاعدة الحبانية. ثمّ جلبوا الشّجر ذاك، شجر اليوكالبتوس، بعد أن رأوا الصّحراء القاحلة والجدب في المدن والشّوارع، وهي أشجار دائمة الخضرة كما أنّها تطرد البعوض الذي اشتُهرت بها القرى والمدن خاصّة القريبة من النّهر. لذلك زرع في حديقة بيته شجرتَي يوكالبتوس، واحدة إلى يمين شجرة النّارنج والثّانية إلى شمالها. لا بدّ أن القطط الصّغيرة التي شربت حليب الكلاب، ماتت وهي تحدّق مذهولة في أوراقها الزّيتيّة المتلاصقة. إلى أيّ النّجوم سيحدّق في ليلة تلاشيه؟ وأيّ شيطان سيستلّه بمنجله المصنوع من نار؟

لكن كيف صنعت منه الطّبيعة شاعراً؟ هذا السّؤال كثيراً ما ظلّ يتردّد في خاطره طوال السّنوات التي عاشها قبل أن يسقط مقعداً في خيارات الحياة الصّعبة. الإنسان لا يأتي شاعراً منذ الولادة. لكنّه

يعتقد بوجود خصلة شخصيّة غامضة في تكوين الفرد منذ المغامرة الأولى في بقعة الضوء الشّمسيّ. شيء جيني يتخلّق مع الطّفل، يتفاعل كلّ لحظة من عمره وينتشله من ظلمة المحسوس إلى الغامض، الكامن وراء كلّ ما يحيطه. ذلك الشّيء الجينيّ يستولي على الحواس ويوجّهها إلى الجوهريّ والملتبس والرّؤيويّ. آمن أنّ الشّعر لا يكمن في الكلمات فقط، بل هو تيّار روحيّ يستولي على الحواسّ كلّها. على سبيل المثال، ومنذ النّشأة، دأب على أن يقف قرب السّدّة التّرابيّة بعض الأحيان متأمّلاً عيناً من النّمل في جذر شجرة النّخل، ليراقب ما تقوم به تلك المخلوقات الصّغيرة، وما تعانيه من تعب أثناء نقلها للحبوب وأجنحة الفراشات الميتة وقلّامات الأظافر، وذرّات الخبز التي تساقطت من أيدي أطفال يحملون الرّغيف معهم أينما ذهبوا. لم يزايله شعور حادّ مرّ بأنّ أمّه تخلّت عنه منذ طفولته، رغم أنّ عمّه فاضل يرعاه، ويحنو عليه، لكنّ شعور الرّفض ظلّ طوال سنوات يلازمه. شعور الرّفض من والديه. وكيف تخلّى عنه. وكثيراً ما وجد نفسه يحدّق في شجرة النّخل التي زرعها عمّه وسط الحوش، وكان يمتلئ بالأسف لأنّه صار يحسّ نفسه وحيداً، وكأنّ أخاه فؤاد لم يكن أخاه، ولم يكن يقطن على بعد أمتار من بيت عمّه فاضل. كانت أمّه تنظر له كلّ يوم نظراتها الباردة، بعينَيها الضّيّقتَين الخاليتَين من التّعابير. لا يختلف عن أيّ دجاجة تربيها، أو بقرة تستنزف منها الحليب كلّ صباح. إنّه موعود بحياة أخرى إذن، بأفق آخر. هذا الهاجس الغامض ظلّ يسبح في خياله عند النّوم واليقظة.

***

تلك الذّكريات طافت في رأسه وهو ممدّد قرب مكتبته التي ينام فيها الجاحظ هانئاً، ويستنزل السّيّاب المطر على شبّاك وفيقة، ويحلم في ثناياها راسكولينكوف بقتل العجوز كي يصبح بطلاً، يمتلئ بقناعة أنّه لم يخلق لحسّ الفلّاحين الغيلظ، وأفكارهم الجاهلة، وكلامهم المكرور ليلة بعد ليلة. هو من طيّنة أخرى. طيّنة المختارين والصّفوة. نعم، هاجس أنّه موعود بحياة أخرى كان يراه في زنابير النّخلة، في خوص السّعف الأزرق مثل سماء الغروب، في النّجوم المتلاهثة فوق حوش البيت وكأنّها عصافير تحلّق إلى الأبد في مجرّة درب التّبانة. ويسمعه في طنين الذّباب، وأزيز البعوض قرب أشجار الصّفصاف، ويراه في دخّان التّنانير عند الغروب.

وكانت هناك صورة دخّانيّة لحياته ومعناها، لازمته منذ خروجه من كهف أمّه المظلم. صورة تتجلّى في كلمات، ومشاهد، ونبرات، وهمهمات قادمة من خلف الأفق. فهم لاحقاً، أنّ ذلك هو عالم الشّعر.

قضى ستّ سنوات في المدرسة قبل المضي إلى المدينة، لكنّه، كلّ يوم، وحين يعود من المدرسة ظهراً يميل أخوه فؤاد إلى بيت أهله بينما يستمرّ (رسول) في المشي نحو بيت عمّه فاضل، وكان يتألّم ذلك الألم غير المفهوم لطفل في سنّه، ولم يعرف ذلك الشّعور على حقيقته. لم تضمّه أمّه بين ذراعَيها، ولم تقبّله، ولم تمسح على رأسه عندما ينام ليلاً، ولم يفهم أهميّة تلك العواطف إلّا بعد سنوات طويلة، سنوات عاشها وحيداً كشاعر مرهف الحسّ في ذلك الوجود الأجرد. لم يفهم غربته في هذه الحياة إلّا لاحقاً. حين كبر وأصبح يرى هيلين في كلّ امرأة يلتقيها على حدّ قول الشّاعر. وطبعاً هيلين

هي الفتاة اليونانيّة الجميلة التي التقطها باريس وسافر بها إلى طروادة، وقامت إثرها حرب طروادة التي استمرّت عشر سنوات انتهت بخراب تلك المملكة إلى الأبد، كما أخبر البشريّة هوميروس الشّاعر. والآن يتذكّر أخيل، وأغاممنون، وبينلوب، وأولوسيس، وباريس وهيكتور، وكلّ أولئك الأبطال الذين عرفهم، وحاول الطّيران معهم في سماء الأساطير، والمعارك، والحوارات التي جرت قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة ربّما من تاريخ هذه البشريّة القادمة إلى حروب، ومجاعات، وموت بايلوجي وبيئي وقيمي.

إله في مكان ما لم يعد يحتمل حماقة هذا الجنس البائس، الجنس المهيمن على الكرة الأرضيّة كلّها.

***

هل تعتقدون، يتساءل مع روحه بصمت، أنّ الذّهاب إلى المدينة بالأمر السّهل لفتى مثله؟ فتى يمضي إلى مدينة واسعة مترامية الأطراف من قرية بائسة مهملة لا تزيد بيوتها على خمسين بيتاً؟

وكان أن وجد المدينة عالماً آخر. كانت غولاً يهمّ بالتهامه. كيف كان ذلك؟ هل يسأله أحد عن حياته قبل أن يصبح شهيراً بأشعاره؟ كأنّه عبور من الرّحم إلى الفضاء الشّاسع لفتى قروي ساذج يدخل المرحلة المتوسّطة من دراسته بخجل. المدينة تطلقه مثل صاروخ فضائيّ إلى العالم.

قال له أبوه: ذلك بيتنا، عليك أن ترعى أخاك فؤاد وتسكنا سويّة في البيت. البيت المنزوي في أطراف المدينة. المدينة المتخلّفة، المتربّعة على نهرين، نهر الفرات ونهر الورار. نهران يحملان المدينة

من البداوة إلى الزّمن الحاضر. وهكذا وجد نفسه في المدينة مخترقاً عزلة القرية، ماضياً نحو أزقّة مريبة، وشوارع جافّة محكومة بالحذر. وهنا بدأ عالمه يتسع. وليحزر الذّكي لماذا؟ إنّها السّينما. إنّه الجامع. إنّها المقاهي. إنّها السّجائر. إنّها رائحة الرّقي والبطيخ والخيار واللوبياء وهي تتكدّس في المحلّات وسط السّوق الكبير. إنّها مقصبة اللحم ورائحة الزّنخة تهجم على الأنف ما أن يدخل المرء من شارع السّينما متجهاً نحو سوق البزّازين. هذا العدد من الذّبائح وهي تتدلّى من خطّافات حديديّة يحيط بها الذّباب خاصّة في الصّيف. وكانت العظام تُهدى للفقراء، ورؤوس الخرفان توضع على الرّصيف للبيع بأسعار زهيدة. إنّها مقبرة معسكر المستودع المرعبة، وأصوات الجواميس في حي المعدان، ونداءات الصّلاة في الفجر لجامع الشّيخ عبد الجليل مقابل السّينما، ثمّ تلك المكتبة النّاعمة التي تقع في روض من الزّهور. المكتبة المركزيّة للمدينة، هي الرّحم الذي صنع منه شاعراً.

ولدته أمّه في برج العذراء لهذا أصبح شاعراً. ولدته أمّه في تلك الليلة وما زال عبق البخور في أنفه، أو هكذا يتبادر إلى قلبه حين يفكّر بليلة مولده في تلك الغرفة الطّينيّة. نخلة عمّه فاضل حوّلته إلى شاعر كونيّ. عاشرها أكثر من خمس عشرة سنة من حياته. وجد عقله الدّخّانيّ يفكّر بعمق، وسرعان ما وجد جسده في دوّار سيّارة مسرعة نحو مجهول آخر من نفق هذه الدّنيا العجيبة. اهتزازات وآفاق زرقاء وضوضاء، ليرى في غفلة من الزّمن الأشجار تتراجع إلى الخلف، والبشر في الشّوارع قد تحوّلوا إلى أشباح سريعي الزّوال، والسّماء تتراكض هي وغبارها وشمسها، فيخمّن أنّه في رحلة جديدة من

وجوده. ورغم كلّ ما يحدث فلديه حدس رحّالة مغامر حذر بأنّه يتوغّل في نفق لا يعود منه بشر. مملكة العالم السّفليّ، مملكة عشتار الباحثة عن حبيبها تموز، عالم الظّلام والهدوء المطلق وفقدان الزّمن.

حدس أنّ حمامه الشّمسيّ في الحديقة يوم أمس، كان فاتحة لرحلته نحو ذلك الطّبيب المجهول الذي سيقرّر مصيره في العاصمة بغداد. الطّبيب واثق الجلبي.

***

يعود إلى أرضه فجأة، إلى المحسوس للبصر والسّمع واللمس، ويميل إلى اليسار فيصطدم بـ(براء)، ويميل إلى اليمين فيجد كومة من المخدّات تطوّقه، وتمنع انزلاقه في حوض السّيارة الأخير. السّيارة المتجهة إلى مكان ما بعيد.

أمّه اليمامة وأبوه غراب الزّرع. أخوه شجرة الصّفصاف وعمّته المطحنة، تلك التي نصبها جدّه ذات يوم على ضفّة الفرات قبل خمس وسبعين عاماً، وظلّت تدور وتطحن القمح، وتطعم الفلاحين، وتجمع قصص عشّاق القرية وآهاتهم، حتّى انتهت الحرب بين العراق وإيران.

تخرج السّيّارة من حي التّأميم، ثمّ تستدير في الشّارع الحوليّ المحيط بالمدينة. مباني الزّراعة، الحي العسكريّ، تلّة المشيهد، والقبور هناك في مكان ما، القبور حولهم وفيهم، وتلك آخر الحقائق على ظهر هذه الأرض. كان (بشير) وراء المقود صانتاً يحدّق في الطّريق، و(براء) تلتمّ خائفة على جسدها المترهّل. عيناها تغوران في الأفق المسرع نحو الخلف، وكأنّها، مثل زوجها،

تسترجع عمرها الذي ضاع بين الأحداث كي تعيش مع رجل مقعد يتجه مصيره نحو الهاوية. البيوت الفارهة إلى اليسار بنيت طوال ثلاثين سنة على ركام من البيوت الطّينيّة، أو الصّخريّة على النّمط القديم، والقصص القادمة من طفولة عاشت بين تلك القرى والبلدات. وها هم يتجهون نحو الشّرق.

سمع مثل حلم كلمة بغداد من فم ابنه (بشير). لقد تبعا توجيهات الطّبيب ذاكر، وسافرا به إلى بغداد إذن، إلى طبيب جديد وأجهزة جديدة، وعذابات انتظار المدّة التي تنتهي فيها وظائف جسده ليحلّ الموت بأعضائه وخلاياه، حيث سيضمحلّ الشّعر إلى الأبد. هو عينان فقط، وذاكرة تلتقط حبّ الأمكنة كأنّه عصفور برّي يعيش وحيداً في غيضة تلّة مهجورة نبتت على الرّمال الرّطبة للفرات. والسّيّارة تسير مثل ذاكرته. القذيفة الأولى تنطلق نحوه، تخطئه، القذيفة الثّانية تصطدم بسيّارة أمريكيّة غريبة تتجه نحو الرّمادي، على بعد عشرة أمتار من السّيّارة الكوستر التي كان عائداً فيها نحو بيته، بم بم، انفجارات العبوات النّاسفة تشيع الخوف في الطّيور والأطفال، في الرّمل والشّجر النّابت بين تلتَين وشارعَين. وعلى امتداد الأفق طائرة كانوا يسمّونها الذّبابة، تحلّق ليل نهار، ونهاراً وليلاً. وهي تشبه النّملة في السّماء. أحياناً تشبه الباشق الملاحق لعصفور مسكين. تقترب منه بغتة وبرعونة. يستنشق البارود، رائحة البارود من الجهات كلّها، والجملة الخالدة يرونها أمامهم مكتوبة على مؤخّرة الرّتل: لا تقترب أكثر من خمسين متراً وإلّا ستطلق عليك النّار. ويتعجّب من أنّها مكتوبة باللغة العربيّة والغزاة أمريكان، أوربيون، ملل ونحل جاءت بغتة إلى ديارهم. جسده، ودون إرادة

منه يسترجع انفعالات الأيّام السّود وقد استغرقت سنوات كانوا يعدّونها بحجم الرّعب الذي عاشوه في ساعاتها وثوانيها.

كم مرّة اجتاز هذا الطّريق في حياته الماضية؟ وكم من المشاعر والأفكار عصفت في رأسه عبر كلّ تلك السّنين الكئيبة من حياته؟ كم بيت شعر طاف في خياله من معاجم التّاريخ المعلّب لهذه البقعة الممتدّة آلاف السّنين في ماضيهم البشع، والمشعّ، والمنسيّ، والمزوّر، والموثّق في رقاق الكتب؟ رأى كلّ شيء، لكنّ أصعب يوم حين شاهدوهم على الجسر، وها هو يشاهدهم من خلال ضباب الطّريق، وزرقة السّماء العالية، ومرور الشّجر على الجانبَين. أشباحهم، يتجمّعون على حافّة الجسر، والغيوم تركض في السّماء، وهم يحدّقون في الأفق كأنّهم يصلّون، يصلّون للثّورة، على ضفاف دجلة، وعند جسر الجمهوريّة ضيّع قلبه الحزين، قلب الشّاعر المقعد المحبط السّافل العاجز، عاجز الزّمن، وهم شباب لا يفكّرون بل يفعلون. شاهدهم يقتحمون الجسر وتصدّهم الهراوات والقنابل المسيّلة للدّموع، ولكن من يأبه، وهم في فورة الشّباب يريدون وطناً كما يكتبون على لافتاتهم.

تلك لحظات ثورة عارمة فجّرها شباب يقودهم حلم ورديّ، يكتبونه على جباههم المسخّمة بالدّخان والتّراب، وكانت أبنية الكرخ العتيقة في المدى البعيد شاهداً على مرور الزّمن. وكانت انعكاسات صورهم، وهم يقفون بتحدّ على الضّفّة المعشبة، أجمل قصيدة قرأها في حياته. كم راوده شعور في تلك الأيّام أن يقال عنه شاعر الثّورة. حتّى هذه الصّفة لم يستطع حملها. جبن وغادر مسرح الثّائرين تحت نصب جواد سليم في ساحة التّحرير. المآذن لا

تعني لهم شيئاً، الرّصاص يمرّ فيهم وحولهم، ويتقدّمون نحو الحاجز وعينهم على المنطقة الخضراء، ولون الدّم يلطّخ الوجوه النّسائيّة والرّجاليّة، وعربات التّكتك رائحة غادية كما لو أنّ القيامة أطبقت على بغداد، وهو يتفرّج وفي قلبه هزيمة نكراء. صحيح أنّه لم ينل شرف أن يصبح شاعر الثّورة، هو الرّعديد، لكنّه، ولأوّل مرّة في حياته يدرك بأنّه لا يشعر بالعار من تاريخه، ومن الانتساب لهذا الشّعب. يتذكّر ذلك اليوم جيّداً، مثلما يتذكّر قبر أخيه فؤاد، ويتذكّر جبال السّليمانيّة، وجسر كركوك الذي شارك أبوه ببنائه قبل أن يولد ربّما. ووجه جورج الحزين هناك في السّماء، الألمانيّ نديمه في حانة أبي سمير، بسبب غيوم اليورانيوم المنضّد.

جاء في ذلك العصر البعيد من مبنى الاتحاد العام للأدباء والكتّاب بعد أن أنهى مهمّة تسوّله في الحصول على مكافأة كونه شاعراً. وقتها أصبحت الدّولة تقدّم مكافآت للمثقّفين كلّ سنة. ظلّت سمعته بين الوسط الثّقافيّ حتّى دخول اليانكي بأنّه سكير، عبثي، بموقف غامض من النّظام، خاصّة في وقت الحرب مع إيران، ويحبّ العاهرات. وفي قريته البعيدة عرف الجميع بأنّه متمرّد، لا يحضر صلاة الجمعة في جامع الزّبير، بارع باللغة العربيّة وفقيه بعلم العروض. وبقي حتّى اللحظة في عيونهم كائناً يثير الغموض من حوله. جاءته تلك الأفكار حين مرّ بساحة الأندلس، وأحسّ بأنّ ثمّة شيئاً ما في هواء بغداد، وأنّ أصواتاً بعيدة ضاجّة وكثيفة ونائية تتصاعد في الأفق، واتجه إلى ساحة الفردوس. ومن هناك تتبع الحشود المتجهة إلى ساحة التّحرير. إلى نصب الحريّة. إلى جواد سليم فنّانه المفضّل، وأيقونتهم الفنيّة العملاقة، لا هو و(هاتف)

فقط، بل الشّعب كلّه. وجدهم، وسمعهم، ورآهم، وقبّلهم في داخله وهم يهتفون في ساحة التّحرير، وينتشرون على ضفّة دجلة من جانب الرّصافة. ويسري الخوف والجبن في قلبه على وقع الرّصاص المنهمر، فيتسلّل من طرف ساحة الطّيران بين الأزقّة ثمّ يدخل شارع الجمهوريّة هارباً. ويمسك بسيجارته الفرنسيّة نوع جيتان بلون أصفر العلبة. ما إن يجهز على واحدة حتّى يستّل ثانية. هذا الشّعب جنّ، فقد توازنه، شباباً وبناتاً وكهولاً. هم في معركة منذ ثلاثين سنة، يا للرعب، حريق العيون واللحم الحي، والورق والكارتون، يتصاعد من المطعم التّركي على كتف جسر الجمهوريّة، وقد تحوّل إلى متراس للثّورة. يشاهد عناقيد البشر في طوابقه، وأعلاماً ترفرف، ورايات دينيّة تثبّت في البالكونات، ومجاميع من الميليشيّات ملثّمة تحاول التّصدي للمتظاهرين، وشرطة بلا أسلحة، وجيش مدجّج بالهراوات. وكان زعيق النّوارس يصل إلى الأزقّة التي تعيش في فوضى عارمة. أوّل مرّة في حياته المضرّجة بالدّماء، والخوف، والجبن، يشهد ثورة حقيقيّة. طوال عمره تربّى على الرّعب من السّلطة. سلطة الأب المرعب قبل كلّ شيء. ثمّ سلطة الدّيكتاتور الذي اختبأ في حفرته خائفاً من المواجهة.

وقف حينها على جسر الشّهداء، وهو من أقدم جسور بغداد، وقف ذات سنة مظلمة، وتذكّر الجواهريّ وهو يهتف بقصيدته أخي جعفر، وحوله الجماهير. وكانت صورة الجواهري رآها ذات يوم عند (هاتف)، صديقه، بالأسود والأبيض. ونظر بألم إلى هذه المدينة. المدينة الإحفوريّة. مدينة الدّماء والرّقص والنّبيذ والشّعراء والعمارات والجسور وطيور النّوارس. صورة جميلة خلفها واقع بشع.

وقف على الجسر. في المنتصف. وأحسّ وهو يحدّق في تلك اللوحة الواقعيّة المنفرشة أمامه كما لو أنّه يتقمّص عين مصوّر فذ يخلّد لحظة فارقة من حياة هذه المدينة التي أحبّها، وتمنّى أن يعيش فيها العمر كلّه. ويموت فيها أيضاً. وكانت هناك ظهيرة خريفيّة رائقة، والغيوم ترقص فوق البنايات البعيدة. ترقص فوق القشلة وشواطئ دجلة عند الرّصافة. وفي الماء قوارب لأشخاص يستمتعون بنهار مضيء. جموع تأتي من شوارع وساحات ومقاهٍ. يتأمل من بعيد تمثال الشّاعر المتنبي المنتصب على الشّاطئ. والفرح، يبدو على اللوحة المفتوحة أمامه بغيومها المرحة، وقواربها، ورؤوس النّخيل الباذخة، والنّوارس المحلّقة برقصة صوفيّة. لكنّه، ومثل لمحة زمنيّة خاطفة، راح يتخيّل ما خلف تلك الصّورة. الخارطة الدّمويّة المجسّدة في السّماء تارة، وعلى صفحة مياه دجلة تارة أخرى. لقد امتدّت أصابع الفنّ في عينيه، وفي فراسته المعروفة كشاعر رافض لكلّ واقع تعيس، لتزيح تلك الواجهة الجميلة. أليست هذه، في النّهاية، هي مهمّة الفنّ؟ يكشف القبح خلف الواجهات البرّاقة؟

الفنّ يرصد الأشخاص المشرّدين في الأزقة، ويدوّن حياة الشّيوخ المنبوذين من أبنائهم وأحفادهم. يندسّ بين الأطفال المتسوّلين في المقاهي، والمطاعم، والسّاحات. الفنّ يتسمع لقصص النّساء المسحوقات مكدودات الوجوه، وكأنّهنّ خارجات من مقبرة. يدخل الأماكن المحرّمة كدور القمار، والمباغي، والغرف السّريّة المظلمة. يتنصت إلى حوارات السّكارى في عتمة الحانات. ثمّ لا يلبث أن يندسّ في ذاكرات البشر ليتلصّص على أيام الحروب الموحشة، والمعسكرات الكئيبة، والانفجارات المدويّة، والمواجهات الشّرسة

التي وقعت ذات سنة بين حي وحي، بين جيش وجيش. الواقع هو المشوّه بينما الكتابة عنه، أو رسمه، ذروة السّمو. هذا هو الفنّ الحقيقيّ، الصّادق، والخالد، حسب رؤيته. الفنّ يدوّن الثّورات والحروب والبؤس البشريّ مرّة باللون ومرّة بالكلمات. هكذا حاول لقصائده أن تكون. الشّاعر لا يرتضي التّرويض. يغوص في مياه النّهر ليحدّق في الهياكل العظميّة للمغدورين منذ عقود، وغيّبهم الموت في بطون أسماك النّهر. يتشمّم دماء الشّباب على الأرصفة، والغازات الموجّهة إلى العيون والرّئات. ينشغل بحكايات اللصوص والقتلة. نعم، تلك هي مهمّة الشّعر الحقيقيّة. بل ومهمّة كلّ فنّ نبيل. فكم من البؤس يعيش في الشّوارع والأزقّة، وكم من قصص حزينة تجري في البيوت المغلقة على أسرارها؟ منذ عشرات السّنين والمجتمع يعيش عصر الانحطاط والتّفاهة. ولا يشذّ هذا البلد عن غيره من البلدان، لكنّها، أي ظاهرة التّفاهة أصبحت فاقعة هنا، وأشبه بموجة ابتذال هائلة تكتسح الشّارع، والدّائرة، والبرلمان، والنّقابات، والاتحادات، والهويّات، وانتهاء، للأسف، بالأخلاقيّات العامّة والفرديّة. في هذه المدينة السّادرة تحت ظهيرة تشبه لوحة لرسّام من القرون الوسطى، كلّ جميل يمضي نحو القبح والفجاجة.

وقف على الجسر، أمام تلك اللوحة الجميلة، أكثر من ساعة، وتوغّل بعدها في سوق السّراي، وتناول طبقاً من مطعم كبّة السّراي. وشرب شاياً ثقيلاً في مقهى الشّابندر، ودخن سيجارة بلذّة وتحسّس رأسه في هذه المعركة الدّائرة بين الشّباب وجلّاديهم الذين ارتدوا خوذات غريبة، ذكّرته بخوذات الغرينغو قبل عشر سنوات، وكانوا مدجّجين بالسّلاح كما لو أنّهم في معركة مع جيش أجنبيّ.

كتب رسالته إلى المنتفضين. عنونها هكذا: «نريد وطن». وكان ذلك شعار الثّائرين: لقد أذلّوا كبرياءكم الوطنيّ، وسرقوا ثرواتكم، ودمّروا مستقبل أطفالكم، وأهانوا معارفكم، وحاولوا بكلّ الطّرق، بما في ذلك القتل والخطف والتّهجير والتّجويع، تحويلكم إلى قطعان مذهبيّة وقوميّة ودينيّة، من أجل دفن الهويّة، التي تكوّنت عبر التّاريخ، وصنعت حضارات متعاقبة تظلّ شواخصها منارات للبشريّة حتّى هذه اللحظة. «نريد وطن» لا يمكن أن تصدر إلّا من قلوب نقيّة، وعقول متنوّرة، وإرادة لا تلين. ولا يمكن إغراؤها بالرّشاوى والوعود. ومسيرة استرجاع الوطن تطلّبت شلّالات من الدّماء والجروح والآلام، وهو الرّأسمال الذي لا تمتلكه حكومة المافيا وأحزابها وعصاباتها في المنطقة الخضراء.

وسيعود، في ذلك اليوم المشهود، سيراً على القدمين نحو ساحة (الرّصافي)، كي يستقلّ سيّارة أجرة تنقله إلى محلّة البتاويين، حيث يقع فندقه الذي كان يقيم فيه: فندق جبل قنديل.

ثمّ تذكّر يوماً آخر من أيّام تلك الثّورة التي كان شاهداً عليها، حيث فكّر أن يكتشف سرّ هذه المدينة الأسطوريّة اللامعة مثل تلّة من الذّهب.

***

قبل كمّ من السّنين حدث ذلك؟ حين وجد نفسه هناك، في أحشاء الحوت العتيد، حوت ألف ليلة وليلة، بعيداً عن الغازات المسيّلة للدّموع. دربونات تمتدّ وتنفتح لتصبّ بأحياء عجيبة أخرى مجاورة، تتداخل، تتماهى، وتتشابه بشكل دروبها، وأزقتها، وحتّى

عمرانها. الضّياع في متاهة الأزقّة يذكّره بمتاهة بورخيس البابليّة. بدأ دخوله لهذا الحي مروراً بسوق الغزل، وكان يمنّي النّفس في إمتاع نظره بمشاهدة بعض الحَيوانات التي تمّ صيدها من أمكنتها البريّة، وعرضها أمام أعين المارّة. كان الحرّ شديداً يكاد أن يسلخ جلودها حيّة مثل النّاس الذين كانوا يحتمون منه بالظّلال ومداخل المحلّات المبرّدة والأبواب المفتوحة. حرّ الصّيف عذاب مسبق مسلّط من جحيم (رجال الدّين) كما خطر لذهنه وقد تحوّل إلى عدوّ لكلّ ما يمتّ للأديان بعد العقود الأخيرة من هيمنة الشّريعة ومؤمنيها المتطرّفين الذين قتلوا الشّرطة والموظّفين والأطفال والمخالفين لهم بالمذهب والدّين. ودّ مشاهدة أحد الصّقور، لكنّ أمله خاب لعدم وجود ما كان يبغيه بسبب أنّ السّوق يزدهر نشاطه يوم الجمعة فقط. هذا ما جرّبه عشرات الجمع مع صديقه (هاتف) منذ ثمانينيّات القرن الماضي، لذلك تمّ له الاكتفاء برؤية العديد من طيور الزّينة.

تجاوز سوق الغزل ودلف بعمق درابين حي الدّهانة القابع تحت ظلال جامع الخلفاء، وتلك الدّرابين تنتعش فيها الأسواق الصّغيرة والعميقة، والمغطّاة بأفياء لا تنتهي كونها خارج ضوء الشّمس. وكان مدفوعاً بفضوله، فضول شاعر يكتشف محيطه ويستخرج المعنى من تفاصيله. فكلّ شذرة من هذا الوجود لها دلالة ومعنى ورسالة. تلك الدّرابين، منها الصّغيرة ومنها المفتوحة باتجاه أزقّة شبه مظلمة. دربونة تطلّ نهايتها على سوق مكتظّ بالمطيّبات من بهارات وأوراق نباتيّة، من زعتر وقرنفل وأغصان أشجار يابسة، وكلّ ما يحتاجه المطبخ المهيب. مطبخهم الشّعبيّ منذ أجداده السّومريين وحتّى مجيء شباب

الثّورة و(الفيسبوك) و(اليوتيوب). الزّيوت، وبأنواع متعدّدة، معبّأة داخل زجاجات مختلفة الأحجام، منها زيت تساقط الشّعر، وزيت لآلام الفقرات، ومقويات الباه للرّجال. وزيت الخروع والحبّة السّوداء وزيت الزّيتون. رائحة زيت السّمسم تشيع في الهواء. وتلك أحشاء بغداد، كما كان يسمّيها صديقه (هاتف)، هو من قاده في دهاليزها قبل عشرات السّنين. يتأمّل العناوين الملصقة على واجهة الزجاجات وهي مكتوبة بالقلم الجافّ على أوراق دفتر مدرسيّ. لكلّ نوع من الزّيت استخداماته. زيت تساقط الشّعر مثلاً له سبع طرق للاستخدام لا يعرفها سوى البائع. وهذا زيت خليط من مجموعة نباتات وأغصان من أشجار لا تنبت في بغداد. منها ما هو جبليّ غريب الورق واللون، ومنها ما يقع في غابات استوائيّة بعيدة ذكّرته بجورج أمادو، وغابات الأمازون، وسمك البيرانا المتوحّش، والخلاسيين، وساحرات الماكامبو، وجاء ذكر ذلك في رواياته التي قرأها قبل بضع سنوات.

وكان يتملّى بهذه العجائب ويفكّر: أمن أجل تحسين نكهة الطّعام كي يتحوّل إلى براز يبذلون كلّ هذا الجهد لجمع تلك البهارات والأعشاب؟ توصل بلمحة فكريّة خاطفة إلى أنّ البشر يعيشون، لا لغرض سامٍ، فقط لتحويل مكوّنات الأرض إلى براز يوارونه مرّة أخرى في التّراب. أعجوبة. لاحظ أنّ بعض النّباتات الصّحراويّة يعرفها كالحرمل والحنظل، رآها في الصّحراء قرب المقبرة، وعلى ضفاف السّواقي، وتحت أجراف النّهر. ولكلّ نبتة ميزة. ودفعته تلك الأزقّة العتيقة وبضاعتها النّادرة إلى تذكّر سفينة السّندباد في إحدى رحلاته إلى الشّرق، وتلك الجزر النّائية الواقعة في بحر الصّين، والهند، واليابان. وأعادته تلك الرّؤية إلى مئات السّنين، حين كانت الجيوش تنبثق من

التّاريخ، جيش المأمون يطوق الكرخ، برماحه المرعبة وخليط جنوده من زط، وفرس، وعرب، ومرجئة، وخوارج، وقبائل هاجرت نحو الشّرق قبل مئات السّنين. جيوش التّتر تتوغل في الأزقّة، وهولاكو يغرس رايته في بقايا المدرسة النّظاميّة، وأتراك وبدو وصعاليك بغداد تستبيح البيوت والحانات. وبهاليل القاع يرقصون على إيقاع دفّ وعود ومزمار، كما لو كانوا جيوش جراد تأكل أخضراً ويابساً من عاصمة الرّشيد. والماء أحمر ثمّ أخضر. أحمر من دم مراق لمهزومين خاضوا هرباً في نهر دجلة، وأخضر من حبر كتابة تسرّب من مخطوطات شعر، وسير، وفقه، وأنساب، وحوارات فلسفيّة. مخطوطات لم تعد لها حاجة في غابة السّلاح تلك. مات الحلّاج. مات والضوء ينعكس على جلد الماء ويشعره بالخلود، في الوقت ذاته يجعله يحسّ بأنّ كلّ شيء زائل. يتناقض مع نفسه، والتّناقض سمة البشر منذ أبيهم آدم، لكنّه حين يفكّر عميقاً بجملته يؤمن بأنّ الخلود والعدم وجهان لعملة واحدة كما يقال. الحلّاج ينبثق بجسده النّاحل من جهة الكرخ، يسير على صفحة الماء. الكائن النّحيف تستره مرقّعات وخشاخيش وجلود، وكان شعره طويلاً وعيناه تحدّقان في نقطة بعيدة من السّماء. يعرفه، أجل هو صديقه الحلّاج بذاته، يرقص على موسيقا غير مسموعة. موسيقا للرّعاع، والحمّالين، وباعة المياه، والحانوتيين، وصاغة الذّهب، وتجّار البهارات، وخدم البيوت الفارهة. يعرفه وهو يرقص من وجده البغداديّ، وسمعه يقول لهم، لأولئك المحتشدين حوله فوق الجسر، معبودكم تحت قدمي، والمعبود ذهب الصّاغة والأمراء والخلفاء وفقهاء السّلاطين المتعاقبين على بغداد. رأى صاحبه ذلك الضّياء الوهّاج في كلّ جهة من الأفق، فآمن أنّ المغزى هو الضّوء، كلّ ما في

هذا الوجود ضوء، الرّب والبقرة والجدار والتّين الصّيفيّ والبطيخ في جزر النّهر ووجوه النّساء العازبات على رصافة بغداد. فآمن، واستفرد، وغنّى أغنيته الصّوفيّة الحزينة، وتوحّد في ملكوت روحه دون أن يعرف أحد لِمَ صُلب؟، ولِمَ ارتضى بمصير مثل ذاك؟، ولِمَ سار في هذا الطّريق الذي يسمّيه طريق الحق؟ لقد رفعوه على الصّليب نكاية بجرأته، هم الأشباح سدنة الشّريعة الكاذبون، يرتسمون أمامه على شكل فزّاعات بيض بأرجل من عصي الرّمان، يرتدون العمامات ووجوههم متشابهة وملامحهم شبحيّة. يراهم مثل ما وجدوا قبل ألف سنة، يرقصون فوق مياه دجلة ويهزؤون بالجميع، بثيابهم البيض الشّبحيّة، وتعابيرهم المداهنة، وشبقهم ونهمهم للطّعام، وأرجلهم الخشب وشبههم بعضهم بعضاً، حرّاس الدّين الكذبة ينبعثون مثل عثّ في زمانه هذا. يحلّلون ويحرّمون ويفتون بالقتل لكلّ مخالف. وتنطبق عليهم قصيدته الهائلة التي قال فيها: يا عبد اللات/ لن تقنعني بعد اليوم/ بقول معسول/ وخرافات/ عن ربّ أعطاك الملك/ وكنت تبيع الذات/ من أجل دراهم معدودات/ يا عبد اللات/ لكم أنت بذيء/ وقميء ومهرج/ أطعمت النّاس حماقات/ وتختّمت بخاتمك المصنوع بفيء السّرقات/ وزنيت ولطت/ على اسم الله/ وصدّقك النّاس/ فقد كنت بليغاً في الكلمات/ يا عبد اللات/ أكفر فيك/ وألعن ماضيك/ وألعن من سوّاك أمير الصّدقات/ الخزي رداؤك/ والعار خلاصة تاريخك/ وغداً ترجمك النّاس/ ويصرخ فيك الجمع/ حقيراً عاش/ وملعوناً مات/ من أسدل دوني/ صوت العقل/ فأرداني السّهم وصاح أنا الحقّ الموعود/ في حضرة من غاب/ لا ملك لمن بعدي/ لا صوت سوى رعدي/ أهدي من شئت بما عندي/ الأرض ومن دبّ عليها

جندي/ فانتظروني/ فالصّرخة آتية لا ريب. يكفي أنّهم رفعوا الحلّاج مكتشف الضّوء، وسمير الأرواح الحائرة في ملكوت غريب غاص بالأسرار، رفعوه على صليب قرب نهر دجلة ذات مساء بغداديّ، دمويّ الغروب، بعد أن تناهبوا جسده وأشلاءه: دجلة يا دجلة كم سبحت في مياهك جثث وأشلاء خلال هذه السّنين، وكم عيوناً راقبت غروباتك وهي تجترّ خيباتها مثلك؟

***

غنّى مع روحه وهو يحدّق في وجه (بشير) المنكبّ على مقود سيارته بوجه حزين، وجمود في المشاعر لم يستطع قراءته. في ذلك النّهار البعيد على جسر الجمهوريّة ضيّع قصائده وشرف الشّاعر وهو يستجدي دنانير من دولة قاتلة. وما فتئت السّيارة تغذّ السّير نحو الشّرق، نحو دجلة النّهر والثّورة، نحو زمنه البعيد الذي كثّفته السّنون وقطّرته في سيل عرم من ذاكرة مفكّكة. كانت هذه الأصقاع المحيطة بالطّريق تحت سيطرتهم، أولئك الوحوش، أصحاب اللحى، والعيون القلقة المعبّأة بالجنون. كتب قصيدته العصماء تلك في هجائهم ولم يجرؤ على نشرها. كانوا يضعون بنادقهم على الأكتاف، يمشون بثقة عمياء، ثقة الموت وهو يقطف الرّؤوس ويمحو الحياة من البيوت، والحقول، والشّوارع والكتب. قال فؤاد عنهم قبل موته إنّهم أسوأ بشر مرّوا على الخالديّة، والرّمادي، والصّحراء، والمقبرة، والمضيق، والفلوجة وأبي غريب، وهيت بعيونها الكبريتيّة ونواعيرها الدّوّارة المتألّمة من متح المياه الملوّث بالأشن منذ آلاف السّنين. فؤاد خليله وصاحبه مات. مات من لعب معه في ليالي القرية وقمرها المشرق قبل نور الكهرباء.

مات من احتسى معه الخمرة على شاطئ الفرات قبل أربعين سنة، وكان يثمل ويغنّي لزهور حسين، وناظم الغزالي، وسورية حسين، ويوسف عمر. وسامره في ليالي كورنيش الورار، حين تبعث المياه نفحات باردة تحت ضوء قمر بعيد، وحانات الفلوجة قبل ارتدائها لحية كثّة. مات من ضحك معه، وحزن معه، وصعد معه شجرة النّخيل المعشّش في سعفاتها طيور اليمام كي يجنيا أول التّمور. مات جزء شاسع من روحه، من حياته على هذه الأرض المظلمة ظلمة قبر عميق. سمع أخاه الميت فؤاد يقول:

لقد ضربوني ذات مرّة حين وجدوني أدخّن قرب الدّكّان على بعد أمتار من البقعة التي قُتل فيها الأمريكان أبي. وضربوني حين هجموا علينا ونحن نلعب الدّومينو في دكّان صلاح الأحدب، وقتلوا الشّرطي المسكين في حي التّأميم، ويقصد الحي الذي يقع فيه بيت (رسول)، وجرت الحادثة قبل شلله وضياع قوّة جسده. يستعيد القصّة بعينَين مغلقتَين، مثلما سمعها عشرات المرّات، وكانت السّيّارة تمضي بهم نحو بغداد كما لو أنّها طائر يصّاعد في السّماء. والسّيّارة تسير في صباح هادئ، و(براء) غافية، وابنه يدخّن بإفراط وعيناه في الطّريق، وراح يستعيد الآن تلك الفاجعة دون معرفة السّبب الذي دفعها كي تطفو على قشر الذّاكرة.

يعيشها، ويشمّ الدّم، ويسمع صرخات المذبوح بين جدران من الصّخر، والملاط.

لم يعد يطيق ذلك الوجه البشع لمجتمعه وبشره وقناعاته، وكأنّهم يسيرون نحو هاوية جهنميّة لا قرار لها.

6

جاءت الحكاية التي لن ينساها، هكذا، مثل شريط سينمائيّ. يتجوّل واحد منهم بين الأحياء، يراه (رسول) بوضوح وهو يغمض عينيه، وكأنّه يدخل في لعبة فيلم ثلاثيّ الأبعاد. يتسلّل ذلك الملتحي في الليل كي يصطاد كلباً سائباً، يهجم عليه ما أن يجده قرب الجسر، وكان الكلب المسكين المنهك المريض ينام تحت الجرف، وكان الفرات ينساب نحو بغداد الفارهة، والحلّة المدلّلة، والبصرة السّندبادية الغاصّة بالسّمك والبرحي، ولا يعرف ذلك الكلب الجليل ما كان يجري بين بني البشر. وجده المجرم نائماً فانقضّ عليه بكيسه الجوت العريض، ومن ثمّ عقد الكيس على جسده الضّعيف وعصر رقبته بعد أن أغلق الكيس حتّى مات. حمله بحرص من يحمل كنزاً، ووصل بسيّارته إلى ذلك البيت المنعزل في فسحة صحراويّة خلف حي التّأميم، وهنا انتهت مهمّته التي كلّفه بها الأمير.

وهناك في الغرفة المعتمة وجد الشّرطي المسكين مربوطاً بحبل، الرّجلان واليدان تتشابكان مثل شجرة صفصاف، والكيس الأسود في رأسه. ومن الغرفة الثّانية يأتي همس القتلة الملتحين وهم يسنّون سكاكينهم، حيث تبرّع الأمير وهو يتلظّى حقداً على الشّرطة، والحرس الوطنيّ، والأمريكان، وطلاب المدارس، والمعلّمين، والنّساء السّافرات، وموظّفي مستشفى الرّمادي المركزيّ الذي رقد فيه، وكلّ شيء كلّ شيء، ثمّ نهض متنطحّاً للمهمّة. وهنا راح (رسول) يتقلّب بين الصّحو والغيبة، ثمّ أعاد ضبط ذاكرته كي تستعيد الحكاية. تقول الحكاية

على لسان أخيه فؤاد هذه المرّة، فالأمير شمّر عن ساعديه وانقضّ على الشّرطي بعزيمة صلدة مثل حجر مقالع أبي غريب. ذبحه من الوريد إلى الوريد دون أن تندّ عن الضّحيّة صرخة أو زفرة. ومثل طبيب نطاسي فصل الرّأس ووضعه جانباً على الأرضيّة الكونكريتيّة الباردة. أيّة أحلام رآها أخوه الشّرطيّ، وأيّ صور خطرت على ذهنه؟ يتساءل (رسول) مع روحه، وكانت الأنوار مطفأة في ذلك البيت. وعلى ضوء شمعة صغيرة غسل يديه النّاعمتَين من الإيمان بإبريق بلاستيكيّ، ثمّ مضى نحو الغرفة الثّانية. قام بالفعل نفسه مع الكلب المختطف من أجراف الفرات. مع الكلب وجد المهمّة سهلة فلا مقاومة لجسد ميت. الأحياء فقط يقاومون ذبحهم، وذبّاحيهم، دفاعاً عن تلك الشّعلة الرّوحيّة السّارية في شراييهم. يتقمّص المشهد بوضوح: دم على الأرض، دم على شجر الصّفصاف، دم في الشّوارع والقصائد واللحى المسرّحة فوق الصّدور الغاضبة.

قال الأمير لصاحبه خاطف الكلب: اجلب المخيط، وحضّر الخيط، فالمهمّة صعبة وجهاديّة مائة بالمائة، والحكاية سيضرب بها المثل، والرّعب الإلهيّ أداتنا. سنفرش بالرّعب الشّوارع والبيوت والعمارات والجسور، ونخيط به ذكريات شعبنا المؤمن. نطبّق نظريّة التّرس، التي ابتكرها شيخنا المجاهد أبو مصعب الزّرقاوي، فهذا الشّرطيّ ترس لحماية الغزاة، الأمريكان الخنازير القادمين من القارّة البعيدة. وكانت الشّموع تتمايل كرقصة الحلّاج يميناً، ويساراً، وبدقّة مذهلة، صار يخيط رأس الكلب على جسد الشّرطيّ، وتلك براعة لا يستهان بها. فالقتل قصيدة عموديّة ودّعها (رسول) من زمان. والشّرطيّ تحوّل إلى كلب عند الصّباح، ثمّ رزم في كيس

وشحن في سيّارة أجرة للتّضليل ما إن ارتفعت الشّمس بقدر رمح عن الأفق، ورمي في مزبلة حي المعلّمين على أطراف المدينة. رأى النّاس في الصّباح الأعجوبة التي جلبها لهم الأمريكان، وجدوا أنّ هناك كائناً برأس كلب، وحلّة ذلك المسخ حلّة شرطيّ من المتطوّعين الجدد. وكانت أعجوبة هذا الزّمان بحقّ.

وقيل حسب شائعات المتجمّعين على الجثّة، وتضخّمت لاحقاً، إنّ رأس الشّرطيّ رمي في مياه الفرات كي يكون طعاماً للسّمك، وهمس آخرون أنّ الرّأس تحوّل إلى وجبة دسمة لضباع الصّحاري القريبة من المخبّأ. تلك من ذكرياتهما المشتركة هو وزوجته، فقد وقفا على جثّة الشّرطيّ المسكين برأسه الكلبيّ بعد دخول الأمريكان بسنتين وربّما ثلاثة. رآها تلك الظّهيرة ترتجف وهي تمسح دموعها بينما كان جمع من الفضوليين يحيط بالمزبلة. البعض بدا شامتاً والبعض لا ملامح لتعابيره. والبعض لم يمتلك سوى الدّمدمة، والهمهمة، والنّفور.

***

منذ تلك اللحظة، خلال السّنة الكريهة وما تلاها من سنين، آمن بعمق بأنّ ثمّة موتاً شيطانيّاً يتربّص بهذا الشّعب. سيذكر للجميع ما تبوح به ذاكرته، للآتين بعد موته، بأنّه كان شاهداً على سنوات عجيبة لم تعشها هذه البلاد منذ هولاكو وحتّى وباء كورونا الذي فتك بأخيه فؤاد. نعم، مات جدّه عن عمر يناهز المائة سنة، وكان في سنواته الأخيرة كثيراً ما يتمنّى الموت ويتوسّل إليه كي يريحه من عنت الزّمان. التّبغ لم يعد دواء لوحدته وقد فاق عدد أبناء جدّه وأحفاده وأبناء أحفاده المائة شخص، حتّى أنّه لم يعد يعرف أسماءهم كما لم

يعد في أخريات أيّامه يميّز الوجوه، فصار يخلط في الأسماء، ويحتاج إلى من يعرّفه بذريّته. وذات يوم مرض جدّه مرضاً غريباً، أوشك أن يأخذه إلى السّماء، فراح يهلوس طوال ليلتين ويستحضر ماضياً بعيداً، ربّما قبل أن يوجد أبوه على هذه البقعة المختلّة العقل، وقبل أن يضع الأساس لهذه القرية الوادعة الغافية، كما يقال، على ضفة نهر الفرات. عاش جدّه بعد ليلة الهلوسة تلك عشر سنوات إضافيّة، لكنّه أصبح كائناً زاحفاً، عادة ما كان يراه يستخرج غائطه بيده لتعذّر إخراجه من جوفه، ثمّ ليرميه بعيداً عنه وسط ذهول أحفاده، ومنهم (رسول) طبعاً. لم يفكّر جدّه بترك صورة جميلة لشيخوخته، فرؤية مثل تلك لم تكن لترّد على ذهن جدّه. كان رجلاً إلى الطّبيعة أقرب، وحياة جدّه لم تكن حدثاً في رواية، بل ذلك ما كان مألوفاً في الذاكرة، منذ مئات السّنين، حيث كانت النّاس تبلغ من العمر عتياً. تغزوها أمراض الشّيخوخة، تتذمر من صعوبة الحركة نتيجة تيبس العمود الفقري، أو ضعف البصر والعضلات، ويصبح الأرق نديماً دائماً للجسد، ثم يتمنى النّاس الموت ويصبح هاجساً. جده تمنى الموت هو الآخر حين بلغ المائة سنة. وللموت طقوسه الخاصة، يعلن الجامع رحيل الشّخص، فيجتمع مئات الفلاحين، يغسلونه ويودعونه إلى المقبرة، وكانت تلك حالات نموذجية لموت نموذجيّ مثل موت جدّه. ذلك الموت الطّبيعي النّموذجيّ لم يعد موجوداً، إلّا ما ندر. صار معجزة منذ غزوة الغرينغو.

اليوم حين يسير المرء في شوارع بغداد، أو المحافظات، تطالعه مئات اللافتات معلّقة على أعمدة الكهرباء وعلى سياجات البيوت، وواجهات الجوامع والمدارس تنعى شباباً لم يحن أوان موتهم

الطّبيعيّ مثل جدّه. يكون شهيداً أو مغدوراً بحادث إرهابيّ أو عبوة ناسفة أو برصاص أمريكيّ.

كان يراقب تلك اللافتات وهو ذاهب إلى عمله في تلك الجريدة التي عُرف فيها كمصحّح، ودأب على رصد اللافتات وهي تحمل لغة مرتبكة، لغة الموت الشّيطانيّ الذي نادراً ما كان يزور القرى والأرياف والمدن. نادراً ما كان يشاهد لغة الكليشيه السّابقة التي تقول: انتقل إلى رحمة الله تعالى المرحوم خالد محمّد عبّاس عن عمر يناهز السّبعين عاماً إثر مرض عضال، وهو أب لكلّ من سعيد و(بشير) وعبد الجبّار، ووالد طبيبة الأسنان نضال ووالد المهندس إبراهيم، وسيشيّع جثمانه من جامع ابن بنيّة وذلك يوم الثلاثاء السّاعة العاشرة صباحاً. مثل تلك اللافتات غادرت زمنها ولم تعد مألوفة في الطّرقات. وتذكر رواية كازانتزاكي اليوناني حين يقول زوربا عن جدّه: رأيته ذات يوم يجلس في الزّقاق وكان يتلمّس وجه صبية صغيرة من الجيران ويبكي. فقلت له جدّي لماذا تبكي؟ قال أبكي لأنّني سأموت وأترك ورائي كلّ هذا الجمال. تلك مشاعر طبيعيّة لنهاية حياة، يصبح المرء فيها غير قادر على تذوّق الملذّات. بل ويتحسّر على فقدانها، وهذا هو المجرى الإنسانيّ لدورة حياة البشر. صبا وشباب ورجولة أو أنوثة، وكهولة ثمّ شيخوخة. قاعدة ذهبيّة يصعب الهروب منها. اختلق الإنسان ذات مرّة أسطورة دراكولا الذي يجدّد شبابه بامتصاص دماء الشّابات، وهي محاولة ذكوريّة للهروب من مصير جدّ زوربا ذاك، أو مصير جدّه الذي لم يعد قادراً على التّغوّط، وكأن المرأة الشّابّة إكسير يعيد الشّباب للمرء. ولكن إعادة الشّباب مثل جلجامش، الذي مضى في الآفاق باحثاً عن عشبة الخلود، أمر يدخل في خانة الأساطير. هذا التّصوّر

يضمر في داخله إمكانيّة أن يعيش الإنسان حتى يغدو شيخاً، عندها يبدأ بحلم الخلود، أو على الأقلّ إرجاع الشّباب إلى خلاياه البائدة. والاستنساخ اليوم هو محاولة أخرى، لكنّها علميّة هذه المرّة، لإعادة الشّباب إلى البشر ما إن يصلوا إلى عتبة الفناء. وتلك الأساطير والاكتشافات العلميّة لا يفكّر بها أحد في البلد، هي ثمار مجتمعات هادئة، متأمّلة، عقلانيّة، مستقرّة يموت أفرادها ميتة طبيعيّة على السّرير، في مستشفى، في بيت صغير مؤثّث بمكتبة وديكورات ومطبخ وحمام وأسرّة. لا يمرّ يوم تقريباً إلّا ويسمع المرء عن موت مفاجئ، أخ هذا الصّديق، شقيق ذلك الزّميل في العمل، صديق الطّفولة، ابن صديق الطّفولة، الجار في المنطقة، وهكذا. ثمّ تأتي القصّة بعدها: والقصص تتشابه بعض الأحيان، لأنّ الظّروف العامّة في المدن والقرى والصّحاري والجبال والأهوار تتشابه، أو تكون غريبة لا تصدق، تجعل السّامع يؤمن بالقدر، أو بقوّة خفيّة توجه المصائر وتصنع الموت وتسيّر خطوات الضحايا. زميله في الجريدة، وكان له أخ يسكن في مدينة الثّورة البغداديّة، عند الرّصافة، وبدلاً من الذّهاب للصّلاة في مسجد من مساجد المنطقة ركب السّيارة ومضى إلى مسجد براثا في منطقة الكرخ، ثمّ في اللحظة ذاتها التي دخل فيها المسجد يفجّر انتحاريّ نفسه بين الدّاخلين، وكان يتزيّن بزي امرأة ويرتدي حزاماً ناسفاً، ويكون أخ ذلك الزّميل من بين الضّحايا.

لماذا ترك مساجد مدينة الثّورة كلّها واجتاز مسافة تُقدّر بعشرة كيلومترات للوصول إلى جامع براثا، لكي يشارك في وليمة الموت تلك؟ فوق هذا وذاك لا يعرف عن الرّجل صفة التّديّن أو الالتّزام بصلاة الجمعة. والصّديق الذي غاب عن العمل أسبوعاً كاملاً لم يجد جواباً

لأسئلته تلك. وذلك الشّاب الفلسطينيّ الذي يقطن في منطقة البلديات، لقد خرج من صلاة العشاء في الجامع القريب على سكنه وصادف أن كانت الكهرباء مقطوعة عن الرّصافة كلها، فما كان منه إلّا أن أخرج قداحته الغازيّة وأضاء مصباحها الصّغير الذي أدخل حديثاً في تصميم القداحات، واستوردها التّجّار بعد الاحتلال الأمريكيّ. أضاء مصباح الليزر ليستدلّ على طريقه في ليلة مظلمة. وبالصّدفة المحضة مرّت دوريّة أمريكيّة تجوب شوارع منطقة البلديات، وكانت تتعقّب المتمرّدين الذين يهاجمون قوّاتها ليلاً بعض الأحيان، وهم عادة من تابعي جيش المهدي أو القاعدة. شاهد القنّاص الجالس على سطح عربة الهمر ذلك الضوء الفوسفوريّ الغريب، فظنّه إشارة إلكترونيّة يطلقها سلاح قنّاص يتلطّى بين أمواج الظّلام، فوجّه له بندقيته وأرداه قتيلاً بطلقة واحدة. في تلك الأيّام صار أيّ شخص يحمل قداحة من ذلك النّوع، ويسير في طريق أو درب ناء، أو يجلس على سطح بيته، يتعرّض حتماً لقتل مباغت إذا ما سار بها ليلاً أو وجهها إلى مروحيّة في السّماء. الغرينغو هو الغرينغو، لا يهمّه مصير ضحاياه. فالرّصاصة القاتلة لا يمكن أن يخمّنها المرء من أيّ جهة قادمة. وجدّه الذي عاش مائة وعشر سنوات كما يؤكّد أبوه، لم يكن يخشى الخروج ليلاً، سواء كان حاملاً ضوءاً أم لم يكن. ذلك الوقت لم يكن فيه دوريات أمريكيّة، ولا تشكّلت فيه عصابات تقتل النّاس دون سبب واضح، فالمجتمع يعيش موته الطّبيعيّ الذي يتجاور مع الحياة. ويصدق عليه المثل القائل إنّهما وجهان لعملة واحدة.

الموت والحياة اليوم ليسا وجهان لعملة واحدة. إنّ الموت يغنّي على هواه، وكثيراً ما يسمعون غناءه في التّلال الشّماليّة، وسهول

الفرات، وعلى سفوح الجبال، وبين غابات القصب في الأهوار، وخلال أزقّة مدينة البصرة، ومحلّات منطقة العرصات، وبين دهاليز الشّورجة البغداديّة. ويسمعونه حتّى في السّماء عند الأفجار الهالة من الشّرق قبل أن يروا طيور القبّر المغنية من أجمات الحلفاء. الموت في وادٍ والحياة في وادٍ آخر. فالموت مثل الباشق ينقضّ فجأة بسرعة خاطفة وهذا أكثر ما يرعب النّاس. فهو يخرج من خلف الأشجار، ويسقط من السّماء، ويسير على قدمَين، ويسبح في نهرَي دجلة والفرات، ويتسلّق السّيّارات المسرعة، وتنفثه بنادق مجهولة. شبح ملثّم في أغلب الأحيان، دون دين أو طائفة، دون رائحة، مثل المياه الصّافية المقطّرة، يستعصي على الشّم. فقبل أن يفجّر الانتحاريّ سيّارته (البيك أب) المحمّلة بأكياس الطّحين، في سوق مدينة سنجار الواقعة بين الجبال الشّماليّة، ركمها صباحاً وسط السّوق، ثمّ صار ينادي على بضاعته، وهي الطّحين الرّخيص بنصف السّعر. تجمّع النّاس على ندائه المغري، نظر الرّجل بوجه مبتسم إلى هذه الحشود، الذّاهبة بعد دقائق إلى جهنّم حسب قناعته، فهم يزيديون يعبدون الشّيطان وأكراد مارقون، وهم ذبائح محلّلة للشّريعة، حسب الحديث والنّص القرآنيّ وحكمة شيوخ الشّريعة، الذين بثّوا الرّسالة القاتلة في عقله الذي يغلي دائماً من الغضب. مدّ المجاهد كفّه المشعرة إلى الصّاعق المختبئ تحت ملابسه، ثمّ بغتة تنطلق هبة مرعبة من الغبار الأبيض الذي كوّن مع الأجساد الطّائرة في الهواء مظلّة مرئيّة على بعد مئات الأمتار. ولم تلبث الصّور المتداولة سوى هنيهات حتّى رأتها عيون مليارات البشر فوق أديم الكرة الأرضيّة.

و(رسول) يتذكّر واحداً من المعلّقين البرازيليين على القناة الثّانية في ساوباولو، قال إنّ بعض الأجساد تحوّلت إلى أرغفة عملاقة، شبيهة بخبز الأكراد المخبوز على صاج حام فوق نار شجر البلوط الجبليّ، لكنّ تلك الأرغفة العملاقة ذات لون أحمر وليست بنيّة كما هي أرغفة الأمّهات والجدّات. طبعاً مضى ذلك الانتحاريّ قدماً إلى جنّة الخلد، وقيل فيما بعد إنّه تناول عشاءه مع الرسول وصحبه وآل بيته. ولم يكن يطمح سوى إلى ذلك. ومن صبر ظفر ونال مبتغاه. مثال آخر. هذه المرّة ليس من مدينة سنجار بل من محلّة الدّورة التي تقع جنوب بغداد في منطقة الكرخ، ولا يمكن الوصول إليها إلّا بعد اجتياز واحد من جسور بغداد. عمال البلدية في منطقة الدّورة جلسوا صباحاً يحتسون الشّاي تحت شجرة صفصاف وارفة، وكانوا يرقبون السّيارات المارّة في الشّارع عن يمين وعن شمال، ويدخّنون السّجائر المستوردة ويثرثرون عن كلّ شيء: عن الأمريكان والرّواتب والدّولار والسّيّارات المستوردة، وسنوات الرّئيس القائد، وقد انتهوا من زراعة شتلات أشجار الدّفلى لتزيين الجزرات الوسطيّة وسواقيها، وحدث المشهد قبل طلوع الشّمس من خلف النّخيل البعيدة. ولبثوا دقائق في صمت عميق يتملّون في واجهة الدّير الضّخم القريب من الشّارع. كذلك انتهوا من تجميع أكياس النّايلون وكانوا يستعدّون بعد قليل لحرقها. حنفيّة الماء وجهوها نحو فسائل النّخيل الصّغيرة، واستمرّوا في حديث متواصل عن زيادة الرّواتب هذه المرّة، وعن الصّيف الحارّ القادم في كلّ سنة منذ فجر الخليقة، والكهرباء الغائبة. بالكاد سمعوا صوت الرّجل الملثّم الذي أطلّ من نافذة سيّارته وهو يوجّه الرّشاش الصّغير إليهم. صاح عليهم بغضب: هل تنظّفون الشّوارع للأمريكان أيّها الكلاب؟ لماذا لا تجاهدون الكفرة؟ ثمّ فتح الرّصاص الحارّ،

واختلط دم الشّباب مع الشّاي، واختلط الخبز مع الغبار الذي تطاير من الرّصيف، فيما سقطت وريقات من شجرة الصّفصاف لتستقرّ على الجثث المتحرّكة المفتوحة الأعين على سماء بغداد المتربة.

واكتشف العقلاء، وهم قلّة على أيّة حال، أنّ هناك زوايا مظلمة في مجتمعهم تخمّر لديها الحقد والكره والثأر حتّى وصل إلى درجات خطرة. شرائح من البشر يحرّكها حقدها على الحياة أكثر ما يحرّكها العقل والمنطق والتّسامح، وهي ترغب في مواجهة الموت في كلّ دقيقة وساعة ويوم إذا ما أشبعت تلك الدّهاليز المظلمة بالجثث والدّماء. لذلك تنشر الموت حولها أينما تحرّكت، ويخاف منها حتّى الموت الرّحيم الذي ألفوه وألفهم طوال قرون ماضية. لقد عقدت حلفاً مع الموت الشّيطانيّ، الموت الذي لم تمرّ به البشريّة سوى في عهودها المظلمة، عهود بربريتها وحيوانيتها، وتلك التّحوّلات الضّخمة التي تغيّر التّاريخ لقرون قادمات.

***

نعم، سمّاه (رسول) في ذهنه الشّاعريّ بـ(الموت الشّيطانيّ)، وهو اليوم يذرع الشّوارع والمدن بحريّة، مستجلباً معه أحقاداً تاريخيّة، مذهبيّة وطائفيّة وقوميّة، بل وعشائريّة اعتُبرت ذات يوم من مخلّفات العهود البائدة. يستخدم الموت الشّيطانيّ وباعته وسماسرته آخر ما توصّلت له التّكنولوجيا، فهل يتصوّر أحد أن تصل البربريّة لدى شخص ما أن يفخّخ طفلاً رضيعاً ويدسّه بين سيّارات الجيش والشّرطة لكي يفجّره عبر الهاتف الجوّال؟ أو طفلاً معوقاً ليستخدمه للفعل ذاته؟ وهل تخيّل زبائن مطعم قدوري، وهو مطعم مشهور يقع على شواطئ دجلة قرب تمثال أبي نؤاس، أنّ شخصاً يجلس في

الثّامنة صباحاً على الطّاولة المجاورة، ويفطر بلذّة، ثمّ قبل أن يدفع حسابه يقوم بتفجير حزامه النّاسف على الجالسين؟ بربر (رسول) وقتها غاضباً، في الثّامنة صباحاً يا ابن الكلب، من أيّ مرحاض غائطيّ خرجت أيّها النّغل، هكذا قال لزميله المصحّح وهو يتصفّح الخبر في الشّاشة، الخبر الذي سرعان ما تداولته وكالة الأنباء الفرنسيّة على شابكة الإنترنت. ذلك شريط قصير من الموت الشّيطانيّ الذي يُعرض في سينما الواقع هنا. شريط يجبر الجميع على مشاهدته، الشّيوخ والنّساء والشّباب والأطفال، الغربان والنّوارس، البقر والمارينز، الشّرطة وقطاع الطّرق، النّجوم ومصابيح الكهرباء شحيحة الضّوء. حتّى اتصالات البشر فيما بينهم طالها تلوث الأزمان البغيضة تلك. أمّا إذا جاء الفرد اتصال تلفونيّ في وقت مبكّر أو متأخّر فهو يحسب على أنّه يزفّ الشّؤم والفجيعة، فلا أحد ينتظر ما يسرّ.

كان زميله في العمل بتلك الجريدة ما أن يرى اسم أخيه على شاشة التّلفون الصّغير حتّى يستعيذ بالشّيطان، وتدور عيناه وتموت الابتسامة على شفتَيه، ثمّ يسأله برعب يظهر بصوته ويستولي على أعضاء جسده كافّة: تكلّمْ. من قتل؟ ماذا جرى؟ ولا يهدأ بال الزّميل حتّى يعرف أنّ اتصال أخيه لا علاقة له بالكوارث. أجهزة الجوّال تحوّلت إلى أدوات فوريّة للاطمئنان على الأولاد والزّوجات والتّلاميذ الذّاهبين إلى مدارسهم، وهذا ما كان يجري مع زوجته (براء)، تتصل به ثلاث مرّات على جهازه، الأولى بعد أن يصل بدقائق، ثمّ ظهراً قبل مغادرته الجريدة، وعصراً ما أن يصل الفندق. وتلك حالة الجميع تقريباً. ما أن يحدث انفجار في بغداد حتّى يتصاعد الضّغط على شبكات الاتصال أضعافاً مضاعفة. الجميع يطمئن على الجميع، ويتضخّم الموت الشّيطانيّ حتّى يلفّ

الشّرق والغرب، الشّمال والجنوب. وكلّ واحد يتخيّل نفسه وقد أصبح جثّة مجهولة الهويّة، مثل تلك الجثث التي تكتشف يوميّاً قرب مصارف المياه الثّقيلة، وأجراف الأنهار، والمزابل البعيدة خارج المدن والبنايات المهجورة. ذاك زمن تحوّلت فيه المدن إلى إسفنجة عملاقة تمتصّ الأمل من أرواح الجميع. مع كلّ ذلك، هو اليوم يعيش عالماً من اختراعه، وعلى من يقرأ ذلك العالم الغريب، أو يسمعه، عليه أن يتقبّله، أو يرفضه، أليس على أيّ شاعر أن يخترع عالمه الخاصّ مهما كان غريباً، وخياليّاً، وغير مترابط؟ لكنّه لا يستسلم لوشوشات ذلك الشّيطان، وقرينه الموت، وتلك القصص والخيالات المسرعة كما لو أنّها سيّارة شبحيّة طائرة في السّماء.

في العقدَين الأخيرَين أصبحت السّرعة عنواناً للحياة، وصار الفرد يشعر كما لو كان راكباً في كبسولة فضائيّة تمضي إلى المجهول. سرعان ما تعود الصّور أمامه كما لو أنّها تُبثّ على شاشة سينمائيّة. احتاج إلى ست سنوات كي يقتنع بأنّه ينبغي عليه الخروج من عزلة القرية، وعزلة المدينة لاحقاً. خرج منهما شاعراً في النّهاية. علّمه أستاذه عروض الشّعر وقال له: اكتب يا بني، الشّعر ممارسة، ثقافة، إلهام، وأنت تمتلك كلّ ذلك ما عدا التّجربة، وانتقالك إلى العاصمة سيزوّدك بتجارب هائلة وبهذا تكتمل لديك عدّة الشّاعر. لن ينسى ذلك القول طوال حياته. وضعه نصب عينيه حتّى في أحلك سنوات الحروب التّالية.

ست سنوات عرف فيها الكثير، وجرّب الكثير، وكانت السّنوات الأولى هي الأصعب.

***

اشترى أبوه البيت على أطراف المدينة، خلف معسكر المستودع، في منطقة شبه رعويّة، لم تصلها الكهرباء بعد. منطقة موحشة لشاعر واعد، ليله دامس مليء بالكوابيس. وسلّمهما أبوه، هو وفؤاد، المفتاح. وقال لهما ادرسا وعيشا هنا في المدينة. كلا الحجارة وادرسا، المستقبل أمامكما، وأنا لن أعمر طويلاً ولن أدوم إلى الأبد. شدّد على أنّه لا يطلب منهما سوى النّجاح. وبغداد في الانتظار. عاد أبوه بعد انتهاء عمله في معمل الزّجاج، وأمّه، إلى القرية وتركا لهما، المكتبة المركزيّة، والمدرسة، والمقاهي، والسّينما الوحيدة في المدينة، والجوامع، والصّحافة. وشوارع مدينة لا رقيب فيها عليهما.

منذ أن لفظته أمّه إلى الوجود في تلك الغرفة الطّينيّة المعتمة وهو يسبح في الخيالات، والتّوق نحو عوالم ساحرة مجهولة لا يعرف ما هي. وجدها أخيراً في الكتب. في النّهاية هو محظوظ لأنّه من النّاس الذين يحبّون الكتب. اليوم يقرّ ويعترف بأنّ قراءة الكتاب لا تقتصر على المعرفة فقط، بل هي متعة للرّوح، وملتجأ للشّخص حين يفقد الأمل بواقعه، أو حين يداهمه اليأس من إيقاع الحياة اليوميّة الرّتيب. لا كما يوسوس ذلك الوجه المرعب، وجه الشّيطان الذي يفاجئه في لحظات لا يتصوّرها، ويحشو رأسه بدخّان اليأس والعبث. يعرض عليه أدقّ المساوئ. صراحته فجّة بعض الأحيان. لكنّها صراحة فجّة لمجتمع فجّ هو الآخر، وهذا ما يتفق حوله مع الشّيطان.

كان، ومنذ أن شارف على المراهقة، مولعاً بقراءة الكتب. كتب متنوّعة في القصص الخرافيّة، والرّوايات البسيطة، والأساطير، وقد كانت القراءة رحلة ساحرة، ومغامرة مجهولة تأخذه نحو عوالم

خياليّة، ملوّنة، بعيداً عن الحياة اليوميّة الجافّة. كان ذلك هواية في البدء، قادته إلى محاولة الكتابة، وقد بدأت بالقصص، وأحياناً بقصائد شعريّة ساذجة. هذا التّزامن بين القراءة والكتابة، هو ما دفعه، يوماً بعد آخر، للتّمييز بين الكتاب الجيّد والكتاب الرّديء. بين الكتاب الجيّد المفيد لتجربته، وبين الكتاب الجيّد لكنّه لا يساعده في تطوير عدّته الكتابيّة. اكتشف وجود كتب أساسيّة في الثّقافة البشريّة لا بدّ للمرء من قراءتها. ولاحقاً في الكليّة، أخبرهم أستاذهم النّاقد عناد غزوان بتلك الكتب المؤسّسة للثّقافة البشريّة مثل: الإلياذة والأوديسة لهوميروس، والكتب المقدّسة، والمعلّقات الشّعريّة، وكتاب سيبويه في النّحو، وكتب الجاحظ، وروايات ديستويفسكي، والدّون كيخوتة، وشعر المتنبي، وغيرها الكثير ممّا لم يعد يتذكّرها. والمثقّف الجادّ عليه أن يقرأ كلّ شيء، أو يحاول على الأقلّ. اليوم وبعد هذه التّجربة الحياتيّة، والإبداعيّة، أصبح يعرف تماماً الكتاب الذي يندفع لقراءته، وهو الكتاب المطلوب لتطوير وتوسيع وتعميق النّص الشّعريّ الذي يكتبه.

واكتشف، بعد امتلاكه الأساس الرّصين للمعرفة، أنّ هناك كتباً لا بدّ له من الالتفات لها وقراءتها. على صعيد الرّؤية الفلسفيّة للوجود البشريّ في هذه الأرض صار يهتمّ بالاكتشافات الفضائيّة، ونظريّات المادّة الكونيّة، ومستقبل السّفر نحو الفضاء، وما إلى ذلك. وبدأت كتب التّاريخ تستولي على فضوله أيضاً، فقرأ من فترة قصيرة، قبل إصابته بالكورونا وشلله لاحقاً، ما يخصّ تاريخ العراق، بالذّات كتاب «العراق بين احتلالين» لعباس العزاوي. أي منذ سقوط بغداد على يد هولاكو وحتّى الاحتلال الإنكليزيّ في الحرب العالميّة الأولى، وجاء

بثمانية أجزاء، وقد اقترحه عليه صديقه (هاتف) بعد أن حضرا أمسية لمحمود درويش في المكتبة الوطنيّة، بباب المعظم، وكان درويش مدعوّاً لمهرجان المربد. يوماً ما فكّر بتأليف كتاب على المنوال ذاته يسمّيه بغداد في قبضة الاحتلال الأمريكيّ. سيتكلّم فيه عن كلّ شيء. خاصّة وهي فترة عاشها بعمق واكتوى بنارها. كما ظلّ، طبعاً، دائباً على قراءة الرّوايات، وراح يتابع ما ينتجه الكتّاب، لمعرفة أين وصلوا بتقنية الكتابة، وهي ضروريّة لأيّ كاتب حتّى لو لم يجد النّموذج الجيّد. صار الكتاب يستغرق نصف وقته اليوميّ، وهو بعد أن تقاعد، وقبل أن يصاب بالجلطة الدّماغيّة التي شلّته، كان متفرّغاً للقراءة والكتابة. يتنقّل بين بساتين الكتب مثل نحلة في الرّبيع، وجاءت المكتبة الإلكترونيّة العالميّة للـ(PDF) لتفتح أفقاً إضافيّاً ليجد القارئ كلّ ما يودّ قراءته. وهي لمن يمتلك الوقت نعمة سماويّة لجيلهم هذا، جيل الألفيّة الثّالثة.

أجل، ينبغي الاعتراف بكلّ شيء. ينبغي التّحرّي من الوساوس، والرّغبات، والطّموحات الكبيرة، وإلّا سيصطدم رأس المرء بجدار من الفخار السّومريّ.

وقد شكّلت له زيارة المكتبة العامّة صدمة بصريّة وثقافيّة، وفتحت له عالم الخيال الذي أخرجه من رحم القرية، رحم العزلة، رحم أمّه المعتم الذي غادره في ليلة مظلمة. مضى عليهما حوالي سنة هو وفؤاد في ذلك البيت حين طلب منهم مدرّس اللغة العربيّة الأستاذ طلال سالم أن يتجهّز الصّف لزيارة المكتبة المركزيّة. لا بدّ أن يمضي الجميع مشياً، من المدرسة الكائنة في مدخل المدينة حتّى المركز، وطبعاً كان المركز، كما يعرف الطّلبة، هو جامع الشّيخ

عبد الجليل. ذلك الجامع الذي تقابله بناية السّينما. كان البناء أعجوبة له، هو القادم من القرية البائسة القائمة على حافة الصّحراء. حين دخلوا مركز المدينة، وتجاوزوا الجامع، وصلوا إلى مدخل يجذب الأبصار من بعد عشرات الأمتار. كانت هناك قباب في الواجهة، مثل ضريح مقدّس. ثلاث قباب الوسطى تظلّل المدخل وهي الأكبر والأبرز، والاثنتان على جانبيها بحجم أصغر، وهذا ما جعل لواجهة المكتبة صورة لا يمكن نسيانها. لم ينسها رغم مرور عشرات السّنين، ورغم اندثارها بعد أن خرّبتها داعش وأتلفتها هي وكتبها حين زنّرتها بعنقود من الدّيناميت. وسُمع الانفجار على بعد عشرات الكيلومترات، وكان ذلك بعد أن ذُبح ذلك الشّرطي المسكين وخيّط على رقبته رأس كلب. ولكن ذلك حدث بعد أكثر من خمسين سنة على زيارتهم لها بقيادة أستاذ اللغة العربيّة طلال سالم القادم من مدينة حديثة.

وجدوا القاعات مكتظّة بالكتب، وجلسوا في القاعة المطلّة على الحديقة، ولبثوا صامتين مدهوشين، تحيط بهم أنواع غريبة من الكتب، سميكة، نحيلة، ملوّنة الأغلفة، داكنة، مزخرفة، وجلس الأستاذ طلال على رأس الطّاولة البنيّة ناعمة السّطح، وبدأ بإلقاء محاضرة لم ينسها أبداً: اقرؤوا، كرّرها ثلاثاً، القراءة هي التي تدوم. تحوّل الفرد الجاهل، مضطرب الرّأي والبصيرة إلى إنسان. اقرؤوا، لا تسمعوا كلام آبائكم وأجدادكم الأمّيين الفلّاحين البدويين، فمعظم البشريّة تعيش مثلما تعيش الحمير والبغال والجمال. تأكل وتتبرز وتتزاوج كأيّ ضفدعة في مستنقع، كأيّ بعوضتَين مختبئتَين تحت ساق حلفاء جافّة. لكن ما سيميّزكم عن تلك البهائم والحشرات هو قراءة الكتب.

وهل يستطيع أحد مقاطعة الأستاذ طلال؟ كلّا، لا أحد، رغم إنّهم وجدوا آراء الأستاذ طلال جريئة وطريفة في الوقت نفسه، حتّى إنّها أشاعت شيئاً من المرح بينهم، إلّا أنّ (رسول) حين يتذكّرها لاحقاً، بعد سنوات النّضج ومعرفة كيف يفكّر المجتمع، وجد أنّ مقولاته وآراءه كانت جريئة أكثر من اللازم، واستغرب أنّها لم تقده إلى الهلاك.

ثمّ يعدّل نظارته ويواصل كلامه: انظروا إلى هذه الرّفوف، بعض من مؤلّفيها مضى على موته مئات السّنين، وقل آلاف، لكنّه حاضر هناك يتأمّلنا من بين كلماته ويضحك، أو ربّما يبتسم. هذا هو الجاحظ، أيقونة لغتنا وقد رفع تفاصيل حياة البشر اليوميّة وحوّلها إلى كلمات. رأى البخيل ببصيرة نافذة، وسمع مناظرات السّود والحمر والبيض، والمفاضلة بينهم. وهذا أبو حيّان، يا بقر، اقرؤوا لمن أحرق كتبه في نهاية العمر، قرفاً من الحكّام أولاً، وتفاهة البشر الذين وجدهم لا يطاقون كلّما اقترب منهم المرء أكثر ممّا يجب. وهناك النّبي جبران خليل جبران يضيء للبشر ظلمات وعيهم وغرائزهم، ويحلّق بهم نحو سماء النّبوءات والأرواح الشّفيفة مثل غيمة ربيعيّة ملوّنة بقوس قزح. أمّا من يقول لكم اكتفوا بصورة الحمد، وقل هو الله أحد، والبقرة، فلا تردّوا عليه. الحياة اليوم معقّدة وتحتاج إلى ثقافة. اقرؤوا عن النّحل، والماء، والغيوم، والرّومان، والفرس، وآينشتاين، وجان جاك روسو. هل تعرفون جان جاك روسو؟ طبعاً لا تعرفون. فأنتم تعيشون في بئر، في ساقية عفنة، في مستنقع، وتعتقدون أنّ الدّنيا كلّها مجتمعة في ذلك القمع المحفور في الأرض. الدّنيا أوسع. اقرؤوا الفلسفة والتّاريخ والرّوايات والشّعر. وعليكم بالشّعر. جدّكم المتنبي لم يدع كلمة إلّا

ونسجها في قصيدة من قصائده، أمّا ذلك الأعمى المنتسب إلى معرّة النّعمان، وهي مدينة في سورية، فعليكم به، فهو الملحد الأكبر في تاريخنا، رغم أنّه أعمى. ألم يقل: هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح/ يا ليت شعري ما الصّحيح؟ تفكّروا في قوله، لا إمام سوى العقل، الله، الله، لذلك الأعمى، جدّكم الشّامي أبو العلاء المعري. واقرؤوا ألف ليلة وليلة، يا بقر، يا ديدان الفرات، يا حثالات الأزقّة وشحّاذيها. البشرية تحلم في هذه القصص وتحاول قراءة ما وراء الواقع. الإنسان الحقيقيّ هو من يقرأ رموز ما وراء الواقع، لا تنسوا ذلك. من الآن فصاعداً عدوني أنّكم ستأتون إلى هذا البناء الجميل للقراءة، تأتون كي تتسلّقوا طريق التّوحش للوصول إلى سواحل الحضارة الزّاهية. القراءة هي المرقى، هي السّلّم، وهي الدّليل، ولا أحد يكذب عليكم بوجود طريق آخر. كذب الظّنّ، لا إمام سوى العقل.

وكان (رسول) في نهاية تلك المحاضرة السّحريّة ينظر وقتها إلى خارج المكتبة عبر النّافذة التي تنفتح على أفق الخريف الرّطب، حيث يمكن رؤية شتلات الورد وأشجار اليوكالبتوس والآس المقصوص بطريقة فنية، وكلّ تلك الممرّات الضّيّقة التي أُنشئت في الحديقة وحوّلتها إلى لوحة فنيّة ساحرة. وبدأ يحلم بالسّفر، برؤية مدن أخرى، بكتابة القصائد مثل المتنبي، مثل امرئ القيس والبحتري وعنترة العبسي وأبي نوّاس.

بعد تلك المحاضرة، بأسابيع، وفيما كان هو وفؤاد، يخافان النّوم في الفناء الخارجيّ فيلبثان في الغرفة رغم الحرّ، وفؤاد يستلقي على سريره الحديديّ جنب الباب المغلق، رأى حلمه الغريب الذي سمّاه فيما بعد بحلمه السّحري، لأنّه فكر كثيراً قبل النّوم في كلام

أستاذه طلال الذي أسمعه لهم في المكتبة. جدوى الحياة هي الوصول للمعرفة. هو استخدام العقل للتّفكير والتّأمل. فوجد نفسه تطير في سماء المدينة. رأى الجسر ببواباته الفائرة بالمياه، ومداخن معمل الزّجاج، وقمّة تلّة المشيهد التي يرقد على ذروتها الشّيخ مبارك. وانفتحت تحت عينيه شوارع هذه المدينة التي كم تاق للمشي فيها، وتناول الكباب في مطاعمها، ورؤية أفلام الكاوبوي في سينماها الوحيدة، المنتصبة مقابل جامع الشّيخ عبد الجليل.

وأصبح مبنى المكتبة المقبّب واحداً من ركائز أيامه البطيئة في المدينة.

وكان خازن المكتبة محمّد عبد الجبار، بربطة العنق الأنيقة، وبدلته الرّماديّة يجلس في غرفته الواسعة، عند المدخل، عادة ما كان يقرأ مجلّداً سميكاً من خزائنه الغاصّة بالكتب. لم يبخل عليه بنصيحة وهو يراه في أروقة المكتبة شابّاً متحمّساً يفتّش عن كتاب ما ليستعيره. كان يقول له في كلّ زيارة: يا بني قل فقط اسم الكتاب الذي ترغب في استعارته، وأنا أحضره لك فوراً. يقولها مع ابتسامة متسامحة ترفع الكلفة بينهماً بشكل تلقائيّ: لقد عشت بين دهاليز هذه المكتبة أكثر من عشرين سنة، وأعرف كتب الشّعر في أيّ قاعة، وأعرف كتب القصص المترجمة، والتّاريخ، والكتب العربيّة والنّقد. بنيت هذه العمارة من العقول لبنة، ثمّ لبنة، وسهرت على نظافتها وترتيب كتبها كما لو كنّ أطفالي وعائلتي، وعشيقاتي وجواريي ومعبوداتي. ومن وحي تلك الذّكريات هذه القصيدة التي كتبها بعد عشرين سنة على أوّل زيارة له لتلك المكتبة ذات القباب الزّرق. كتبها أثناء جلوسه وحيداً في الغرفة الواقعة في منطقة

الكرنتينة القريبة من باب المعظم، حين كان يدرس اللغة العربيّة في الجامعة: يقول لي الفقيهُ أأنت تشربْ؟؟؟/ فقلتُ نعم فقال بأيّ مذهبْ؟؟/ فقلتُ على المذاهب دون فرقٍ/ ولكنّ النّواسيّ المقرّبْ.

كانت مدينته جافّة، ومن دون كتب فيها يحسّ المرء كما لو أنّه يقطن في مقبرة. يعرف المقبرة، المقبرة المجاورة للمستودع. صحيح أنّه لم يطبع كتاباً في حياته لكنّه يعرفهم واحداً واحداً، أجداده العظام الذين ناجاهم آلاف الليالي صاحياً أو سكران. المتنبي المتكبّر، عنترة المقاتل، السّيّاب المصاب بمرض السّلّ، الجواهريّ المطعون بموت أخيه جعفر، فيكتور هوغو الذي يعشق باريس، وأحدب نوتردام المشرّد، شكسبير شيخ مسرحيي لندن، وصاحب مسرحيّة تيمون الإثيني. طه حسين الشّكّاك، جبران خليل جبران الرّومانسيّ الذي أراد أن يتوّج نبيّاً جديداً لشرق متخلّف. ومن الكتّاب الذين جمع رواياتهم في ركن يقع جنب المدخل: نجيب محفوظ، ابن القاهرة وتقلّباتها، وهو يشبه العراقيّ غائب طعمة فرمان الذي عاش في حارات باب الشّيخ، والشّورجة، وأبي سيفين، وشارع الكفاح ثمّ يمّم روحه صوب بلاد الرّوس ومات هناك. إذا أراد الواحد معرفة الأدب الجاهليّ فليقرأ الزّوزني في كتابه شرح المعلّقات. وعليه بأبي حيان التّوحيدي. ولا يفوتنه ابن المقفع. وليس عليه إن أراد كتابة الشّعر إلّا قراءة ألفية ابن مالك. نعم، هؤلاء الأعلام كلّهم يعرفهم، ويشعر وكأنّهم أصدقاؤه. يحسّ بهم يحدّقون به حين يجلس على كرسيّه في تلك المكتبة، وحيداً إلّا من خازنها محمّد عبد الجبّار.

وكم هو حزين ذلك الجوّ حين تخلو القاعات من القرّاء؟ خاصّة في الصّيف حين تغدو السّماء شعلة صفراء من الحرارة، وحين

يذوب الأسفلت تحت القدمين، وتلتجئ الثّعالب إلى أقرب أجمة حلفاء. مدينة لا تقرأ في الحقيقة. وما أسوأ مدينة لا تقرأ وينشغل أبناؤها بالطّعام، والقيل والقال، وبطولات العشائر الكاذبة، وخطب الجمعة المكرورة التي لا تغني ولا تسمن. إنّهم أنبوبة كما يصفهم الأستاذ طلال: فم ومخرج، ويمكن إضافة القضيب، وربّما الفرج. وخلال خمس سنوات، وبسبب لوثة القراءة في تلك المكتبة ذات الواجهة العباسيّة المزخرفة، عاش سنوات متواصلة من حلم يقظة طويل. حلم طالما عاشه البعض في أروقة المدرسة، وفي الليالي التي كانوا يجلسون فيها في مقاهي المدينة مع الأصدقاء، ورائحة الشّاي بالهيل تدوّم في فضاء المقهى. في تلك السّنة رأى باهيا البرازيليّة مع جورج أمادو، وسبح بنهر السّين برفقة فيكتور هوغو، وتنشق زهور داغستان مع شاعرها (رسول حمزاتوف)، وشرب الجعة في بارات بطرسبيرغ مع ديستويفسكي، ونام على أرصفة ميناء اللاذقية بصحبة حنّا مينة، وركب الحنطور سوية مع سليمة الخبازة في روايات غائب طعمة فرمان، وبكى على سقوط المطر مع بدر شاكر السّيّاب، وروّعته أجاثا كريستي بمشاهد الرّعب في قطار الشّرق السّريع. وداخله الخوف والتّوج والعجب من نبوءات نوستراداموس، وراح يسأل نفسك بنفاد صبر: كيف تنتهي من دراستك في هذه المدينة المغبّرة الجافّة الذّكوريّة كي تنتقل إلى الجامعة، إلى الكليّة التي يختلط فيها الشّباب مع الفتيات؟ الحبّ، وعطور النّساء، والعيون الصّريحة الملوّنة بالكحل الأنثويّ؟ وكان يحلم بالحانات على غرار ما قرأ في روايات فيكتور هوغو وجون شتاينبك وتولستوي، والسّيّدات الأنيقات في شارع النّهر، وتكايا

الدّراويش عند مرقد عبد القادر الكيلاني. وكان أبوه يحدّثه عن كراماته وأعاجيبه، ويسمّيه أبا القبقاب، لأنّه قذف قبقابه من بغداد ليصيب به كافراً شتمه في الهند وسفّه معجزاته. حلم طويل امتدّ سنوات ست من السّهر، والضّياع، والقراءة، والقلق. لكنّه حلم كان يعيده إلى الكتب، إلى تلك المكتبة ذات الزّخارف الخارجيّة التي تشبه زخارف الجوامع. لم يبقَ شارع في مدينتهم إلّا ومشاه، ولا فتاة تسير نحو مدرستها إلّا وحلم بعينيها المكحّلتَين، وجيدها المخفي وراء العباءة، وجسدها المسحور وهو يلتفّ بالقماش والأستار. نعم، لا يخفي حقيقة ما عاشه في تلك السّنوات. لقد جلس في مقاهٍ ضاجّة بلعبة الدّومينو، والطّاولة، ووشوشة التّلفزيون المركون عادة في زاوية من زوايا المقهى، وشمّ عفن بقايا مقصبتهم التي تتوسّط المدينة ولا تعدم الكلاب السّائبة، وكثيراً ما صادف أنّه رأى النّساء الفقيرات في الصّباح يستجدين العظام مجرودة اللحم، وكان القصّابون يركمونها في زاوية بعيدة عن الباب، ويهدونها لتلكم النّساء حسنة وعطفاً كي يصنعن منها حساء للعائلة. كما سحرت بصره ألوان الخضار والفواكه في سوق المخضرّ، وألوان القماش في سوق البزّازين، وشمّ القرنفل وحبّ المحلب والبخور والبهارات والطّيب، في محلّات تبيع البهارات في شارع السّينما، وبقي يحلم بعد ذلك في مدن بعيدة لا يعرف سوى أسمائها: بغداد، البصرة، السّليمانية، الحلّة، ومن ثمّ بيروت والقاهرة، وبعدها باريس ولندن وروما وغابات الأمازون ومدن الصّفيح في ريو دي جانيرو وسان باولو.

ولأنّه لم يبرح المدينة وجد أنّ خير ما يقوم به، كي يهرب من حياته الجافّة، هو قراءة الكتب.

كتب من ورق، كتب من حبر، كتب من هواء وخيالات مجنّحة. كتب ضوء، وعتمة، وكتب ملوّنة، كتب عشق، وألم، وحب، وغدر. كتب لؤم، وكرم، وكتب بقدر الهواجس التي تلمّ بقلب إنسان، إنسان مثله. إنسان خرج من شرنقة سعف النّخيل إلى شوارع مكتظّة بالذّباب في الصّيف والقمامة في الشّتاء. كان ذلك اكتشافاً هائلاً لعقله الصّغير. ليال خلت، وسنوات أصبحت شاحبة خلف طيّات الماضي الرّهيب، والعمر الذي يتناقص ليلة بعد ليلة.

يا (رسول)، يا (رسول)، كلّنا جو يا (رسول)، قبل كم من العقود الزّمنيّة حدث الأمر؟ الحياة تمضي حوله مثل عربة مندفعة بين الكواكب وانتبه إلى أنّه كان يجلس في سريره على ضوء شاحب لمصباح سحبه أبوه من كهرباء الشّارع. سريره حديديّ في غرفتهما، وعلى ذلك الضوء الشّحيح تنام بيوت الجيران ويحلّ الصّمت في شارعهم، وكان يسمع أصواتاً بعيدة، لسيّارات ليليّة، من حي ما من أحياء المدينة، فيخمّن أنّها قادمة من حي الإسكان، وحي المعدان مربّي الجاموس في أطراف المدينة، وحي المعلّمين القريب من بيتهم، وسرعان ما تغيب تلك الأصوات، وفؤاد ينام في سريره، وهو يغوص في صفحات أبي فرج الأصفهانيّ، وشكوك أبي حيان التّوحيديّ، وغرائب أبي عثمان عمرو الجاحظ الذي يعتبره معلّمه وأستاذه، وهو المعلّم الأبديّ الذي وُلد قبل زمنه بألف عام. آه لذلك البيت، تحسّر في بقعة من روحه على ذلك الزّمن. الزّمن الذي سبق سقوط الموت الشّيطانيّ على المدن والحقول والجبال والأهوار. لا ينسى أبداً مؤونته من الكتب، يستعيرها من المكتبة، ويسلّمها له الخازن محمّد عبد الجبّار بابتسامة عريضة وكأنّه يقول: لم يذهب جهدي سدى، ويحملها إلى

بيت عمّه فاضل. عادة ما يجد عمّه ينتظره في الفسحة الواسعة أمام الباب. يجد عينيه قلقتين، ووجهه جادّاً، ناشفاً من التّعابير. يقف مدخّناً سيجارته وعادة ما يضعها في مشرب من الخشب طويل، مقتدياً بجدّه ربّما. وكان كلّما عتق يقصّ له واحداً جديداً من خشب الصّفصاف. الصّفصاف النّامي على طول السّاقية القادمة من النّهر بمحاذاة بيتهم، ويثقبه بسيخ ساخن، وهذا يجري كلّ سنتين تقريباً لأنّ عمه مدخّن مشهور في القرية، يدخّن حوالي خمسين سيجارة كان يلفّها بيديه. يقف عصر الخميس جنب تنور الخبز الخاصّ ببيت أبيه وبيت عمّه، وهو ينتصب عند الفسحة الواقعة أمام بيته ببابه الخشبيّ المشقّق. المتعة التي كان يجدها في القرية طوال طفولته لم تعد موجودة، لذلك يقضي نهاره كلّه في القراءة. وفي بعض الليالي يركبه الشّيطان فيخرج ليلاً ويهيم في القرية. والشّعراء دائماً ما يهيمون في البراري، والحانات، والخيالات التي لم تكن تدرك كيف كانت تتجمّع في رأسه مثل سرب من الزّنابير. نعم تلك هي الحقيقة كما تخطر الآن في رأسه، يهيم مثل كائن تلبّسه جنّ. لذلك لا يستغرب ظهور شيطانه بأزيائه العجيبة. يوسوس مرّة، يقهقه مرّة، يحاوره مرّات وكأنّه فقيه، أو عالم متفلسف، يعرف كلّ مفردات هذا الوجود. وكان يجلس وحيداً على نهر الفرات يحدّق في المياه وهي تتسرّب بين براثن ظلام دامس، والضّفاف تغصّ بالأسرار والكائنات التي تطلق أصواتها غير عابئة بالموت والحياة، بالقلق والحزن والفرح، ولا النّجوم المتلاهثة في السّمت الأعلى.

وفي ليلة خريفيّة باردة بعض الشّيء تخيّل نفسه سمكة، وراح يغوص في ماء الفرات. غاص إلى القاع، العروق الميتة وبقايا الحلفاء

وهياكل السّرطانات الجافّة وخشب المراكب التي جلبها الإنكليز معهم في الحرب العالميّة الأولى. وهناك، وهو يجيل النّظر بعينيه السّمكيتَين رأى كلّ شيء: سلاحف النّهر نائمة في قاع طينيّ قريباً من الجرف، ورأى جذع نخلة قال عنه جدّه إنّه دفنه في الماء أيّام شبابه، وكانت هناك سرطانات تتصيّد فطورها، وكان هناك رفش الماء مستلقياً على ظهره، وأسراب من السّمك الصّغير تلهو في الطّبقات المائيّة ذات اللون الأصفر. ألفى نفسه سمكة خارج الزّمن. وظنّ أنّه عبر الخط الفاصل بين المملكة البشريّة والمملكة الحيوانيّة منذ تلك السّنين. صارت له لوامس، واستشعارات، وخياشيم، وعيون كثيرة، ونمت لديه رقائق صوتيّة على جلده. تهيّأ له أنّه راح يسمع كلّ نبرة، ويشمّ كلّ رائحة، ويرى كلّ صغير متناهي الصّغر. هل تحوّل إلى شاعر منذ تلك الليلة السّاحرة؟ لا يسمع صياح الدّيوك وهي تنادي سهارى منتصف الليل. وهناك ناي سحريّ يسمعه يتردّد بين القرى والمدن، وموسيقا قادمة من الشّمال الغربيّ، من هيت وحديثة وراوة ودير الزّور، وتلك موسيقا عبرت مئات السّنين وكأنّها روح الفرات الذي ذكرته كتب الدّين، والأساطير، والمرويات. وولّدت تلك الموسيقا لوثة في رأسه الصّغير، رأس السّمكة السّابحة في مياه الفرات مقابل قريتهم النّائمة. وأحسّ بأنّ الشّعر تيّار داخليّ مثل رؤية سمكة لما يحيطها. في تلك العطل إمّا أن يجلس في بيت عمّه يقرأ الكتب أو يخرج إلى الطّبيعة، وكان في داخله هاجس معرفة كلّ شيء، الطّيور وأنواعها في النّخيل والصّفصاف والغرب والتّين، والحشرات المندسّة في الذّرة، والقمح، وعلى ورق العنب والتّين والمشمش. الحشرات الطّائرة في الهواء كالبعوض والذّباب والنّحل والزّنابير، أو تلك الحشرات المندسّة في

التّراب. وكان عادة ما يعدّ قائمة في رأسه لأنواع الحيوانات في القرية كالحمير والخيول والبقر والماعز والغنم، وكذلك الحيوانات الضّارية مثل الضّباع والذّئاب والغرير والثعالب. وعرف بعد سنوات من تللك المغامرات البريّة أنّها من أوّليات وأساسيّات الشّعر. جعلت منه كائناً بريّاً لكنّه يحلم. مثلما يحلم الآن والطّريق المبلّط الذي يتقدّم شرقاً يسوق روحه وجسده نحو بغداد. رآها في الفضاء، وسمع أنين العجلات لسيّارات مسرعة نحو جسر الفلوجة، وطارد الغيوم وهي تسبح فوق بحيرة الحبانية، تغذّ السّير في السّماء مسافرة نحو الحلّة.

اختفى الشّبح، الذي تلبّس هيئة مكتبة، ومساءات قرويّة. اختفى وجعله، هو الآخر، يتلبّس روح سمكة تنام تحت مياه الفرات، ليلاً. وبينما كانت غيوم خفيفة تسبح في سماء العاصمة، غيوم التّلوّث المتصاعدة من آلاف مولّدات الكهرباء وهي تنفث دخّانها السّامّ في الأزقّة والسّاحات وفي فناء البيوت، وخرج من ذلك النّفق الزّمنيّ الطّويل وعاد إلى الواقع، وانتبه إلى السّيّارة المسرعة نحو طبيبه الجديد في منطقة الحارثيّة، وراقب (بشير) وهو يمتصّ سيجارته بنهم، ويفكّر ربما بالزّمن القادم الذي سيعيشه من دون أب، وسيرث مكتبته التي أحبّها، مثلما ورث عنه حبّ القراءة. ولطالما رآه يتسلّل إلى المكتبة ليستلّ كتاباً في اللغة أو الشّعر أو الرّواية، يحمله بخفّة ويصعد به إلى غرفته، الأمر الذي جعله يشعر بالفخر فعلاً. وكانت (براء) تنام، وخمّن أنّها تفكّر بأيّامهما القديمة حين كانا شابّين، يتجوّلان في أروقة الجامعة وينتظران خلوة لتبادل اللمس والحديث.

***

هناك، خلف النّافذة الزّجاجيّة، تسافر الغيوم ويراقبها تندفع نحو الجنوب، حيث تنتصب الجنائن المعلّقة التي شاهدت آلاف السّنين وهي تموت في حمأة رمال الجزيرة. وقد بدأ مشواره مع القراءة منذ تلك الزّيارة، وكان في الرّابع الثّانوي. أصبح زبوناً دائماً لتلك المكتبة.

قبل عشر سنوات تقريباً من احتضاره، احتضاره الوشيك الذي يعيشه، لا يهمّ إن كان في مجمع الحارثيّة الطّبيّ القريب من معرض بغداد الدّوليّ، أو في صالة البيت مسدلة السّتائر، أدرك كم تغيّرت مدنهم، وكم تغيّروا معها، وكم أصبحت غريبة عن زمنها الذي تجاوزت معه رحلة عشرات السّنين، كانت تفور بالأحلام والمطامح والليالي الحالمة. مدن اجتاحتها في سنة ما جموع المجاهدين واستعرّت من شوارعها وأحيائها الحرائق، وتحوّلت إلى قلاع قروسطية. الفلوجة على سبيل المثال، انتهت بوقت قصير قلعة سلجوقيّة تنتظر المغول والتّتار. الأمريكان هم المغول، والمجاهدون هم السّلاجقة الذين أحكموا طوقهم على النّساء فلا يخرجن من البيت. وحرّموا الدّخان والخمور والموسيقا، وأغلقوا المدارس والمعاهد فلا يريدون علوماً دنيويّة بعد اليوم، والشّريعة ينبغي أن تحكم على البشر في وضوئهم، وزواجهم، ولباسهم، وكلامهم، وطعامهم، وشرابهم وما يسطرون.

وشاهد المغول الجدد بدبّاباتهم، وطائراتهم، وجنودهم السّود والشّقر والسّمر، يجتاحون المدن والصّحاري والحقول ولا يعرفون ماذا يريدون، مثل المغول القدامى تماماً. وقتها أصبحت الطّرق للوصول إلى بيته صعبة. وكان على الجميع أن يلتفّ عبر الطّريق

السّريع كي يصل إلى المدينة. الطّريق السّريع يلتفّ حول مقبرة القرية. لكن من يكترث؟ وقتها كان يعمل مصحّحاً في الجريدة الواقعة على كورنيش أبي نؤاس. هل هي صدفة أن يتعلّق بكتاب سميك عن حياة جلال الدّين الرّومي وكيف عاش في مدينة قونيّة؟ كان كثيراً ما يشغله السّؤال: ماذا يفعل الشّاعر مثله في زمن الحروب؟

ووجد الجواب في ذلك الكتاب عن حياة المتصوّف جلال الدّين الرّومي وكتابه المثنوي وعلاقته بشمس تبريزي، وكلّ القصص والأشعار التي رواها، وكتبها، ورقصها في صومعته المولويّة. توصّل إلى أنّ الحل الوحيد هو أن يتحوّل الفرد إلى كائن صوفيّ يعيش في داخله، ويرقص رقصة المتصوّفة. فالزّمن السّلجوقيّ والمغوليّ يتكرّر في حاضره هذا، بعد أن تحوّل البلد إلى إمارات بويهيّة، وسلجوقيّة، وقلاع حشّاشين مثل قلعة آلموت، ومغول يقتلعون الحياة في كلّ بقعة يجتازونها.

7

وكانت عيناه مغمّضتَين سارحتَين في الأزمان التي ولّت واستحالت إلى قصص وحكايات عن أشباح حياة متوارية مثل ضباب الشّتاء، وفجأة راح يسمع ذلك الصّوت النّافر يردّد من حوله الفكرة نفسها التي خطرت بذهنه. أجال النّظر في الآفاق، فرآه هناك خلف نافذة السّيّارة، قريباً من رأس (براء) المائل نحو اليسار من النّعاس. رآه بوجهه المحزّز، واللهب الخارج من شفتَيه السّاخرتَين، وشاربه الكثّ، وعينَيه الحمراويَين اللتين تنفثان السّموم والغيظ وقد تجسّد غيمة عملاقة، مرعدة، تنثّ البروق، لكنّه دون قرنَيه الشّهيرَين:

- نعم، أنت تعيش عالماً من اختراعك، فعالمك قد ولّى وراح، أصدقاؤك هاجروا أو ماتوا في الجبهات، والحانات التي كنت تجلس فيها هدمت، أو تحوّلت إلى محلّات للأحذية، وصيدليّات كأنّها الفطر من ضخامة موجة الأمراض التي عاثت في أجساد مواطنيك خراباً. الضّغط والسّكّر والسّكتات القلبيّة والجلطات الدّماغيّة مثل المستوطنة في دماغك، والسّرطانات بأنواعها وقد بثّتها ببراعة أشعّة سريّة، وغازات سامّة، وتركيز مهول من غاز ثاني أوكسيد الكربون. هم يحملونك إلى بغداد أيّها الغبي، إلى ذلك الطّبيب الذي يقع مكانه في منطقة الحارثيّة، هل تعرف الحارثيّة؟ وتلك الحديقة البديعة المسمّاة حديقة الزّوراء، هل تتذكّرها؟ لكنّك لن تنجو، فزمانك ولّى، وباد.

- الشّيطان يكذب دائماً. عالمي لن يزول، إنّني أحتفظ به في ذاكرتي وسأدوّنه على صفحة الهواء.

- أنا أعرف مآلات حياتك كلّها. لن تخلد في هذه المباءة مهما كتبت من قصائد. قبرك هناك تراه واضحاً. انظر شجرة اليوكالبتوس وهي ترخي أغصانها فوق قبرك. رغم موتك فالحياة تستمرّ، ثمّة عصفور يزقزق بين الورق، وقطرات من المطر تهمي على ذرات التّراب الصّحراويّ تصبح بعد شهر عشباً رقيقاً يداعبه النّسيم الليليّ بحنو، وأربع بلوكات من الخرسانة تصطف فوق بعضها، ثمّ تلك الشّاهدة البيضاء الرّخاميّة التي تحمل اسمك وتاريخ موتك. وسط فضاء صحراويّ شهد رحلات البدو في قديم الزّمان سعياً وراء العشب، والفطر، والكمأة، وآبار الماء. فضاء شهد عبور الذّئاب ليلاً متجهة إلى القرية، وعبور توابيت المعارك الدّائرة في شرق البلاد وهي قادمة من بغداد متجهة نحو القرى والمدن البعيدة المعزولة. عبادان، المحمرة، قصر شيرين، زين القوس، خور الزّبير، الأهوار، طريق البصرة والكويت المحروق بالنّابالم. لا تنسَ هذه الأمكنة. هل تودّ أن أذكّرك دائماً بطريق السّواد الذي تسير فيه؟ ثمّ تلك العربات الأمريكيّة المصفّحة قبل سنين، ألم تعد تتذكّرها؟ لكن كيف يبدو قبرك من عين طائر يحلّق في الفضاء؟ أو طائرة مسيّرة مثل طائرات الأمريكان وهم يطلقونها ليلاً ونهاراً، بعد احتلالهم للبلد، لمراقبتكم؟ سأخبرك أيّها الواهم. يبدو قبرك كأنّه فزّاعة في حقل من الرّمل. هذا كلّ ما تبقّى منك. تلك الشّواخص التي كان جدّك يزرعها في حقول الذّرة والقمح والشّعير والجت. فزّاعة من إسمنت وملاط. فزّاعات جدّك مصنوعة من القماش والخشب والعيدان الرّفيعة الشّبيهة بالأصابع، وكانت تخيف الأطفال في ليالي الصّيف حين يزجّون الوقت في اللعب بين الحقول، أو المشي في دروب قريبة ضيّقة مكتظّة بالشّوك. قبر جدّك لا يرى من عين الطّائر ولا من

المسيّرة الصّغيرة. قبر دارس عبارة عن كتلة مرتفعة من التّراب. مرتّ خمسون سنة على موته ولا يبعد عن قبرك سوى عشرين متراً. كان حكّاء بارعاً ينثال عقله بالفكاهات والنّوادر والأمثال والقصص. هل تذكر؟ جيّد، معه إذن ستتسامر تحت الأرض قتلاً لمرارة الزّمن الذي لا ينتهي. ستجد بانتظارك مليون سنة ضوئيّة من الكسل والعطالة، حيث لن يتبقى سوى المسامرات بين الأموات. سيحكي لك عن غزواته حين كان شابّاً، وقصص عشقه في القرية، وسفراته نحو المدينة ليجلب التّبغ والشّاي والصّابون والسّكر، والأحداث التي عاشها قبل أن تولد أو يولد أبوك.

- كفى بحقّ الله. اغربْ عن بصري، اختفِ في بحيرة الحبانية أو سافر نحو البصرة أو تسلّقْ جبال السّليمانيّة، لكن اغربْ عنّي، فلم أعد أستسيغ تداعياتك المؤلمة مثل سكاكين صغيرة.

- إنّك تستمني أفكارك أيّها الشّاعر العنّين، المعاق، مثلك مثل آلاف غيرك من المثقّفين ومنذ مائة سنة. كتبتم الرّوايات والقصص والقصائد، مثّلتم الأفلام والمسرحيات، حرّرتم الكتب وترجمتم عيون الأدب، مائة سنة. وانظر أيّها الأحمق شوارعكم ومدنكم وأسواقكم ونساءكم ومستشفياتكم وحقولكم ومصانعكم، ألا تشبه بلداً يعيش قبل قرنَين؟ بل ربّما في عهد سلجوقي باد وزال. ليلكم بلا كهرباء، أنهاركم بلا مياه، حقولكم لا تنبت سوى السّبخ والشّوك والبردي، عقولكم فارغة إلّا من الأوهام ومعتقدات الدّين. وأنت تستعيد مدناً مضت، ومكتبات لم يعد يدخلها أحد. مالك وما للحلّاج، وجلال الدّين الرّومي، والجاحظ، وأبي حيان التّوحيدي؟ مالك وشكسبير وديستويفسكي ورامبو وجان جاك روسو وبابلو

نيرودا وريلكة وغارسيا ماركيز؟ أنتم شعب يحرّكه من خصيتَيه شيخ معمّم لا يفقه من التّاريخ شيئاً، ولم يدرس علوم الفيزياء الحديثة ومجاهيل الكون التي عاد بها الرّوبوت هابل. أنتم تستحقون ما يجري لكم. فأنتم مومياءات تستحق الدّفن لا غير.

أنهى الشّيطان حديثه الغاضب وتلاشى في غيوم الفضاء، وشعر (رسول) بأنّه يختنق من الأسف والحزن، وربّما لأنّ حديث الملعون فيه شيء من الصّحّة.

وفيما هم يقتربون من تخوم العاصمة، أحسّ بالدّموع تنساب على خديه، وأمال وجهه في الاتجاه المعاكس لعيني (براء) كي لا ترى دموعه. نظر ثانية إلى (بشير)، يقعي بصبر، وثبات ووجه صارم جاد، على مقود السّيارة المنطلقة وهي تلتهم المسافات نحو مصيره المخبّأ في مجمّع الحارثية الطّبي، وعيادة الدّكتور واثق.

وُلد ابنه (بشير) في زمن الحصار، في مستشفى الرّمادي، وكانت ليلة تعيسة، أخبرهم الطّبيب فيها أنّ الأمّ بحاجة إلى عمليّة قيصريّة، فالولادة متعسّرة لسبب يجهله الطّبيب. سوء تغذية بسبب الحصار في حقبة التّسعينيات وما تلاها من سنين جافّة، ربّما. تشوّهات في الرّحم. وضعيّة الجنين في رحم الأم. وزمن الحصار كان زمناً لتداعي البلد وانهياره. الزّمن الذي تحوّل فيه واحد من أفضل أصدقائه تاجر دجاج بعد تركه للوظيفة كمدرّس. صديقه العتيد (هاتف). تمّ فرض قيود حتّى على الأدوات الطّبيّة والبضائع التي صُنّفت مواد كيمياويّة، وظنّ الطّبيب أنّ الجنين سيموت. نشف ماء الرّحم قبل جلبه إلى المستشفى. حتّى إنّه أكّد له بأنّ المهمّ في الأمر هو حياة الأم، الجنين يمكن تعويضه بحمل آخر. وكان، ساعة

إذ، يتجوّل في السّاحة أمام المستشفى ينتظر ما سيؤول إليه الوضع. يدخّن السّجائر اللف بلا انقطاع. وقتها بصق على الحصار وأمريكا وأوروبا والعالم، وبصق على القائد المجنون وكلّ ما يمتّ بصلة إلى الحضارة البشريّة. بصق على الشّعر والرّواية واللغة العربيّة والملاحم القديمة كلّها، بدءاً من ملحمة جلجامش وحتّى ملحمة الفردوسيّ. وظلّ يجدف أثناء ما كان يحدّق في النّجوم ويلعن قدره الملطّخ بالبراز، وخاطب السّماء مثل الحلّاج، ولعنها بكلّ ما تخفي من أساطير ونبوءات وآلهة وتسابيح منذ إنسان النّياندرتال وحتّى آخر جنديّ يانكي يتجوّل عابساً في شارع الرّشيد.

لكنّ (بشير)اً لم يمت، إذ جاء الطّبيب مهرولاً وأخبره أنّ الطّفل عاش، وطلب منه اسماً يدوّنه في بيان الولادة. تحدث المعجزة مرّة واحدة في حياة المرء. (بشير)، قال له، لكنّ (بشير)اً أورث أمّه العقم بعدها، فظلّ وحيداً في هذه الحياة. مضى ربع قرن على تلك الواقعة.

***

السّماء قبّعة للمجانين، والهواء دخّان سيجارة غير مرئيّة، وبين الخدر والنّعاس والانخطاف الذهنيّ، تذكّر تلك الليلة الثّانية أيضاً، ليلة الجنون كما سمّاها مع روحه، أو بالأحرى حملته ذاكرته إلى تلك الليلة وكان في بيته معافى ما زال يحلم بالعدالة والعالم الجديد الذي سيعقب مجيء اليانكي. وهل لحياته من معنى غير الاستمناء بالذّكريات كما أخبره الشّيطان؟ أصبح البلد منذ سنين طويلة صالة استمناء عملاقة في الحروب، والتّاريخ، واللغة، والتّخلف، والهزائم اليوميّة، وكأنّه بكتيريا تنشطر في كلّ الظروف وتعيد استنساخ

نفسها. مستعمرة الاستمناء الظّليلة. نعم، ليكن صريحاً مع نفسه، ففي بعض الأزمان يصبح غياب العقل هو الحلّ.

في ليلة الجنون البعيدة شرب نصف زجاجة من الويسكي المغشوش في الصّالون، وكان في الوقت ذاته يقرأ لجلال الدّين الرّومي مقاطع من عشقياته، ورباعياته في الحبّ والسّماع، فما كان منه، وهو مهموز بطاقة الانخطاف والوجد، إلّا أن نهض واقفاً يدور على نفسه، يد إلى السّماء ويد إلى الأرض، في رقصة مولويّة يتولّى جسده فيها ربط روحه إلى سماء تجلّت في ذهنه كأنّها وفدت من مجرّة أخرى. حوله شيوخ الكتب وفي قلبه عشق سماوي خالصّ، رقص لكن بلا ثوب أبيض يلتفّ حوله، مقلّداً رقصة الدّراويش على أنغام صوفيّة تأتي من جهاز الحاسوب.

غابت المدينة بمآذنها وأسواقها ومولاتها ومحلّاتها، وغاب الفرات. غاب عشّ الطّيور وبيت السّمك والدّيدان، والملعب الرّياضي، وغاب البيت. غاب صديقه (هاتف) وسوق الطّيور. وغابت أزقة الدّهانة والشّواكة ومستشفى الكرنتينة. غابت ساحة التّحرير وجداريّة فائق حسن. ودخل في حيّز الانخطاف دون أن يدرك لماذا وكيف. كان في قونية أيام السّلاجقة. أرائك الصّالون وسرير زوجته وحديقة البيت التي شهدت نفوق القطط والسّطح المطلّ على ناظم الورّار، كلّ ذلك تلاشى وانفتحت خلاياه على المجهول، والسّريّ، والانخطاف الوجوديّ. وتوحّد فعلاً مع نفسه، لقد تحوّل إلى مريد، روحه تتسع للنّجوم، والمجرّات، والهواء الصّحراويّ، والبحار البعيدة المكتظّة بالسّفن والدّلافين، وذبابات الدّغل، وعناقيد العنب، ودنان الخمر. تتسع للورق العتيق وشاشات السّينما والحاسوب وأرجل العناكب

الطّائرة بين غصن وآخر. حدثت المعجزة، إنّه يرقص أخيراً في زمن الحروب، وهذا أقلّ ما يمكن أن يفعله شاعر مثله، فما له وللحروب؟ روحه نضت جسدها، وأحسّها جوهراً خالداً ينشد المطلق مثلما فعل الرّوميّ ذات سنة في معقله الأثير، قونية الأناضوليّة في قرن سلجوقيّ رخيص.

لقد حدث كلّ ذلك في ليلة الهواجس والسّمو، والتّحليق في عالم آخر بعيد بلا زمن، حتّى دخل (بشير) في منتصف الليل وصاح عليه بصوت عالٍ:

- هل جننت يا أبي؟ ماذا تفعل؟

- أنا أصلّي يا (بشير)، أصلّي صلاة المتصوّفة.

- أنت تعتقد نفسك في عالم آخر، انتبه أنت لا تعيش في باريس. نحن في بلد الموت، بلد يا أبي يطمح الجميع في مغادرته، كلّ أصدقائي لديهم هذا الحلم، انظر ما عليه الشّباب في أوروبا، كنت غادرت هذا التّابوت منذ غزوة القاعدة، لكنّني بقيت هنا بسببك أنت وأمي، فأنا لا أرغب في تركككما وحيدين، وهم أغلقوا علينا السّجن، لا موسيقا، لا خمرة، لا فرح، لا أمان في الشّوارع يا أبي، نريد الحفاظ على أرواحنا على الأقلّ. قل لي ماذا حصلت عليه أنا حين تخرّجت من كليّة الصّحافة؟ لم أحصل على وظيفة رغم أنّ عمري سيصبح خمساً وعشرين سنة، أعيش على رواتبكم التّقاعديّة لا أكثر. لا تنسَ أنّنا نعيش في تابوت يا أبي.

- يصل الإنسان إلى السّرّ الأعظم عن طريق الرّقص، كما يقول جلال الدّين.

نظر إليه (بشير) بحيرة، وأجلسه عنوة في فراشه وقال له:

- هل تدرك ما تعمله؟ إن سمع بك القاعديون والأصوليون والتّكفيريون والمتعصّبون، ورأوا ما تفعل فلسوف يحرقون البيت يا أبي، ويحرقوننا معه.

صدى ذلك الحوار الغاضب بينه وبين (بشير) أيقظ (براء) وجاءت من الصّالون منكوشة الشّعر، وعيناها مرعوبتان، وما إن أدركت الموقف حتّى مضت إلى المطبخ ثمّ جلبت له شاياً ثقيلاً وسيجارة كلواز فرنسيّة الصّنع، وكأس ماء بارد، علّه يصحو من كبوة العقل هذه التي ألمّت به في مكان غير مناسب، وفي زمان رماديّ فجّ، غير مناسب هو الآخر. وكانت تلك المحاولة آخر رغبة له كي يصبح متصوّفاً مثل جلال الدّين الرّوميّ.

تمثّلت له جمجمة جلجامش، ولحية حمورابي، وهناك في الأفق برج بابل الذي زاره مع المدرسة في سنة فارطة، وضاعت منه الصّورة الجميلة التي التقطها له المصوّر أمام تمثال أسد بابل، وكان يتجوّل بين طلّاب السّفرات المدرسيّة الحريصة على تراث هذا البلد. الكأس العملاقة في يد صاحبة الحانة وهي تضعها أمام الملك جلجامش، الباحث عن الخلود، جعتها شهية لا تشبه بيرة الجوهرة وشهرزاد وفريدة، اللات، والعزى، ومناة، المعبودات في ذلك الزّمن البعيد. وكانا يحتسيانها هو وصديقه (هاتف) في مشرب جبهة النّهر قبل خمسين سنة. منذ خمسين سنة وهذه السّيّارة تسير نحو بغداد حاملة معها روحه الهائمة في غيوم الموت الوشيك.

وبعد أن صارت الأبنية العالية تلوح في الأفق، والبيوت على الجانبَين تزداد كثافة، سمع (براء) تقول ل(بشير)، بعد أن تأمّلت في وجهه المغلق، وعينَيه الغائصتَين إلى داخله وهما تسوحان في

الماضي: لقد نام، وقد كرّرت جملتها القصيرة بيأس ثلاث مرّات، لتلتفت بعدها نحو الطّريق.

***

لكنّه لم يكن نائماً. عيناه مغلقتان لكنّه لم يكن نائماً، بل هو طائر في سماواته، وسنواته الهاربة مثل أرنب بريّ. تساءل مع نفسه عمّا تعرفه زوجته من تاريخ حياته، وعمّا لا تعرفه. هذا يحدث في الواقع أيضاً، تعيش مع شخص عشرات السّنين لكنّك لا تحيط بكلّ ذكرياته. ربّما لهذا السّبب يفاجئك بعض الأشخاص بسلوكهم وتصرّفاتهم. ما الذي لا تعرفه زوجته؟ هنا الحكاية. يرى نفسه بعمر العاشرة، فتى مهملاً يتفكّر بوجوده قبل الأوان، والصّيف يحرق المسمار في الباب كما يقال. يرتدي دشداشته البيضاء المنسوجة من قماش الململ يسير إلى ضفّة الفرات، بعد اجتياز حقول محصودة توّاً، والأطفال والشّباب كلّهم هناك، هناك في النّهر، مياهه زرقاء مثل السّماء، مثل الثمار قبل النّضوج، مثل وردة الخيال في قصيدة كتبها لوركا قبل أن يقتله الفاشيون. فرانكو، جنرال الموت، والعنجهيّة، والزّنازين.

(براء) النّائمة من تعب وشيخوخة وكمد، لا تعرف أنّه يدوّن ذاكرته في صفحة الرّيح رغم أنّه يعيش في غيبوبته الثّقيلة، ولا فرق بين الورق وتلافيف رأسه، لا شيء يضيع في هذا الوجود الغريب. أفكاره تعرف أنّها تنطبع في مكان ما في هذا الحيز الأرضي، وسيلتقطها شخص تائه في لحظة ما، وفي مكان ما، لكنّه يعيش على أديم هذا الكوكب، مثله. هو المقعد إلّا من ذاكرة تفور كأنّها تنور أمّه قبل موتها. كم مرّت من السّنين على طفولته البعيدة؟ الطّفولة

البريئة التي عادة ما تكون ملاذاً، واحة، رحماً، إذا ما ادلهّم الأفق وضاقت عليه الخطوب. متى حدث ذلك؟ (براء) لا تعرف تلك الواقعة. نزلوا الضّفاف ونزعوا ملابسهم، وغمروا أجسادهم في مسيل الماء، وعاقروا البرودة في شهر آب. عبروا البرزخ نحو الجزرة في وسط النّهر، وبنوا قلاعاً من رمال، مثل حياتهم القلقة المشادة من عبث. ضاجعوا الطّين الحريّ، ولعبوا مع ذباب الماء، وأسماك الأعماق النّزقة وهي تعبر من تحت بطونهم، وصافحوا نوارس المكان بروح مرحة، حرّة، ثمّ سفعتهم الرّيح وأشعّة الشّمس، واسمرّت جباههم وتاقوا إلى التّراب، والطّين، والرّمال، وظلال الحلفاء. غسلوا جلودهم بالمياه المقدّسة، مياه نهر لم يدركوا كيف يسير صيفاً بذلك العنفوان. وانتظروا دقائق حتّى جفّت جلودهم، ثمّ ارتدوا دشاديشهم وجلسوا يستريحون وكأنّهم في جنّة الخلق الأولى المؤثّثة بالبراءة والسّموّ. في جيبه اليمين، جيب الدّشداشة الململ، عادة ما يحمل قلماً من نوع (كوبيا)، وتبادر لذهنه صورة تلك الأجساد القتيلة التي جلبوها ذات يوم بسيّارة صغيرة، وتخيّل نفسه الزّعيم عبد الكريم قاسم بأذنَيه الكبيرتَين، وملابسه العسكريّة، وتخيّل نفسه جنرالاً يحكم ويعفو، ضابطاً مهاباً في قادم الأيام. فتناول القلم ورسم على كتفَيه نجمة على اليمين ونجمة على الشّمال، وتخيّل نفسه آمراً في معسكر الوشاش، ومعسكر الرّشيد، ومعسكر الحبانية، ومعسكر الغزلاني في الموصل البعيدة التي لم يزرها، وحدثهم أبوه عنها. إنّه يأمر ويذبح بالقطنة كما يقول الفلاحون، أو يعفو، وهذا نادر في عرفهم، تاريخهم سلسلة من المذابح، وهو يتخيّل هذا الفتى النّكرة وقد أصبح واحداً من أولئك الضّبّاط الصّارمين الذين ما أن يفدوا إلى القرية حتّى يبدي لهم النّاس الاحترام

والخنوع، وفي زاوية من رأسه يقبع ذلك الضّابط المبتسم، طويل الأذنَين، مؤسّس الجمهوريّة المسمّى عبد الكريم قاسم.

رجع إلى البيت، ونسي قصة النّجمتَين على كتفَيه، اليمين، واليسار. وكان أبوه قد أنهى صلاة المغرب، ثمّ نظر إليه بصرامة، عيناه تقدحان شرراً، وحين رأى ما صنع بان الغضب في عينَيه، وقفز من مسجده المصنوع من خوص النّخيل وزخرفته أمّه بالأصباغ، مربّعات ومثلّثات جميلة، وتناول نعاله البلاستيكيّ وانهال بالضّرب عليه، فقد لوّث ملابسه دون مبرّر واضح. لم يكن أبوه يسبر غور نفسه وتلك الرّغبة في أن يصبح شخصاً متين البأس، مهاباً، ضابطاً متسلّطاً في المستقبل. المفارقة أنّ التّوق للسّلطة تلاشى، وأصبح شاعراً يكره الضّبّاط والشّرطة ورؤساء الدّوائر ومحرّري المجلّات العريقة والوزراء والسّفراء، وكلّ سلطة تحدّد له مصيره، سياسيّاً ودينيّاً وأخلاقيّاً.

فمن أين جاءه التّمرّد كلّه؟ ما هي كيمياء جسده الضّعيف التي صنعت منه فرداً لا يحب القطيع وما يؤمن به ويردّده مثل ببغاء؟

لم تكن زوجته تعرف بذكرى ثانية مازال يحتفظ بها في روحه، فحواها كيف ضاجع عاهرة في شارع 52 المشهور في بغداد ذات سنة، ولا كيف جلس ساعتين في صيف حارّ وسط ساحة الأمّة منتظراً قوّاداً يدلّه على امرأة، وكان في الصّف الرّابع من كليّته الواقعة في باب المعظّم ويعيش قصّة حبّ مع (براء). لذلك لا يمكن معرفة شخص مائة بالمائة حتّى لو عاش معه الفرد مليون سنة.

ثمّ التمع في رأسه مثال آخر، يدخل الغرفة المعتمة في البيت الذي ولد فيه ابنه (بشير)، على الأريكة جنب الحائط وضعت (براء) ولدها (بشير) الصّغير وهو بحجم دجاجة فقط، وإذا به يرى

قطّة ضخمة تجلس قرب رأسه، تتأمّل فيه بعينَين مضيئتَين، وفمها يتحرّك متلمّضاً، وهي تميل برأسها يميناً وشمالاً. هل كانت نفسها تلك القطّة العاقّة التي هجرت أبناءها؟ ولحظتها فكر، أو خمّن على وجه الدّقّة، أنّها تخطّط لالتهامه. فيصاب بالرّعب. يهجم على القطّة ويطردها ويتقدّم من ولده يتلمّس رقبته بيدَين راعشتَين، ورقبته تشبه إصبعاً ثخيناً. إنّه حي، لم تخنقه، ولم تأكل من الجسد الغضّ. لو تأخّر دقائق ربّما ستلتهمه. تلك غرائب الحياة. هل دفعت الحادثة تلك ابنه (بشير) كي يحبّ القطط؟ لكنّه تسبّب بموتها في النّهاية بخطأ ليس منه. أطعمها حليب كلاب لا حليب قطط. كلّ شيء جائز في هذا الوجود الغريب في كلّ تفاصيله. لم يخبر (براء) بالحادثة. قد يجوز لأنّها ترافقت مع الأيّام التي وقع فيها الغزو الأمريكيّ على المدينة. تأتي الذّكرى الآن واضحة مثل شريط سينمائيّ ملوّن. طفل مولود باكراً. قطّة ضخمة جائعة. بين الحياة والموت شعرة. شعرة مصادفات وأقدار وثوانٍ وساعات وتقاطعات. نسي تلك القصة عشرين سنة. ماتت القطّة وكبر (بشير) وهو يجلس في المقعد الأماميّ.

ومع وجود (بشير) في حياته تأكّدت له شعريّة الوجود بحقّ.

دخل حياته مثل قصيدة بإيقاع سحريّ هابط من عالم سماويّ بعيد.

يفيق كلّ يوم صباحاً ممتلئاً بالأمل، كونه سيرى وجهه ويسمع كركراته، واختباراته للحياة اليوميّة. القمر رغيف خبز، والشّمس مصباح عملاق، والشّجرة المزروعة في الحديقة، شجرة البرتقال، كائن حيّ يتمايل وينحني ويرقص ويبعث ال(سعاد)ة في عينَيه.

يراه بعد أن كبر قليلاً يلتهم الرّز واللحم والبيض، فيؤمن بأنّ الحياة تتجسّد في ذلك الفم الصّغير الذي ينمو تحت بصره كلّ ساعة ويوم. منذ وجوده في حياته أصبح ينظر إلى الموت بحياديّة كاملة، الخوف منه تلاشى تماماً من أفكاره. حتّى دواوينه المخطوطة لم يُعرها أيّ أهميّة سواء طبعت أم لا، فقصيدته العظمى، معلقته، ماثلة أمامه ويراها تنحت خلودها في الزّمان والمكان. عادة ما كان يغنّي له ليلاً نشيده المدرسيّ بحبور: البلبل الفتّان/ يطير في البستان/ غنّى على الأغصان/ بأعذب الألحان. أو يقرأ له حماسة أبي تمام، ومعلّقة لبيد، ونشيد طلع البدر علينا من ثنيات الوداع.

***

رآه في الأسابيع الأخيرة يقف فوق سريره، وحدث ذلك في غرفة المستشفى وفي صالة البيت، ليتأمّل في ضجعته الأبديّة ويلتقط ما يفكر به وهو يخاطبه بألم: لماذا تتركني يا أبي، أحبّك ولا أريد للموت أن يأخذك منّي، لا أريد ليوم الفراق الأبدي أن يحلّ ذات يوم، ثمّ يذرف دمعات على خدّيه الأسمرَين، ويمسح أنفه ويظنّ أنّه لا يراه، وهو غاطس في ذلك السّرير المتحرّك.

وتلك هي الحكاية كلّها يا (بشير)، يردّ على دموعه من دون كلمات: موت وحياة، وبطء وسرعة، وسكون وضجيج، ولحم وتراب وهمود وعنفوان، وتلك هي المفارقة في نظره، وتأسّف لأنّه سيدعه يعيش المعاناة ذاتها التي واجهته، في هذا البلد، الأرض المحصورة بين نهرَين خالدَين، أرض بين سيفَين كما وصفها شاعره المفضّل سعدي يوسف، وتحت السّماء المغبرّة في معظم الفصول. على (بشير) أن يعرف منذ الآن أنّ الكوابيس، والكوارث، والمآسي، تكرّر

نفسها، وسيعيش حروباً جديدة، وأنماطاً أخرى من الخوف، والإذلال، وهدر الكرامة. وللأسف، علمه لن يفيده بشيء، ثروته لن تجدي نفعاً، وكأنّ هذه البقعة لها قانونها الخاصّ، قانون المعاناة الأبديّة لقاطنيها. منذ تفتّحت عيناه على تلك الجثث، جثث الحرس القوميّ على ضفاف النّهر، نهر الفرات، في مطلع السّتينيّات، والموت يمشي طليقاً حوله وأمامه وخلفه، وكلّ القصائد التي كتبها طوال أربعين سنة ذهبت هباء.

ثمّ يخاطب (بشير)اً في سرّه مرّة ثانية:

يا (بشير)، بعض الأيّام السّوداء، وحين يخنقني اليأس والإحباط والعبث، كنت أتمنّى من كلّ قلبي لو لم أتعلّم، ولم أكتب الشّعر، ولم أدمن على زيارة تلك المكتبة المقبّبة على النّمط العباسي، ولم أمتلك وعياً فيما يدور حولي. سأبوح لك بسرّ، عند كثير من المواقف في حياتي، تمنّيت لو أكون بعوضة وجرادة وصرصاراً، تمنّيت أن أكون شجرة مشمش، وتلّة من الرّمال، وموجة في نهر، وذرّة غبار ساقطة على أغصان الطّرفاء، وفلّاحاً أمّيّاً يضاجع زوجته مساء وينام حالماً بيوم آخر يخرج فيه إلى حقل القمح البعيد.

ويفكّر (رسول) بقبره، وهو هاجس دائم في ذاكرته، يراه مرتسماً أمام ناظرَيه مثل تلك الطّيور المحلّقة فوق النّخيل والبيوت في الآفاق النّائية، مثل الغبار المتطاير في السّماء. يفكّر به ويراه ينتصب في تلك المقبرة الموحشة، مقبرة أقربائه وأجداده وأهل قريته. كما دفنوا أخاه فؤاداً سيدفنونه هو الآخر، والغريب أنّ ذلك الوجه الشّيطانيّ، مرّة أخرى، عاد يطير ملتصقاً بزجاج باب السّيّارة جواره. جاء على هيئة امرأة شابّة فائقة الفؤاد والسّمات، بعينَين

صغيرتَين مرحتَين، وشعر متعرّج يميل للشّقرة، وذقن دقيق ناعم، وتعابير ذات إغراء فائق. واعتقد بعد تأمّلها مليّاً، أنّها من جيل جديد من الشّياطين. جيل الحداثة الصّناعيّة والإلكترونيّة، فقد سمع، أو قرأ ذات يوم، أنّ جيل الجنّ، والشّياطين، والعفاريت، كلّهم يجدّدون ظهورهم مع تطوّر البشر، وارتقاء عقولهم.

وكانت السّيّارة تسير بسرعة مائة كيلومتر بالسّاعة، وشرع ذلك الوجه الرّقيق يحدّق إلى زاويته بسخرية، ويهمس له هازئاً:

- بدل هذه الذّكريات الفجّة، الملوّنة مثل قوس قزح، ذكريات الطّفولة، لمَ لا تفكّر بحاضرك التّعس؟ أليس هو الهروب بعينه؟ تترك تعاسة ما تعيشونه وتسترخي في حرير ماض اندثر، وتلاشى، وغاب مثل مشرب جدّك الخشب، ونخيلكم القديم، ومطحنتكم، ومكتبتكم المركزيّة، فهو ماضٍ لم يبقَ فائراً سوى في الأدمغة المريضة.

- ما الذي تريدني أن أفعله؟ وهل جسدي يساعدني على تغيير الواقع؟ هذا حلم كففت عنه منذ سنوات. لكن ما الذي بجعبتك لتقريعي ولومي؟ الحياة تراها أمامك تسير ولا يهمّها نباح الكلاب. صحيح؟

- اسمع. من غير المعقول، حتّى في أشدّ الخطط غرابة أن يتمّ وضع سيطرة في بداية جسر، ثمّ سيطرة في نهاية جسر، فمن أين ينزل الإرهابيون، والخارجون على القانون يا ترى في المسافة الفاصلة بين سيطرتَين، وعلى الجسر ذاته؟ أنتم تعيشون أيّامكم وسنينكم بعقول مختلّة، أليس كذلك؟ بدل قصائدك المريضة فكّر بهذه المعضلات. أنتم بحاجة إلى ثورة تقتلع الجميع. الدّين والفولكلور والحكايات الخرافيّة العتيقة. هل فكّرت بحاضرك التّعس هذا؟ تلك مفارقات يعيشها الفرد

يوميّاً خاصّة في العاصمة، وها هي أمامك، وقد ضرب الانغلاق الذي تشهده الشّوارع كلّ منطق وخيال. تغلق السّاحات الرّئيسيّة، والشّوارع، كلّما خرج مسؤول رفيع إلى زيارة ميدانيّة. وهو كما تعرف، ويعرف الجميع، شخص تافه ولا يجيد سوى رصف الكلام عن الدّين والطّائفة وحصّة هذه المافيا أو تلك. وأنتم تصدّقون تلك الخطابات الفجّة كونها مغلّفة بالدّين وآياته، وأحاديثه. الشّوارع تغلق كلّما حدث انفجار في مكان ما، وتغلق الشّوارع في التّنظيفات، والتّرميمات، والمناسبات الدّينيّة الكثيرة، وكأنّ غلق الشّارع هو الحلّ الأبسط لدى رجال الأمن والشّرطة والمرور، وليس التّفكير في حلول أخرى تحفظ مصلحة المواطن، وتبعد شبح الأزمات عن المكان. ألا ترى أن ثمّة خللاً عميقاً في رؤوسكم يا أبناء الرّافدين؟ هل فكّرتم بالخلاص من هذا الكابوس؟ وأنت، هل كتبت قصيدة إدانة للسّاسة الجهلة، ورجال الدّين العلق، وشيوخ العشائر الملق؟ أنا باعتباري شيطانكم الأعلى، أدعو لمنع المناسبات الوطنيّة والدّينيّة، فلا تغلق المدن إلّا في الصّيف اللاهب حين تصبح درجة الحرارة خمسين درجة على مقياس رختر. من يحتمل حرارة مثل تلك سوى الحمير؟

- مقياس رختر للزّلازل أيّها الشّيطان، لا لقياس درجات الحرارة.

- لا يهمّ، كلّ المقاييس واحدة عندما تعمّ الكوارث. صار الموظّف الذي يرتبط بدوام يومي يتخيّل كوابيس فظيعة كلّما نهض صباحاً ليذهب إلى عمله، أو فكّر بالمعاناة الهائلة التي تنتظره حين يعود إلى بيته. وكلّما عاش الاختناقات المزمنة في الشّوارع جميعاً. أصبح يفكّر ألف مرّة قبل الخروج إلى متنزه ما، أو منطقة تسوّق أو ترفيه، ممّا يحكم عليه بالبقاء في بيته محبوساً كأيّ جرذ مذعور حتّى اليوم الثّاني.

منذ ديكتاتوركم الجميل، وحتّى اللحظة، صار الفرد منكم يرتعب كلّما رنّ هاتفه الجوّال، أو تعرف لماذا؟ لأنّه يتوقّع خبراً حزيناً سينقل إليه، بعد أن تحوّلت الأخبار كلّها إلى مآس، وكوارث، وموت، واختطاف، واغتيالات. الموت الشّيطانيّ يهيم مثلي في كلّ شارع وزقاق وساحة ومدينة وقرية. فكّروا يا بقر. ثمّ هذا عهدكم الجديد، عهد الغرينغو القادم من وراء المحيطات. حتّى العقول مغلقة مثل شوارعكم أيّها الدّودة التّعيسة التي تسمّي روحها شاعرة. والنّتيجة واحدة، أيّ عدم وجود حلول سريعة، وجادّة، ومدروسة، للمعضلات التي تلوّث الأيّام وتجعل العيش حكم عادة لا أكثر ولا أقلّ. لذلك، نادراً ما تجد مواطناً تصحّ له فرصة للخروج من البلد إلّا واستغلّها، دون أيّ أسف. سمعت ابنك (بشير) ماذا قال لك في تلك الليلة الرّوميّة، ألا تتذكّر؟ الجميع يحلم بمغادرة البلد. وهنا تكمن المأساة، شعب لا يحبّ العيش في الوطن، لأنّه وطن مريض، وليس ثمّة من يسارع إلى علاجه.

- تتكلّم وكأنّك بشر مثلنا أليس هذا من عجائب الزّمان؟

- اصمتْ أيّها الشّاعر المعوّق، وعدْ إلى ذكرياتك التّافهة. إلى استمنائك الحرّ مثل فيلم جنسي. هل تتذكّر الأفلام القذرة التي كنت تراها منتصف الليل وتستمني حين تنام زوجتك (براء)؟ لماذا لا تنتحر إن كنت تكره حياتك؟ لقد فعلها شعراء كثيرون.

- لا أستطيع تحريك جسدي، فكيف أنتحر أيّها الجنيّ، أيّها الشّبح، أيّها الرّجيم؟

- امتنعْ عن الطّعام. متْ جوعاً. انتحرْ بقطع النّفس أيّها الجرذ.

***

صمت المخلوق الجهنميّ، ولم يحرْ (رسول) جواباً. ومضت دقائق طويلة وهو يتأمّل مغلّق العينَين بمنطق ذلك الشّرير الذي أخرس لسانه، وما كان أمامه إلّا أن يعود إلى تلك الليلة. ليلة حمّموه بالصّابون وعطّروه بالقرنفل. وألبسوه جديد الملابس وحلّقوا ذقنه البيضاء فعاد وجهه كأنّه وجه طفل. لكنّ قبره هناك على أيّة حال. ستظلّه سحابة من غبار وسموم سيرسم سراباً في المديات البعيدة ويكاد يكون ماء. وسيكون ثمّة ضبّ يركض بين نبات الشّوك والعرفج، وثمّة ثعلب يهبط إلى وجاره وأرنبة تفزّ من تحت عوسجة ضخمة وأفعى تتسلّل من مكان إلى آخر باحثة عن فريسة تاركة أثرها خطاً متعرّجاً في الرّمال. لا فائدة من الحياة القصيرة ما دام المرء يموت في النّهاية، ويُنسى بعد جيل وجيلين، وربّما ثلاثة.

يفكّر، وينوء تحت وطأة الأسئلة: ما الذي ينفع الجاحظ اليوم من كتبه ومباحثه التي فاق عددها المائتين؟ وما الذي ينفع عنترة العبسي إذا ما ترنّم البشر بمعلّقته: ولقد ذكرتك والرّماح نواهل/ مني وبيض الهند تشرب من دمي؟ وذلك الرسول القادم من الصّحاري هل يضرّه كفر العالمين بآياته وقد ابتعد الزّمن عنه آلاف السّنين؟ مات شكسبير وجان دمو ومحمود درويش وسعدي يوسف وماركس وجيفارا وعبد الكريم قاسم والدّيكتاتور المعدوم وهتلر اللعين. فكّر أيضاً بشعراء وقصّاصين وروائيين وموسيقيين ورسّامين وممثّلين خلدت أسماؤهم بعد موتهم، صاروا رميماً في قبر مثل قبره القادم. ما الذي سيضيف لهم الخلود، وما نفعه حتى؟ فما نفع: عيناك غابتا نخيل ساعة السّحر/ أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر/ لشاعر البصرة بدر شاكر السّياب؟ وكان يردّدها كلّما لعبت بنت العنب والتّمر في رأسه، تحت سقف حانة من

حانات أبي نؤاس. تلك تسلية وعزاء لأولئك الأحياء فقط. تلك تعزية لمن يولد ويعيش زمنه. ثمّ يعود إلى قبره.

يفتح عينيه مجدّداً وتمرق المشاهد التي لم تعد تعنيه، والسّيّارة تمضي إلى الشّرق، وجفناه مسدلان ثمّ فكّر بتلك الصّحراء التي دُفن فيها. وإلى النّاس الذين حضروا جنازته. هل سيعدّدون مناقب الرّاحل، وهو في هذه الحالة هو (رسول) لا غيره؟ هل يعرفون أنّه كتب آلاف القصائد للرّيح، والوطن، والماء، والنّساء، وزوجته (براء) زميلته في كليّة الآداب قسم اللغة العربيّة؟ لم يطبعْ ولا ديواناً واحداً رغم كتابته للشّعر عشرات السّنين، ورغم نشر قصائده في الجرائد والمجلّات. وكانت آخر محاولة لطبع ديوان ضخم لقصائده حين اتفق مع ذلك النّاشر في شارع المتنبي، وطلب منه دفع كلفة الطّباعة. كان وقتها يعمل في الجريدة، وأخبر النّاشر بأنّ المبلغ أكبر من دخله. لم يستغرب من فكرة النّشر على حساب المؤلّف، فمعظم دور النّشر التي تأسّست بعد رحيل النّظام كانت تطبع على حساب الكاتب. كان يجلس مع ذلك النّاشر في مكتبته الصّغيرة المطلّة على زقاق ضيّق يتفرّع من شارع المتنبي، ولكونه يعرفه معرفة سابقة، ويعرف هو عمله وخبراته، اقترح عليه حلّاً آخر، هو أن يصحّح له أربع مخطوطات، ويحرّرها إن لزم الأمر، وسيطبع الدّيوان مقابل ذلك. وأعجبته الفكرة. سلّمه مخطوطة الدّيوان، ومن ثمّ فاجأه ذات يوم باقتراح غريب آخر حين جلس معه في مكتبته الصّغيرة في واحدة من جمع شارع المتنبي. أخبره بمشروع يلائمه ويكسب منه مالاً جيّداً كما قال له. حدّثه عن ضابط كبير في الجيش العراقيّ تقاعد وسكن في المنطقة الخضراء، لواء اسمه نسيم عطا شغل وظائف ومسؤوليات كثيرة منذ سقوط النّظام وحتّى اليوم،

وكان قد عمل ناطقاً رسميّاً باسم القائد العامّ للقوّات المسلّحة، ومن ثمّ مديراً لجهاز المخابرات، وفي جعبته كثير من الأسرار، خاصّة ما يتعلّق بمرحلة الاحتلال الأمريكيّ. اقترح النّاشر على اللواء أن يكتب مذكّراته لينشرها في الدّار، وسيأتي الكتاب دون شكّ قنبلة مذهلة في معارض الكتب حسب وصف النّاشر. وفهم منه أنّه سيقوم بمقابلات مع اللواء يحولها إلى مذكّرات، بطريقته وأسلوبه، وهذا يتطلّب طبعاً زيارات متكرّرة للواء عطا. وعرض عليه النّاشر مبلغاً لا يقلّ عن ألف دولار. فعلاً دخلا ظهراً المنطقة الخضراء، وزارا بيت اللواء وجلسا معه أكثر من ساعتين، واتفقوا على أن يعطيه رقم هاتفه وعليه أن ينتظر اتصاله حين يكون جاهزاً لبداية المقابلات التي ربّما تكون مرّة أو مرّتين في الأسبوع. لكن لم تمرّ سوى أيّام على ذلك الاتفاق حتّى اختُطف النّاشر من جهة مجهولة، ولم يُعثر له على أثر.

اختُطف النّاشر المهتم بتراث الدّيانات، وصاحب دار (ميزوبوتاميا للنشر)، وقت الظّهيرة بعد مغادرته شارع المتنبي. ونقل ذوو المختطف عن صاحب متجر قوله إنّ «مجموعة مسلّحين يرتدون الملابس المدنيّة، ويستقلّون سيارة نوع (بيك آب) مظلّلة، هم من قاموا باختطافه، بعد خروجه من مكتبته.». وأضافت العائلة في حديث صحفيّ، إنّ «صاحب المتجر، هو من أبلغنا بما جرى، حيث وصل إلى المنزل، وهو يحمل أغراض النّاشر التي كان اشتراها، وهي عبارة عن كتب وأشياء أخرى، فضلاً عن حاجات باعها له صاحب المحلّ.». ولم يعرف ذوو النّاشر أسباب اختفائه أو اختطافه حتّى الآن، وبعد جولات واسعة في مراكز الشّرطة والمستشفيات للبحث عنه استسلمت في النّهاية للأمر الواقع، وتعايشت مع أحزانها حتّى اليوم. وخرجت إشاعة غامضة

مشوّشة في شارع المتنبي أكّدت على أنّ هذا النّاشر كانت له صلات مع يهود بريطانيين، يبحثون عن أصول أملاكهم في بغداد. وقيل إنّ النّاشر تكفّل لهم بالعثور على سندات الملكيّة مقابل آلاف الدّولارات. فيما تهامس الوسط الثّقافيّ بإشاعة أخرى حول زيارته لإسرائيل، مدفوعاً من قبل زعامات سياسيّة تسعى للتّطبيع بين العراق وإسرائيل لأغراض مجهولة. وربط هو فوراً مشروع المذكّرات بالخطف، كون اللواء قد يفضح ملفّات كثيرة يعرفها، وعايشها، في فترة زمنيّة حرجة، أعقبت الاحتلال. وهكذا ضاع النّاشر والمخطوطة وأغلقت المكتبة. لم يعد ذلك يعني له شيئاً. لا ينسى أنّه منحوس منذ الولادة. ثمّ، طز في الشّهرة، وطز في الأدب والثّقافة واللغات وكلّ تراث البشريّة، خاصّة وقد بدأت الرّائحة الكريهة تفوح من جسده. سيموت وستنبعث الكائنات الدّقيقة من مكامن ذلك الجسد، وزواياه، وطيّاته، وهي تقدّم على وليمة اللحم الميّت، لحمه. هل يقوم ابنه (بشير) بجمع قصائده بعد موته، وطبعها في كتاب؟ لكن من يهتمّ لقصائد شاعر عقيم مشلول، ميت الجسد لكنّه حيّ مثل جدّه الحلّاج؟ لا أحد. لا يعتقد بأنّ شارع المتنبي سيهتمّ بديوانه. رغم أنّه ورق سميك بغلاف ملوّن يرقد قريباً من أعظم شاعر أنتجه العراق، ألّا وهو أبو الطّيب المتنبي الواقف على كتف دجلة يهزأ بشعراء النّثر والسّياب وعبد الرّزاق عبد الواحد وسعدي يوسف ونازك الملائكة ومحمّد الماغوط وأدونيس. يهزأ بثورة ساحة التّحرير، ونفق الشّرطة، وساحة عقبة بن نافع، والحيدرخانة، وجسر الفلوجة، ونخيل البصرة، وبحيرة الرّزازة المالحة الماء.

8

مالنا كلّنا جو يا (رسول)، يا (رسول)، يا (رسول)، وهو موّال يترنّح في رأسه، قادم من جوقة موسيقيّة تعقدها أشباح على دكّة الزّمن. موّال عن السّنة اللعينة تلك، سنة الحرب وقد فاجأتهم في كلّ مكان، في البساتين والأنهار والمدن والمدارس والمقابر والمستشفيات، وطبعاً في نومهم وقد أصبحت كابوساً وطنيّاً للجميع. صحيح أنّ ذاكرته مشتّتة، لكنّها بالتّأكيد تشبه بؤرة عدسة مكبّرة يتجمّع فيها حصاد عشرات السّنين، من الحروب، والألوان، والوجوه، والأصدقاء. لا تجمّع فقط بل تمزج ما تحتويه أحياناً ليكون خليطاً عجيباً يضغط على رأسه بعد أن تحوّل إلى مشغل لا يهدأ. ها، ها، ها، يا لتلك السّنة اللعينة، سنة الحرب. وهنا مع ذكر تلك السّنة اللعينة ينسلّ من السّيارة ويطير في الهواء، يطير روحاً لا جسداً. ويتحوّل إلى شيطان بشريّ كليّ القدرة. يحلّق فوق البيوت الحزينة، والشّوارع النّائمة، والسّاحات الموحشة. امتلك موهبة الخروج من جسده والطّيران في الزّمان والمكان منذ أن شُلَّ وتخشّب جسده، ووجدها طريقة لا بدّ منها للعيش قبل أن يدخل ذلك اللحد التّرابيّ في تلك المقبرة المليئة بالعظام، والسّعد، والجنّ، والأرواح المحلّقة في الهواء. دخّان الحروب ما زال يدوّم فوق المدن، وتحوّل البلد إلى تابوت شاسع الأبعاد، والجميع أدرك في النّهاية أنّ البلد سقط في مدار ثقب أسود ضاعت في دوّامته تلك المقاييس التي تعارفوا عليها طوال أكثر من قرن. كلّ شيء يمكن أن يحدث ويتمّ تبريره أو إيجاد

المسوّغات له، وباختصار، لقد تلاشت المقاييس والبديهيّات، وسقط النّاس في عدميّة مقيتة. عدميّة بلا بوصلة.

في سنة الحرب تلك، وجد (هاتف) يتسكّع قرب تمثال عبد المحسن السّعدون، فما كان منهما إلّا أن يميلا إلى أقرب خمّارة في الأزقّة، وبعد ساعات طويلة لفظتهما الخمّارة سكرانين، وخطواتهما تقودهما نحو السّاحة، وكانت بغداد ميتة منذ اشتعال الحرب مع إيران، خاصّة في الليل. كان (هاتف) يقف بين الحين والآخر ليردّد قصيدة يوسف الصّايغ: استحلفكن بنات البصرة، ثمّ يعيد بنبرات عالية قراءة المقاطع، يردّدها بحزن عميق، حزن مخمور، حزن ملفوف بمئتي ألف طن من الدّاينمايت، والسّجون، والرّاجمات المرعبة. يمدّ الكلمات نحو السّماء ثمّ يهبط بها إلى المنحوتات المعلّقة على الجداريّة، جداريّة جواد سليم، ويكمل بصوت غنائيّ حزين: استحلفكن بنات البصرة، وخطواتهما تتعثّر بالظّلال تحت الجداريّة، وترقبهما من زاوية الشّارع صورة (الرّئيس) كما لو استعادت حياتها من جديد، وهي تنتصب مضاءة وسط الليل.

وكانا مرعوبين، الرّفات من خلفهما، عفواً، قصد الفرات، أو دجلة، لا فرق، يعرف أثناء استعادته لتلك الليلة أنّ ذاكرته أيضاً تخلط بين الكلمات، فماذا يفعل رجل بذاكرة مشتّتة؟ لقد أصبح واضحاً للجميع خلل آلته الجسديّة بكلّ أجزائها، وعقله في الصّدارة، وما فيه من فجوات في الحروف، والكلمات، والتّعابير، الأمر الذي يجلب له الخجل حتّى أمام نفسه. إنّه يكتب في الهواء، فيداه مشلولتان، ويعود إلى زاوية الشّارع، فمن هناك ترقبهما عيناه المرعبتان، وشارباه الصّارمان، وبدلته الحربيّة الأنيقة. تتعثّر

خطاهما ثمّ يقهقهان بوجه النّجوم، وبوجه نظراته الصّارمة المهيمنة على ساحة التّحرير. يضحكان، يشيران إلى الجهات، ويترنّم (هاتف) بقصيدة يوسف الصّايغ انتظريني عند تخوم البحر: استحلفكن.. بنات البصرة إن كان بكن حنين/ ينضج في شفتيّ الطّلع له/ وامسحن على جسدي منكن/ فبيت حبيبي تعبٌ/ وسريره من خشب القارب، أهمله الصّيادون، ونقّعه الماء قروناً.

يا لتلك الليلة، حين كانت بغداد ملكهما، أو هكذا كانا يظنّان، فمن السّذاجة ألّا تعرف ما يدور حولك. وخلاصة السّذاجة وإكسيرها هي أن تنظر إلى العالم من ثقبك الضّيّق مثل مخرج ضفدعة. وكانت الخمرة تنقلهما بجناحَين ناعمَين فيحلّقان فوق البنايات العالية، وسعف النّخيل وذرى النّبق، ويتطلّعان إلى مياه دجلة السّاكنة مثل بركان هامد. وراح (رسول) يغنّي هو الثّاني كأنّه هدهد يرقص على سعفة لنخلة فارعة تطاول الغيم:

يقول لي الفقيهُ أأنت تشربْ؟؟؟/ فقلتُ نعم فقال بأيّ مذهبْ؟؟/ فقلتُ على المذاهب دون فرقٍ/ ولكنّ النّواسيّ المقرّبْ، ثمّ فجأة ينقض عليهما ثلاثة أفراد من الشّرطة كأنّهم عفاريت نبقت من الظّلام.

- أنتما سكرانان يا أولاد العاهرة، وتحت صورة السّيّد الرّئيس؟

فشلتهما المفاجأة، وجفّ نسغ الشّعر في حنجرة (هاتف)، ونسي هو بقيّة القصيدة التي كتبها قبل سنة من الحرب. تبخّر الوجود العاقل من حياتهما. واقتادتهما الشّرطة إلى سيارة النّجدة، وهي تقف في ساحة الطّيران مطفأة الأضواء. التّوسّل لا يجدي نفعاً، فكيف يمكن تبرير السّكر وقراءة الشّعر في منتصف الليل وتحت

صورة الرّئيس؟ أخبرهم (رسول) بجديّة فائقة أنّه شاعر، فعفط له السّائق الجالس خلف المقود، وقال له آخر: لا ينفع التّبرير، تغنّون وتسكرون تحت صورة القائد ونحن في حرب طاحنة؟ العيون تحلّق في الأزقّة التي تخترقها السّيّارة، وهي تدخل منطقة البتاويين من جانب القصر الأبيض. يدخلانهما إلى مركز شرطة البتاويين، ثمّ إلى غرفة صغيرة ليجلسا على الأرض. وتدور قصص التّعذيب والكي بالنّار والإهانات في مجال الخيال. ثمّ يدخل مفوّض شرطة بوجه غاضب وشاربين مطهمين، معقوفين، يتدلّيان إلى حنكه. وكان انتباهه مركّزاً على (هاتف)، ربّما أخبره الشّرطيون أنّه هو من كان يقرأ قصيدة يا بنات البصرة، ويؤشّر على صورة الرّئيس، أو ربّما بسبب وجهه المعتكر المدور وعينَيه الواسعتَين، وتعابيره العدوانيّة في كلّ الأوقات. يقول له المفوّض:

- أنت شاعر يا ابن الكلب، تسكر، وتضحك، وتغنّي تحت صورة السّيد الرّئيس؟ الجبهات مشتعلة وأنت تقرأ الشّعر؟ من تعتقد نفسك؟ هل أنت معروف الرّصافي، أم جميل صدقي الزّهاوي، يا ابن العاهرة؟

أمّا (رسول) فكان يجلس خائفاً في زاوية الغرفة، وينظر إلى أين سيصل هذا المشهد السّوريالي.

عفونة الغرف تتمدّد حتّى تمثال عبد المحسن السّعدون، وجداريّة فائق حسن، وفندقه الكرديّ، همسات وصراخ من الدّاخل، وأصوات سيّارات بعيدة تأتي من شارع السّعدون، وساحة الأمّة، وأزقّة البتاويين. يسمع (هاتف) يصيح فجأة بعد أوّل صفعة من المفوض: يعيش السّيد الرّئيس، وتتوالى الصّفعات على (هاتف)،

فلم يعد يسمع سوى كلمة: السّيد الرّئيس. السّيد الرّئيس، وصفعة على الظّهر والوجه والرّقبة. يعيش السّيد الرّئيس، ثمّ ركلة على القفا، ثمّ لحظات ليعمّ الصّمت. يغفو من هول الخمرة ودبيبها في خلاياه، وبعد ساعة أو ساعتَين أو ثلاث ساعات، يفيق من سكره ليجد المركز هادئاً وقد اختفت الأصوات. لا بدّ إنّه الفجر. تخرج الكلاب نحو الأزقّة، تفتح المطاعم أبوابها، تسير الباصات مثل ديدان طويلة في الشّوارع، تمضي إلى مدينة الثّورة، وحي العامل، ومدينة الحريّة، والدّورة، والبياع، وبغداد الجديدة، إلى هوامش بغداد النّائية. وفي مكان ما يتجمّع الجنود على باعة الكبّة، والباجة، والقيمر بالعسل، حياة الحرب تستأنف حركتها إذن. وينتبه بعد الصّحو ويحاول استعادة الليلة الميتة، ويسأل روحه هل عملنا أمراً خطيراً لكي يسجنونا؟ يرى (هاتف) نائماً في الزّاوية يشخر بخفّة، ولم يفقْ إلّا على صوت الشّرطيّ وهو يفتح الباب.

- هيّا اخرجا يا سكرانين، اذهبا. وفي المرّة القادمة إذا لاقيناكما في المكان سنرسلكما إلى الجبهة.

لم يصدّقا أنّهما حرّان ويمشيان في ساحة التّحرير بهدوء وصمت.

معروف الرّصافي، شارع فلسطين، مقهى الزّهاوي، تلك القصيدة التي كانا يردّدانها ليوسف الصّائغ، نسي اسمها؟ بغداد والشّعراء والصّور، كلا، تلك أغنية لفيروز حسبما يتذكّر. انتظريني عند تخوم البحر، لكن لا بحر في بغداد كي يرفع أشرعته ويبحّر نحو السّماء. كتبها عن البصرة يا مسكين.

***

هنا الحارثيّة، سمع (بشير) موجّهاً جملته إلى شبح ما. برج المنصور للاتصالات، حديقة الزّوراء، مول الحارثيّة الحديث، وقد منعت السّفارة الأمريكيّة شركة بناء البرج أن ترفع بناءه أكثر من ذلك كي لا يسبّب خطراً أمنيّاً على بناية السّفارة. الأمريكان فوق كلّ شيء، منذ عقد ونيف، وبناية السّفارة أكبر بناية لسفارة دوليّة في الشّرق الأوسط. والحارثيّة تضمّ أكثر عيادات للأطبّاء في مناطق بغداد. ذات يوم درّس في مدرسة اسمها مدرسة الحارث تقع مقابل مدينة الخالديّة. قبل أن يستقيل من التّدريس في العهد الحصاريّ حين أصبح راتب المدرّس لا يشتري له كيلو لحم أو بيجاما من نسيج الكدريّ الرّخيص. جلب الغرينغو حليب الدّيمقراطيّة لهذا الشّعب وتسبّب بموته، مثلما حصل ل(بشير) مع حليب الكلاب، والأطعمة لا تناسب الجسد الخطأ.

هي بغداد إذن، بغداد بكثافة سيرها، وطبقاتها المتراكبة منذ أبي جعفر المنصور وحتّى حكاية آخر قنبلة تشظّت في الشّوارع. إلى أين تأخذه (براء)؟ إلى أين يأخذه (بشير)؟ إلى أين يأخذه رأسه؟ ويسمع مواء القطط في الحديقة، مواء يفطر القلب، (بشير) قطّة صغيرة تحتاج إلى الحليب، حليب قطط لا حليب كلاب. لكنّه ليس على سريره، إنّه في العاصمة. يدور الشّريط في داخله، في تلك الفجوة الغامضة ذات التّلافيف، والمغاور، والعقد. يفتح عينَيه بغتة، ويجد نفسه في عيادة الدّكتور واثق الواقعة ضمن محلّة الحارثيّة ليس بعيداً عن معرض بغداد الدّوليّ. يجد جسده بين ذراعَي جهاز غريب، يشبه القبر، فيه تذكّر وجه (هاتف)، بحالاته كلّها، وما إن استرجع كامل وعيه حتّى سالت دمعة بين رموشه لم

يرد لها أن تنزل فتسبّب له فضيحة أمام هذه الآلة الدّوّارة. هم لا يدركون أين كان في غفوته القصيرة، لا أحد يمكنه أن يدرك ما يعتلج في ذاكرته سوى ابنه (بشير). ربّما.

وكان ذلك الجهاز يشبه التّابوت الحديديّ، آخر ما توصّلت له الحضارة البشريّة. من شاشته تشفّ رئتاه، ترتفع الكليتان وتهبطان على إيقاع الحجاب الحاجز، ويترنّح القلب يسرة ويمنة ليضخّ السّائل الأحمر في الشّرايين ويستقبل ما تجود به الأوردة. جهاز عجيب يكشف عريه الدّاخليّ، أراد أن يتكلّم، يستفسر عمّا جرى له، وأين هو، وهل ما أدخلوه فيه هو قبر أم آلة تعذيب؟ لكنّ لسانه لا يطاوعه. لسانه خشبة تلتصق بسقف فمه، ويكاد يسمع صوت فيروز ينطلق من خلف الشّخص الواقف جنب ذلك الجهاز: يا جبل اللي بعيد خلفك حبايبنا، لم هذه الأغنية وليست غيرها؟ حتّى تأتيه الإبرة الحارقة فيحسّ بها مثل قرصة برغوث تحت اللحاف في شتاء بارد. إنّه عجينة بين أيديهم، يقلّبونه، يقيسون ضغطه، يضعون حسّاسات في ساقيه وصدره ورأسه كي يقيسوا أسرار جسده. وذلك السّائل بدأ يسري في دمائه كأنّه سيل من الإلكترونات الجارحة، أو شظايا ملح ناعم تنساب إلى أكثر المناطق حساسيّة من أعضائه. يتصاعد ضغط وجهه، وتتصاعد دقّات قلبه، ولا ينطلق من فمه سوى همهمة خافتة مثل أغنية. هل مرّ أحد من معارفه بهذه التّجربة؟ كافكا المسكين كتب عن آلة العذاب تلك في واحدة من قصصه أو رواياته، لا يدري تحديداً. شيء من قبيل مستعمرة العذاب، وترجمتها مجلّة الأقلام في السّبعينيّات بعدد خاصّ عن الأدب الصّهيونيّ. ما هذه الذّاكرة الفجّة؟ تصبح بعض اللحظات

مشوّشة وبعض اللحظات حادّة دقيقة تفصيليّة كما لو كانت جهاز فحص مثل الذي وجد جسده فيه، يدور ويدور، ويسجّل البيانات، ثمّ تتصاعد النّار في رأسه وأعضائه التّناسليّة وقلبه.

لم يعد أمامه سوى أن يطير خارج التّابوت، حيلته التي يمارسها للهروب من خطر وشيك ليجد نفسه في الفندق، ثمّ يعاود الطّيران بعيداً عن جسده المقعد، لأنّ الماضي جميل دائماً، ولا يكلّف الإنسان أيّ طاقة أو خوف. شاعر فاشل يعمل مصحّحاً للمقالات والقصائد والقصص، لكتّاب في السّياسة والفنّ والثّقافة والفكر، أخطاؤهم لا تُغتفَر، ينصبون الفاعل ويجزمون الفعل دون وجود أداة جزم. معظمهم مغرورون ومنتفخون بالمعرفة السّطحيّة المبتذلة. يلعنهم، يسبّهم، يسخر منهم ومن أساليبهم المقعّرة، والفذلكة الغالبة على جمل غير مترابطة. حتّى بات يكره كلّ ما يمتّ إلى الكتّاب، والنّقاد، والمثقّفين. معظمهم متعطشون لمجد فارغ وقشريّ.

وقع خياله على تلك السّنة، السّنة الكالحة حين لم يعد باستطاعته السّفر إلى بيته، فالطّرق خطرة، وانتشرت ظاهرة القتل على الهويّة الطّائفيّة، ممّا دفعه للسكن في ذلك الفندق المتواضع، الواقع في زقاق يتفرع من شارع السّعدون. حتّى الشّرطيّ حولوه إلى كلب ميت، فكيف بشاعر مثله يشرب الخمر، ويرقص على إيقاعات جلال الدّين الرّوميّ، ويمدّ بصره خارج الأرض نحو المجرّات المهولة، وكان منظراً يجعله يسخر من الدّيانات والنّبوات، والتّعاليم المعلّبة منذ مليون سنة. الحلّ في هذه المعركة يكمن في (جبل قنديل)، وهو فندق عبارة عن حبّة عنب في عنقود من الفنادق الكرديّة يذكّره يوميّاً بمدينة السّليمانيّة حيث درس ذات يوم أخوه فؤاد. فندق من

ثلاثة طوابق، وبواجهة ملوّنة ومدخل زجاجيّ أنيق. لاذ بنفسه مختبئاً عن العالم الخطير، والقاتل، العالم المتوحّش مثل قنبلة ليورانيوم منضّد، في تلك الغرفة المطلّة على سطوح بيوت البتاويين، وهي محلّة قطنها اليهود في بدايات القرن العشرين، والعمارات البعيدة لتلك المدينة التي أحبّها منذ طفولته. أحبّها منذ السّنوات التي سمع عنها في حكايات أبيه وخاله، وما سمع عنها من أساطير تغلغلت في سماء القرية وشوارع المدينة التي درس فيها. لا يرى جداريّة جواد سليم، لا يشمّ مشروب الدّارسين في مقهى الزّهاوي، ولا يسمع آهات أمّ كلثوم في ذلك المقهى المعتم المكتظّ بدموع العشّاق وسكارى الحيدرخانة، والميدان، وباب المعظم.

يوميّاً، وقبل التّوجه إلى عمله دأب على أن يفيق في السّاعة السّادسة صباحاً. بالضّبط. منبه رأسه يعمل وكأنّه ساعة إلكترونيّة حديثة الصّنع. يشيخ البشر فلا يعود للزّمن من معنى. يتطلّع في السّماء ويرى مخالب الرّعب وهي تمتدّ عالياً ومن الجهات جميعها. طائفة قذرة ضدّ طائفة قذرة، ودين بائس ضدّ دين بائس. ذقون تجزر ذقوناً. ينبشون جثثاً لم يعد لها وجود، ويستحضرونها من بطون الكتب الصّفراء القذرة هي الأخرى. كلّ شيء قذر في هذه البلاد. الرّحمة على روح السّيّاب والجاحظ وجلال الدّين الرّوميّ والحلّاج وجده بلحيته البيضاء. جدّه المدفون في قبر يجاور قبره. غرينغو غرينغو غرينغو. يتصاعد هتاف من الأرصفة حالما تمرّ دوريّة أمريكيّة في شارع السّعدون. الغرينغو جلبوا الخراب لبيوتهم. روبوتات يضعون نظّارات سوداء لا أحد يدرك السّرّ وراءها. غزاة يتكاثرون مثل الفطر، كم مرّ من أشباههم على هذه البلاد؟ وكم أسالوا من

الدّماء؟ غرينغو قادمون من جزر بعيدة وولايات لا يعرفون سوى أسمائها، فهل سمع أحد بولاية اسمها بافالو؟ كونيتكت؟ فرجينيا؟ تبغ أم شراب ليمون؟ والغرينغو لا يأبهون كيف يعيشون، وكيف يقتل بعضهم بعضاً، المهمّ هو مصالحهم. تف، تف على الغرينغو منذ إبادة الهنود في صحاري أوهايو وحتّى قنبلة هيروشيما. اللعنة عليهم من جسر هيدسون وحتّى سقوط مدينة البصرة قبل سنوات. ولكن قبل أن يكتب عمّا حدث له في ذلك الفندق الواقع في محلّة البتاويين، فندق جبل قنديل، ينبغي عليه أن يتحدّث قليلاً عن صديقه (هاتف) ذي الوجه المتعكّر والذي كان يحبّ الشّعر، وقصائد يوسف الصّائغ خاصّة، كي لا يعطي لذلك الشّيطان حجّة دامغة على كونه يعيش حياته مستمنياً ذهنياً، وضائعاً في ماضٍ لن يعود مهما حاول جلبه من مناجم الحكايات المنسية.

***

كانوا يطلقون عليه في أيام الدّراسة الجامعيّة، تحبّباً ومناكفة، (هاتف كرش)، كونه يعشق الطّعام والشّراب، ويعشق أكلة الدّجاج المشوي بالذّات، وعادة ما يعصر عليها ليمونة كاملة.

هل يحدّث (بشير) و(براء) عمّا جرى لـ(هاتف) في فترة الحصار؟ هل يخاطب الشّيطان المتربّص خلف الباب؟ وماذا تعني للطّبيب (واثق) حكاية (هاتف)؟ لكن من يأبه، ومن يسمع؟ كان (هاتف) يقطن في منطقة الفضل، وربّ سائل يقول: أين تقع؟ في بغداد أليس كذلك؟ نعم في بغداد، وسطها. عانى (هاتف) من الحصار بشكل لا يصدق، (رسول) أيضاً عانى نفسه من الحصار، إذ

لم يعد راتبه كمدرّس، هو و(براء)، يكفي العائلة، لذلك قرّر أن يقدّم استقالته ويبحث عن عمل مجد، وخلال ذلك راح يبتكر لنفسه مهنة لا تخطر على البال. ابتكر بسطة أمام بناية السّينما. هي لا تبعد سوى مئات الأمتار عن تلك المكتبة المقبّبة، المزخرفة، وبمواجهة جامع الشّيخ عبد الجليل، بالضّبط. وكان يبيع فيها الجوارب والقمصان والبيجامات وأكياس الورق للمتسوّقين وأصابع حمرة للنّساء، وغير ذلك من حاجات بسيطة اعتاد أن يجلبها من سوق الشّورجة وسط بغداد، بين الفترة والأخرى. كلّما نزل للتّسوّق من بغداد يلتقي بـ(هاتف) ويتجوّلان في الحارات العتيقة التي يعرفها هو جيّداً، كونه ابن العاصمة، وُلد فيها وقُتل فيها لاحقاً، مثل قنبر علي والتّوراة والدّهانة وشارع الكفاح والفضل والكرنتينة والعيواضية والميدان، أو يتوغّلان في محلّات الكرخ عند المساءات الشّتويّة الباردة. يتذكّران أيّام الدّراسة الجامعيّة، وأحلامهما الورديّة قبل أن تدخل البلاد في نفق الحروب. وقد رأى بيته في واحدة من تلك الأزقّة الضّيّقة في منطقة الفضل، وكاد أن يتحوّل إلى ركام. فقد دأب على بيع كلّ ما يستطيع الاستغناء عنه من بعض الشّبابيك، والأبواب، والبلاط، والطّابوق، وغير ذلك من تفاصيل البيت كلّما كان بحاجة إلى نقود. وكان يبيعها في سوق الشّورجة، أو تحت جسر النّهضة حيث يعقد كلّ جمعة سوق للبضاعة المستعملة.

وأتته فكرة غريبة حين كانا ذات يوم في سوق الغزل، وكان يوم جمعة، لذلك كان الشّارع مكتظّاً كالعادة. الأرانب في أقفاص ممتلئة بالحشيش والجزر، طيور الدّيك الرّومي تتجوّل بين أرجل المارّة مربوطة بحبال ناعمة إلى سواعد أصحابها، كلاب مدرّبة على

الصّيد والحراسة من تلك التي يطلق عليها اسم الكلاب السّلوقيّة. ببغاوات تعجّب (رسول) كيف يجلبونها من خارج البلد، وكانت تذكّره ببغاوات غارسيا ماركيز التي عادة ما يلاقيها القارئ في قصصه ورواياته. دجاج بمختلف الألوان والأنواع، ماعز صغير يتأمّل مذعوراً بحشود البشر وطواويس ملوّنة الرّيش. دجاج إسبانيّ بأعراف حمراء مسطّحة، غزال الرّيم صغير الجرم بقرنَين معقوفَين إلى الدّاخل، وكان ينظر بغرابة ورعب إلى الوجوه. وكانت وجوه المارّة والمتسوّقين تنمّ عن قسوة لا يمكن تصوّرها، وعن نفور طاغ من الحياة، وعدوانيّة مختزنة تنتظر منفذاً للتّفجّر. قسوة صنعتها، ببراعة إله، حروب متعاقبة وأحقاد تاريخيّة وهجرات وإعدامات وتعذيب في سجون وزنازين تحت الأرض. كارتونات للملابس، وأقفاص لسقط المتاع، وسلال تغصّ بالأفاعي من كلّ حجم ونوع. نعامات إفريقيّة، ببغاء نيبالي، قرد مربوط بسلسلة حديديّة يحدّق بدهشة في الحشود، ويتأهّب للعراك، كلّما مدّ أحدهم يده للمسه. هامسترات حمراء الفراء وعقاب ذهبيّ.

وحين انشغل (هاتف) بمساومة مع بائع يمسك دجاجة بيّاضة صعد (رسول) على حجرة ضخمة عند الرّصيف، وبدأ يتأمّل في الحشد الممتدّ حتّى ساحة السّنك. رؤوس شابّة أغلبها، كما فكّر اليوم، لم يعش حتّى انقلاب حياة المجتمع بعد احتلال أمريكا للبلد. شباب قلق يتدافع لا يعرف نحو أيّ جهة يمشي، بأزياء غريبة أحياناً، خليط من الدّشاديش والبنطلونات والثّياب التّقليديّة للبدو وشراويل كرديّة. وهذا يمسك بطير نادر وذاك يجرّ خلفه معزى بيضاء، وآخر يمسك بقفص مليء بالعصافير. وسط بحر الرّؤوس،

جذب القفص نظر (رسول) في الحقيقة، وظنّ أنّ صاحبه يرغب في بيع تلك العصافير جملة، وحين اقترب منه أدرك اللعبة. كان يبيع الحريّة، حريّة تحرير عصفور من القفص، وكأنّه يخاطب في الجموع هاجس النّبل في أرواحهم. الحريّة مهنة، قال لروحه بذهول، تصبح أحياناً شعاراً، وأحياناً بضاعة، إذ يمكن لشخص يدفع مبلغاً من المال أن يمدّ يده ويلتقط عصفوراً رماديّاً من القفص ثمّ يطلقه إلى الفضاء. وهكذا رأى العصافير تفرّ هاربة نحو ضفاف دجلة غير مصدّقة لما يجري لها. تعجّب كيف ابتكر ذلك الشّابّ هذه المهنة كي يعيش فترة الحصار القاتلة. تخيّله يمضي إلى الرّيف كلّ أسبوع ليصطاد عصافيره ويجمعها في القفص، ثمّ يؤمّ سوق الغزل هذا ليوفّر لنفسه كميّة من الدّنانير. وكان لا يدع عينَيه تفارقان صديقه (هاتف)، وخاف أن يضيع بين الجموع.

لمحه من بعيد وهو يضمّ تلك الدّجاجة إلى صدره ويقف متطلّعاً في البشر، وفي تلك الضّجّة المصمّة حوله من نداءات باعة، إلى أصوات طيور، إلى نباح كلاب زينة أو كلاب صيد تتهارش فيما بينها، ومشادات البشر وحواراتهم العالية، وزقزقات كناري ملوّنة في أقفاصها، وفحيح ثعابين وهي تنظر بعيون زجاجيّة نحو الأفق. ببنطال رمادي مجعلك، وقميص رماديّ هو الآخر، وصندل جلديّ مستعمل، وشعر أسود مبعثر على جبينه، لبث (هاتف) واقفاً أكثر من نصف ساعة. كان يحدّق في الحشود، مرّة نحو ساحة التّحرير وأخرى نحو منطقة السّنك. ينظر في واجهات العمارات المحيطة بالشّارع أو يتأمّل وجوه العابرين عن يمين وعن شمال، وحدس أنّه يفكّر بعمق في قضية ما لا علاقة لها بالشّعر، والأدب، واللغة وقصائد

يوسف الصّائغ. وهذا ما تكشّف بعد أسابيع حين عاد (رسول) مرّة أخرى إلى سوق الشّورجة لشراء حاجات إضافيّة لبسطته.

رآه ذلك اليوم صدفة في حديقة اتحاد الأدباء والكتّاب قرب ساحة الأندلس في بداية الصّيف.

دخل مبنى الاتحاد واتجه نحو قاعة البار، وفجأة رأى (هاتف) يضع ربع عرق زحلاوي على طاولته، مع صحن من اللبلبي وسلطة الطّماطم مع الخس، ووجده يدخّن بإفراط كعادته، ويلفظ الدّخان نحو السّقف وكأنّه يحارب طواحين الهواء. رحّب به كثيراً ما إن دخل من الباب، ودعاه للجلوس إلى طاولته وأخبره منذ البداية بأنّه معزوم على حسابه، وسيكون ضيفاً مدلّلاً على بغداد. وهو ما أدهش (رسول) حينها، هو يعرف وضعه الصّعب في تلك الأيّام، الحصار المرّ مثل شجرة الزّقّوم، والرّواتب البائسة، والبحث عن ضوء في نهاية النّفق، فشعر (رسول) بالحرج قليلاً، ولكنّه جلس بقلق، وبدأ يتلفت إلى الطّاولات المحيطة بهما علّه يجد أحداً من معارفه السّابقين، وكانت عتمة الصّالة والدّخان المتصاعد من المدخّنين، والحوارات العالية بعض الأحيان، تدفعه إلى أن يقدّر من خلال كلّ ذلك، ويحدس بأنّ صديقه (هاتف) كما لو كان بحاجة إلى شخص قريب، مثله، لكي يحدّثه عن حياته الخاصّة.

تبادلا الكؤوس، بمودّة وشوق، وبدأ (هاتف) يخبره شيئاً فشيئاً، وبتفصيل مملّ، عن التّحوّل الحياتيّ الذي بات يعيشه:

- هذا هو السّبيل الوحيد لتدبير معيشتي قال. لقد فكّرت في ذلك اليوم الذي زرنا فيه سوق الغزل أنا وأنت، بأن أدخل في هذه التّجارة. لا تكلّف شيئاً سوى الشّطارة وبعض التّعب، وأنت تعرف جيّداً أنّني

أعشق الطّيور، لذلك اجتمعت بصديقَين عزيزَين عليّ هما سعدي فرحان وسليمان ياسين، وهما صديقا طفولتي، وكان ذلك بعد يومَين من لقائنا في سوق الغزل. التقينا وجلسنا على هذه الطّاولة نفسها، وطرحت عليهما فكرة التّجارة بالطّيور. واجهتنا معضلة لم أفكّر بها، هي من أين نجلبها، وبأيّ الأسعار، وكيف نحملها، وأين نضع الطّيور التي لا تباع؟ نعم، المشكلة الرّئيسيّة أمامنا كانت من أين نجلبها، وقرّ قرارنا على مدينة بعقوبة، فهي قريبة على بغداد، والأسعار فيها أرخص كما قال لنا سعدي، وأنت تعرف إنّه من أصول أسريّة تنتمي إلى مدينة بهرز، جاءت إلى بغداد في أيّام الحرب العراقيّة الإيرانيّة. يعرف المدينة جيّداً، أيّ مدينة بعقوبة، وهكذا بدأنا الخطوة الأولى. في يوم آخر اتفقنا على شراء سيّارة حمل صغيرة من نوع (تويوتا بيك أب)، تعود إلى السّبعينيات. قديمة لكنّها نظيفة، سعرها مناسب. وجدناها في أحد معارض منطقة النّهضة، وساهم كلّ واحد منّا بجزء من السّعر، ووجدنا المشروع على سكّة ميسّرة فبدأنا بالعمل. وكان سائقنا سعدي، كونه يمتلك إجازة سوق، ويعرف المدينة وقراها وشوارعها، أيّ مدينة بعقوبة.

وفي هذه الأثناء كانا يرتشفان كؤوس العرق كما لو كانت ماء زلالاً هابطاً من جنّة السّماء السّابعة. ومن التّلفزيون المركون جنب الباب كان الشّاعر عبد الرّزاق عبد الواحد يلقي قصيدته الشّهيرة عن العراق، في الشّاشة، وقد جذب انتباه (رسول) قوّة الشّعر في القصيدة، رغم أنّه لا يستهويه كشاعر لأنّ سمعته كمدّاح للرّئيس طغت على شعريّته. وجنب التّلفزيون كانت تجذب انتباهه صورة الرّئيس وهو يمتطي فرساً مطهماً ويبتسم للمصوّر. وكثيراً ما رأى صوره مرّة على

فرس ومرّة يقف في شرفة يطلق النّار أو يلبس كوفيّته المرقطة الدّالة على الأصالة. أصبحت صوره شاشة عرض ثابتة تنتشر على كلّ خارطة الوطن منذ أوّل حرب استعرت في الشّرق. وساعة بعد ساعة، لاحظ (رسول) القاعة تمتلئ بالشّاربَين، ويتصاعد اللغط والدّخان وروائح المازات. وكلّ ذلك كان يختلط بالحوارات الجادّة، والهامسة، والرّؤوس المتلفتة من رعب ما يشيع في الهواء الفاسد داخل القاعة. بلغت الوشايات والدّسائس وكتابة التّقارير موجة هائلة، تغلغلت حتّى وصلت العائلات والأقرباء والتّجمّعات البشريّة في المقاهي. وكان ذلك إثر هرب حسين كامل وأخوه صدام كامل، زوجي بنتي الرّئيس، إلى الأردن وعقد حسين كامل مؤتمراً حضرته الصّحافة العالميّة والتّلفزيونات المؤثّرة مثل CNN، وBBc، والتّلفزيون الفرنسيّ، وعدد كبير من وسائل الإعلام العربيّة، ممّا شكّل ضربة مهولة على رأس القائد الضّرورة. وكان الخوف هو ما يسود في قاعة الاتحاد الرّئيسيّة. قال (هاتف) مواصلاً مونولوجه الغريب:

- نفّذنا أوّل رحلة إلى هناك قبل أسابيع، حدّثه وهو يتلبّث محدّقاً بعينَيه الواسعتَين وكأنّه ينتظر الدّهشة التي ستنال من انتباهه وهو يهمس له بكلمات متلاحقة عن مشروعه، المجنون، كما فكّر (رسول) مع نفسه. من مثقّف حداثيّ إلى بائع دجاج. ثمّ تابع بجديّة مطلقة: أجل، رحلنا منذ الفجر ثلاثتنا، ووصلنا هناك عند شروق الشّمس، وكان السّوق يقع وسط المدينة. أفطرنا القيمر مع العسل في مقهى صغير قرب وقفة الطّيور، ثمّ شربنا الشّاي الثّقيل، ودخنّا السّجائر السّومر، وبدأنا جولتنا في السّوق، وفي جيوبنا ما يقرب المائتي دينار، ويُعتبر مبلغاً معقولاً لتجارة مثل

تلك. من جانبي باعت زوجتي قلادة من الذّهب في شارع النّهر لكي نغطّي حصّتنا من ثمن السّيّارة، بينما باع سليمان قطعة أرض ورثها من أبيه في منطقة السّيديّة، وأبوه كان شرطيّاً متقاعداً ثمّ مات بالسّكتة القلبيّة عند انتهاء الحرب مع إيران. وهكذا فعل سعدي. كانت السّوق غريبة عجيبة. لا يمكن القول بأنّها سوق منظّمة كالأسواق التي نعرفها، بل هي سوق تسبح في الفوضى، وأنت تعرف ظروف البلد بعد احتلالنا للكويت، وتلك المذبحة التي حصلت على طريق البصرة بعد انسحاب الجيش مهزوماً من هناك. تجد القرويات وهنّ يفرشن على الأرض بضاعتهن من بيض، ودجاج، وطيور بريّة، وديك روميّ، ولبن رائب وزبدة ودهن حرّ عربيّ. وكنّ يأتين من القرى والنّواحي المحيطة بمدينة بعقوبة مثل خرنابات، والهويدر، والعبّارة، والمخيسة. تعرف أنّ بعقوبة التي نسمّيها (جمهوريّة البرتقال) تحيط بها بساتين وقرى من كلّ الجهات. واشتُهرت ببيئتها الملائمة للطّيور والحمضيّات والزّراعة. وهناك من يضع أمامه ثمرات بستانه من مشمش وتين ورمان وخيار وعجّور، وهناك من يضع أكداس البرتقال على حصيرة من البردي أو مفرش من الجوت. وطبعاً كنّا نتجوّل ونعامل على البضاعة، وكنّا نفضّل طيور الدّيك الرّوميّ، علي شيش، أو الفسيفس كما نعرفه باللهجة العراقيّة، فهو مرغوب في سوق الغزل البغداديّ. وعادة ما نلمح أشخاصاً مريبين يتجوّلون بين الأزقّة والشّارع الرّئيسيّ، أولئك سميكو الشّوارب والنّظرات الحادّة، وخمّنا أنّهم من رجالات الأمن، وكانت الأيّام أيّاماً صعبة شاعت فيها التّقولات، والرّيبة من الجميع، والخوف الشّامل العميق من مستقبل لم يعد

يتكهّن به أحد، وذلك بعد هزيمتنا المنكرة في الكويت، والحصار الحديديّ على البلد. هل تتذكّر تلك الليلة التي قبضوا علينا فيها ونحن سكارى؟ شرطة البتاويين، وتلك الصّفعات التي كالوها لي لا يمكن نسيانها. لماذا؟ كنّا ننشد قصيدة يوسف الصّائغ أستحلفكن نساء البصرة، يا كلاب وماذا في ذلك؟ هل تتذكّر؟ لن أنساها لهم. الكلاب. على أيّة حال نبقى في تجارتنا. نشتري الدّجاج والفسيفس والحمام، وبعض الأحيان الأرانب من تلك النّسوة. نشتري ونشتري حتّى نقضي على النّقود، ولا يبقى لدينا سوى ثمن البنزين الذي كنا نتزوّد به من محطّة وقود (بانزينخانة) تقع قريباً من نهر خريسان، ثمّ نعود إلى بغداد عند العصر. وقد جهّزت قفصاً ومرتعاً للطّيور في بيتنا، في ذلك المنور الصّغير المفتوح على الفضاء في نهاية المطبخ، وضعت شبكة حديديّة على جزء من الفسحة، واعتدنا أن نجمع في ذلك المكان الشّبيه بالقفص بضاعة كلّ سفرة منتظرين يوم الجمعة. كنّا نذهب كلّ يومين أو ثلاثة تقريباً، لنصطاد البضاعة المرغوبة في سوق الغزل. نجمع كلّ تلك الطّيور في بيتي ثمّ نتفق على يوم الجمعة، نحضر أنا وسليمان وسعدي في السّاعة الثّامنة مع سيّارتنا الـ(بيك أب) المليئة بالطّيور من كناري ودجاج وديوك رومية وأرانب وزنابيل من البيض وعلب الزّبدة والدّهن الحرّ والفواكه في صناديق وأكياس. ونضع كلّ ذلك أمام أنظار المارّة والمتسوّقين والمتسكّعين، حيث نرفع سعر الشّراء بضعة دنانير، وكان المحصول مناسباً لنا. وقد صرنا معروفين لدى الفلّاحات ورجال الأمن، وعند وقفة لالتقاط النّفس سأل (هاتف) بجديّة مطلقة: لماذا لا تشترك معنا في هذه التّجارة؟

سأله في نهاية مونولوجه الطّويل المفصّل، ولم يعودا يميزان بين الحمّص وحبة الطّماطم، الشّاعر عبد الرّزاق عبد الواحد من المغنّي ياس خضر، ومات تساؤل (هاتف) في دهاليز الضّجيج وخيالات الخمر المدوّمة، وراحت الصّالة تموج بهما من السّكر ففضّلا الخروج قبل أن يغيبا عن الوعي، ويحدث معهما ما حدث في ساحة التّحرير قبل سنوات. لا غرابة في تحوّلات (هاتف)، فهي حالة عامّة، ترك أساتذة جامعيّون وظائفهم وامتهنوا العمل على سيّارات أجرة، وباع أدباء معروفون مكتباتهم في شارع المتنبي، واستقال بعض المعلّمين والمهندسين من وظائفهم ليشتغلوا في أعمال حرّة تكون فيها الرّواتب أضعافاً مضاعفة من رواتب الحكومة. وفضّل (هاتف) العودة مشياً إلى ساحة التّحرير، ليمضي بعدها نحو أزقّة الفضل، وهو لاحقاً إلى الفندق الذي عرفه منذ فترة سنتين. كلّما تأخّر في بغداد يحجز فيه ليلته ويعود صباحاً إلى مدينته. وجدا بغداد خائفة، مثل حيوان هامستر، تغافلهما فتختفي خلف جدران كنيسة أو تلوذ بفناء جامع، تطير مع البوم بين الشّجر والسّعف أو تدبّ مع كنّاسي الشّوارع بمكانسهم الخشب، أو تنقضّ عليهما ركلاً وضرباً ومسبّات كما لو كانت ساحرة من القرون الوسطى. الشّارع فارغ سوى من سيارات النّجدة وسكارى آخر الليل، و(هاتف) لم يتوقّف عن الكلام كعادته، حتّى افترقا.

ولم يره منذ تلك الليلة، وعرف من صديقه سعدي ذات يوم، حين كانت القوّات الأمريكيّة تتأهّب لغزو العراق بأنّه استطاع أن يتفق مع لجنة يمنيّة وفدت إلى بغداد للتّعاقد مع مدرّسين، فنجح هو وصديقه سليمان في الحصول على عقد عمل للتّدريس في

العاصمة صنعاء. تزوّج أثناء الحصار من فتاة تمتّ له بقرابة، وأنجب بنتاً سمّاها ميساء، وابناً سمّاه أحمد، وزوجته تشتغل في دائرة بريد باب المعظم. اختفى عنه كلّ تلك السّنوات. وفي يوم ما، بعد غزو اليانكي وإعدام الرّئيس، وكان (رسول) جالساً في مقهى الشّابندر القريب من تمثال المتنبي على كتف نهر دجلة، رأى (هاتف) وقد خفّ شعره، وصار يرتدي قبّعة ليخفي صلعه. وكانت لحيته تميل إلى البياض، وكانت مفاجأة غير متوقّعة لكليهما. يمّما طريقهما إلى حانة أبي سمير بعد ظهيرة ماطرة.

أخبره (هاتف) بأنّه يعمل في جريدة الصّباح العراقيّة محرّراً في القسم الثّقافيّ، وطلب منه قصائد لينشرها، وأكّد له أنّ الجريدة تدفع مكافأة للنّشر، ولكنّ (رسول) كان يعمل في تلك الجريدة كمصحّح، لذلك شكره على العرض وسكرا سكرة هائلة. وكان ذلك قبل أن يلتقي بصديقه الألمانيّ جورج الذي جاء يستطلع تأثير اليورانيوم المنضّد على البشر في العراق. ودّعه في ساحة التّحرير أيضاً فمضى إلى بيته في محلّة الفضل، ومضى هو إلى فندقه الأليف جبل قنديل في محلّة البتاويين، وجاء مقتله عقب تفجير دام، شطره شطرين، وأصابه بالذّهول، في ذلك الصّباح التّافه المغبّر من جمعة من جمع سوق الغزل.

***

يتذكّر اليوم النّكد، الدّامي جدّاً، اليوم المنفوخ كأنّه مجرّة درب التّبّانة في ليلة ديجوريّة، يتذكّر ذلك اليوم حتّى وهو بين ذراعَي التّكنولوجيا المرعبتَين، كيف أفاق من نومه في غرفته البائسة الملقاة بواحد من طوابق الفندق الثّلاثة على أصوات انفجارات قريبة منه

عرف أنّها وقعت في سوق الغزل. إذ رأى الدّخّان الأسود من الشّبّاك المطلّ على السّطوح وهو يتصاعد مثل فطر سامّ في سماء المنطقة.

وصادف أنّ صديقه (هاتف) لم يكفّ عن هوايته تلك في عشق الطّيور والحيوانات، حتّى بعد أن عمل محرّراً محترماً في جريدة الصّباح الرّسميّة. جاءت قذيفة الهاون قربه تماماً فقضت على قرد إفريقيّ من صنف الشّامبانزي، وثلاثة طيور من الدّيك الرّوميّ، وخمس عشرة من السّلاحف محشوّة في قفص بائع جلبها من أرياف أبي غريب، وعشر ببغاوات هنديّة، فكره روحه وبغداد والكتب والعالم. قيل إنّ قذيفة الهاون أُطلقت على المنطقة الخضراء، والسّفارة الأمريكيّة تحديداً، من قبل المجاهدين، فضلّت طريقها وسقطت في سوق الطّيور. وسمع شائعة تقول إنّ القذيفة شطرت جسد (هاتف) شطرَين.

بيومه ذاك جلس سكراناً في الغرفة، مثل سكراته التّاريخيّة التي يتذكّرها، وخبرها سابقاً في مختلف الظّروف، سواء في غرفته في الكرنتينة أو صالونهم الواسع، وفي البارات والمقاصف، وفيها تتباطأ كلماته وتنمطّ جمله، بانتقال غير مفهوم من موضوع إلى آخر، وتكرار أفكاره، ثمّ التّعثّر في المشي، وأحياناً السّقوط على الأرض. لم يخرج من الغرفة حتّى اليوم الثّاني، وظلّ يقرأ قصيدة الحلّاج في ديوانه الذي يحمله معه أينما ذهب، ويبكي. قرأ وهو ينوح، ويلطم وجهه، ويحتسي الكؤوس: وَاللَه ما طَلَعَت شَمسٌ وَلا غَرُبَت/ إلّا وَحُبُّكَ مَقرونٌ بِأَنفاسي/ وَلا جَلستُ إِلى قَومٍ أُحَدِّثُهُم/ إِلّا وَأَنتَ حَديثي بَينَ جُلّاسي/ وَلا ذَكَرتُكَ مَحزوناً وَلا فَرِحاً/ إِلّا وَأَنت بِقَلبي بَينَ وِسواسي/ وَلا هَمَمتُ بِشُربِ الماءِ مِن عَطَشٍ/ إلّا رَأَيتُ خَيالاً

مِنكَ في الكَاسِ. لبث يقرأ ويرقص طوال تلك الليلة، حتى اجتمع عليه سكان الفندق وصاحبه، فخجل من الجميع ونام مثل قتيل، وكأن نصفاً دسماً من حياته ذاب في آتون هذا البلد الملعون.

ولأنّه تحوّل إلى ذاكرة مجرّدة من الأرقام، لم يعد لأسماء السّنين من معنى، ما الفرق إن حدث ذلك في نهاية القرن أم بعده أم قبله، فلا شيء سوى الدّخّان، دخّان المعارك وزفرات البشر الحارقة، ومعاناتهم، وقسوتهم، وبحثّهم الفجّ عن مهرب أو نفق أو ضوء قد يكون، في النّهاية، سراباً ليس إلّا. ووجد روحه هائمة في ديماس وجوديّ عجيب بين الواقع والحلم. شاعت لديه الكوابيس منذ الحرب العراقيّة الإيرانيّة، وما تلاها من حصار ومطاردات ووشايات، فمرّات يجد نفسه في شارع مكتظّ بالبشر، أو وسط حقل مزروع بالذّرة تطير فوقه غربان ضخمة تزعق بنفور فيظنّ أنّه في حلم ليليّ، ومرّات يقف على السّطح في بيتهم ويرى الصّحارى النّائية والنّخيل والسّيارات في الشّوارع فيعتقد أنّه داخل صباح عاديّ من صباحات الصّيف ليتبيّن أنّه حلم في قيلولة ظهيرة ساخنة. ديماس وجوديّ طويل لم يعد يتذكّر وقت حدوثه، حيث غابت شمس المدينة وخلّفت وراءها شفقاً أحمر مرعباً، كسا دجلة بالدّم، وجثم على موجه كالغمامة، وهال مرآه النّاس أجمع. ومن زمن طويل، شاهد المدينة تنسحب خلف الجدران طلباً للأمن واللذّة، وليس حوله سوى الكلاب وخلاء الأرصفة والوحشة.

رأى الكلاب تلوذ في الظّلام، إلى المنعطفات والخرائب والأزقّة هاربة من وقع خطاه الرّانّة على أسفلت شارع السّعدون. كان يمشي بتراخٍ، عيناه تتقدّان من الأرق، مؤمناً أنّ حياته لا تحتمل،

لكن، ما الذي يمكن عمله وسط جنون المدينة وتمزّقاتها؟ فبعد أن غاب الشّفق وادلهمّت السّماء وحاصرته الرّؤى، ظلّ في بحثه المتواصل عن منعزل ينام فيه ولا يجلب له الرّيبة. هل كان ثملاً تلك الليلة؟ نمت في وجهه لحية نافرة، أمسكها بيد ملطّخة بالقلق والفحم، وانعطف من شارع السّعدون المؤدّي إلى الجسر، داخلاً شارعاً فرعيّاً تسامقت على جانبيه أشجار اليوكالبتوس وواجهات أبنية قديمة، يشمّ رائحة شناشيلها ومزاغلها وبراويزها، بألفة ابن المدن، وتزيد من العتمة المترسّبة على فضاء ذلك الشّارع المهجور. وجد المكان يطفو على بحر من الهدوء، لكن ومن قاع ذلك الهدوء، ورغماً عن سكينة النّهر القريب، عادت وللمرّة الألف، تلك الأصوات المرعبة تقضّ تماسكه وتهدم أمانيه. ظهرت من الليل وهدأته دوريّات لاغطة ونداءات لاسلكيّة وقرقعة بنادق جزم أنّها، وبمثل هذا الوقت، لا بدّ أن تكون منبعثة عن مجمع قصر الرّئاسة بحرسه، وضيوفه، ومفتشيه، وضباطه، ولجان الحرب، ولجان السّلم، فقرّر الرّجوع والابتعاد كي يهيم نحو الأحياء النّائية، لولا الظّهور المفاجئ لبناية خربة عتيقة كأنّما انبجست من عالم الأوهام وأوقفته ليتأمّلها بدقّة. لا أضواء ثمّة ولا بشر. ولمّا لم يلمح أحداً يراقبه، تقدّم إلى الباب المتآكل ودخله متوجّساً، فجابهته رطوبة القدم ورائحة أسماك ميتة وعفونة لا يعرف مصدرها.

لم يكن في مدينة قونية جلال الدّين الرّومي، بل ألفى نفسه وسط حوش مليء بالعلب الفارغة والزّجاج المتشظّي والأوراق، وحوصر بأعداد هائلة من الغرف تحيط بالحوش مبنيّة من طابقين، وثمّة على بعد أمتار منه، لمح عموداً هائلاً من الطّابوق يرفع ثقل

جدران لا ترى، وفكّر أنّه سيكون متكأً مريحاً لرأسه المتعب. استلقى إلى جانب العمود وانغمرت عيناه بشكل قسريّ في ظلام غرفة على يمينه، يواجه بابها المفتوح مثل عين حيّة، بعث مرآها الخوف بقلبه وتساءل عن السّرّ الكامن وراء كثرة تلك الغرف وما تحويه. لم يكن في الفندق إذن، ولا في مدينة السّليمانيّة، كما أنّ المشهد لم يجرِ في بيته، لكنّه في قبضة ذلك الدّيماس العجيب، وكأنّه عالم موازٍ كما تشرح علوم الفيزياء الحديثة.

ملّ الظّلمة فأدار رأسه إلى الجهة الثّانية، فطالعته ظلمة أشدّ، عميقة متحرّكة. إنّها غول، إنّها سعلاة خارجة من أمواه دجلة، مارد من مردة بغداد تغريه الخرائب وتجذبه الكهوف. كلّا، إنّها شجرة توت هرمة هرم البناية، متشابكة الأغصان ذات تاج أسود وريح سلسة، فما كان منه إلّا أن قام من مكانه ومشى نحوها. وضع (رسول) يده على ساقها، تحسّسه، يده التي من فحم ورعشة مسّت القشرة وارتطمت بالخربشات والنّدوب التي خلّفها الزّمن. وجهه ساق، وتجاعيده خربشات كتبتها المدينة بمداد من الرّعب، والمطاردات، وانعدام الأمان. لكن رغم ذلك، هو حيّ على الأقلّ، الشّيء الذي لا يستطيع أحد إنكاره. لم تصبه قذيفة هاون، ولا فتحت النّار على جسده دوريّة أمريكيّة، ولم تختطفه الميليشيات المتكاثرة مثل فطر بريّ. ولتوكيد حضوره وسط ليل المدينة المريب، وسطوة هدوء البناية دخل أوّل غرفة وجدها أمامه، وكان شبّاكها مفتوحاً، الشّبّاك ضوء متجمّد لا ينبئ عن شيء ولا يكشف شيئاً. سمع حركة خافتة واستراب من أمر مريب، فتراجع إلى الباب بإحساس فطريّ بالخطر، نما وكبر على مرّ أيّام الخوف والتّشرّد. إنّه

مطارد من الزّمن والشّرطة والأطفال والحجارة ونوارس دجلة والكلاب أيضاً، مثل من يسبح في عالم غير عالمه.

وبفضول مرضيّ راح يلج الغرف واحدة إثر أخرى دون أن يعرف ماذا يبغي بالضّبط، سوى أنّه راكن لإحساس لذيذ، إحساس المتسلّل إلى ماض مليء بالألغاز والرّوائح البشريّة والقدم، ماض عالق بالجدران والمسامات الآجريّة وثنايا الشّقوق. الماضي الخدر، المتوهّج، المفقود في حكاية منسيّة. الماضي الذي غفا في إحدى زوايا رأسه وها هو يستيقظ من جديد. من السّطح دوى وقع أقدام راكضة، وأبصر قطّة تطالعه بعينَين مضيئتَين، إنّهما نجمتان سطعتا في الأفق، كلّا، شبح نهريّ، عيون دجلة التي لا تنام. رفع حجراً من الأرض وقذف القطّة به فهرولت هاربة صوب ضفاف النّهر المدغلة، وعاد إلى عموده بغية النّوم. رأسه فائر بالماضي والذّكريات والأحداث فما غمض جفناه، واستعرض خارطة الخرابة ووجوه أصدقائه القدامى، (هاتف) وعمر العروسي وثامر الفنان، وأخيه فؤاد، بيوت المدينة وأزقّتها وحاراتها، أموات الحرب، النّور، الظّلمة، الغرف السّريّة المائلة على رأسه، شارات القصف وشارات السّلام. ما للأشياء تتغيّر وتسرع في الغياب، ما للحياة تجنّ كلّ هذا الجنون؟

الحرب، الحرب، الحرب.

الحرب جثث وأشلاء، اختفاء وفقدان، قتل واحتراق، إنّها شوارع فارغة كشارع أبي نؤاس والكرادة، وجنون مطبق كجنونه. في داخله ترسّبت قرقعة عالية أيقظت حواسّه، ظنّها القطّة مرّة ثانية، فحدّق نحو السّطح، لا قطّة ولا كلب، لا شبح ولا مارد، متاهات الغرف المتراصّة والأعمدة الحجريّة التي تكاد تهوي لتسحقه، ها هي

ترقص أمامه رقصة التّداخل والميلان والانحناء. الأعمدة الحجريّة والغرف المظلمة، وليل بغداد الخشن.

في الطّابق الثّاني شاهد غرفة ذات موقع غريب تنتحي يسار البناية، تنزلق إلى الخلف، لم يعد بينها وبين السّقوط في النّهر سوى أمتار قليلة، تساءل إن كانت منتجعاً لأمير من أمراء عصر المماليك، استراحة لجميلة من جميلات بغداد، نفقاً للهروب، نفقاً لتصريف جثث غير مرغوب فيها، منفذاً لدخول نساء غير محتشمات؟ أسئلة راحت تبزغ في ذهنه وتلقيه إلى بحر من الهواجس، ولو تكلّمت شجرة التّوت لباحت بالسّرّ، لكنّها مثلك يا (رسول)، دون فم، دون لسان، آذان فقط، وما أصعب أن يتحوّل المرء إلى آذان فقط. وكان ثمّة درج يقود إلى السّطح، راح يرتقيه علّه يقوده إلى استجلاء السّرّ، وتقدّم بضع خطوات إلى غرفة الملوك والأميرات الجميلات ففاجأه انقذاف جسد أبيض طويل من إحدى الزّوايا، مرّ بسرعة خاطفة بالقرب منه. كان كلباً رآه يقفز ثمّ تابع عدوه السّريع إلى الشّارع حتّى غاب، وفكّر أنّ دخول الغرفة يحتاج إلى جرأة استثنائيّة، لكن مع ذلك دخل (رسول) متحسّساً طريقه بصعوبة. دخل الغرفة ثمّ بحث عن النّافذة. إنّها هناك، نعم، تحجب دجلة كقطعة صلبة من الضباب. تقدّم، تعثّر، أمسك الدّرفة العتيقة المغلقة كمحارة نهريّة، عالج الخشب فصرّ والمغاليق فتكسّرت، وأسفر له النّهر عن مائه، ها هي الضّفاف تقابله ويكاد يلمسها بيديه. الضّفاف المنوّرة وادعة الأشجار، النّائمة الملتفّة بجلال اليوكالبتوس وشموخ الأثل ورهافة الدّفلى. لمَ حُرم من كلّ ذلك الجمال؟ وأحسّ برائحة إنسانيّة تتطامن في رأسه، رائحة لرجال ونساء وأطفال، لها حضور غريب لفّه بأسار لذيذ. عبقت الرّائحة من جدران

البناية والزّوايا المظلمة، من الشّقوق والبصمات والأطر، من السّنوات التي شعر بها تلف وتدور في فضاء الغرفة والسّطح والبناية.

أين فندق جبل قنديل؟ أين اختفى صديقه (هاتف كرش)؟ هل عادت جيوش اليانكي إلى جزرهم البعيدة؟ وذلك الصّراخ المتفجّر من حناجر الشّباب وهي تطالب بوطن وكرامة من على جسر الجمهوريّة؟ وخُيّل إليه أنّه يسمع صراخاً حادّاً يتلوّى في المنعطفات ومنحنيات النّهر، تحت الجسر وفوق الموج، يرى حركات سريعة لا تسفر عن نفسها، وبسمع إشارات ليليّة تتناقلها القصور المطلّة على النّهر والسّيّارات المندسّة في الأركان والرّجال المريبون. الأغنية تتصاعد مثل ضباب كثيف، أغنية شجيّة تلامس قلوب الجميع وكأنّها تعبّر عن حبّ هذه المدينة وقد تكاثف على مرّ الزّمن، تسيل كلماتها على ضفاف النّهر وسطوح البيوت العتيقة المطلّة على دجلة، وكانت بصوت المطرب الأشهر يوسف عمر:

مالنّا كُلُّنا جَوٍ يا (رسول). / أَنا أَهوى وَقَلبُكَ المَتبولُ. / كُلَّما عادَ مَن بَعَثتُ إِلَيها./ غارَ مِنّي وَخانَ فيما يَقولُ. / أَفسَدَت بَينَنا الأَماناتِ عَينا. / ها وَخانَت قُلوبَهُنَّ العقول.

أغنية سمعها للمرّة الأولى بنكهة مختلفة، حين أوشكت علاقته بـ(براء) على الانهيار.

خرج من المحاضرة وبحث عنها في مقصف الجامعة، ثمّ في أروقة الكليّة، ووجدها جالسة مع طالب غريب تحت شجرة النّبق، وكانا يضحكان، فلم يتحمّل المشهد وغادر الدّروس فوراً، وعاد إلى غرفته. بدأ يحتسي العرق الزّحلة دون ماء ومن دون طعام أو مازة، ووجد شريط يوسف عمر وضعه في المسجّل العتيق، يحتسي ويبكي، وأعاد تلك

الأغنية أكثر من خمس مرّات، وهو يردّد: مالنّا كلنا جو يا (رسول)، ويبكي، ولم يفق من سكرته حتّى طرقت عليه أم خالد، صاحبة البيت، الباب، ونبّهته أنّ السّاعة قاربت على الفجر، فنام مثل جثّة هامدة. تبيّن له لاحقاً أنّ الطّالب واحد من أقربائها، وعادت العلاقة إلى سابق عهدها لكنّ الأغنية التصقت في رأسه مثل خليّة عصبيّة. هي أغنية، تأخذ جماع القلوب وتدفع الدّمع إلى الخدود، وتسقط المدينة في بحيرة من الحزن. مدينة المستبدّ. والمدينة تحلم وتتذمّر. تغضب وتصمت وتتحيّن الفرص لمن أذلّ قاطنيها. ترسل رسائل لا يمكنه على الإطلاق التّثبّت ممّا تريد. قرعها يوقظ الموتى. يسمعها مختلطة بالرّيح، ثمّ بعض الموسيقا الرّاقصة المثيرة، هناك في جلجلة محتفلة. هذا هو تنفّس المدينة الذي ينبغي أن ينصت إليه. تنفّس يمكن أن يكون لاهثاً، أو هادئاً وعميقاً. المدينة جسد بمليون رأس، ومليون يد تحوك نسيجها: إشاعاتها، تهديداتها، نكاتها، مناشيرها، صحافتها السّريّة. إنّها تستعصي على المستبدّ رغم كثرة مخبريه.

ولينصرف من تداعيات ذهنه، ويتخلّص من مجسّات الزّمن المعلّب داخل المبنى، ركّز جلّ تفكيره بأضواء المدينة، أضواء الجوامع والعمارات والقصور والمداخن، أضواء السّماء والأرض، أضواء الماء وأضواء الحباحب البريّة. في مكان ما جامع ابن بنية، ومقابله محطّة بغداد للقطارات، وفي البعيد فنارات المطار الوامضة بشكل منتظم. ورأى الكون أمامه ذا نجوم متدلية تخفت وتتألّق، تنطفئ وتضيء. ارتجّت السّماء وانفرطت مصابيحها كثمار النّارنج، وقد صعدت الثّمار الذّهبيّة إلى الظّلمة الفوقيّة. كلّ شيء يصعد إلى الأعلى، الأموات والأحياء، الذّنوب والحسنات، النّجوم والعتمة. ثمّة، في الأفق الشّرقيّ،

مواجهة قصور الحكم، شبحت أربع نجوم. وعلى هيئة حزمة شمسيّة الإشعاع، تجمّعت أنوار الضّفّة المقابلة لعينيه الواهمتين ووجهه الملوّن بالفحم، والتّجاعيد، والحروق القديمة. أغمض عينَيه وحاصرته أجواء البناية بوشوشاتها ولغطها السّرّي واستغاثاتها، اللغط شارات حروب ونفير، الوشوشات همسات أطفال مذعورين، وصوت قبل والتصاقات جسديّة. الاستغاثات حشرجة وألم غير بشريّ واندفاعات أرواح تقسر على الخروج من أجسادها. يتطامن ذلك من القاع، قاع البناية والنّهر والمدينة، أمّا كلمة «هنا» فقد نطق بها أحد ما كأنّه يجيب على سؤال وجه بنبرة خفيضة لا يراد لها الوصول بعيداً. هل انطلقت من ضفّة النّهر أم من شارع أبي نؤاس أم من أرض البناية؟

وفي اللحظة نفسها، شعر بخطوات رجل يرتقي السّلّم، هادئة كانت وثقيلة، وواثقة من طريقها، إلّا أنّه لم يصل السّطح. ها هو يلتفت إلى الباب علّه يرى طلعته المتوقّعة، تلك الطّلعة المرعبة المدجّجة الغامضة لا بدّ أن تكون بيضاء كالملح. وكي لا يمسك، لا يباغت في تلصصه على قاع المدينة وتلافيفها الخشنة، وحياة المستبدّ الخاصّة، ولا يتحوّل إلى قطة ناريّة العينين أو كلب أبيض أو شبح إنسان، اندفع بكلّ قواه خارج الغرفة ثمّ نزل إلى الحوش بخطا واسعة باتجاه الباب. وعند انبثاق أوّل نور خفيف في الأفق، وغياب النّجوم وتلاشي الشّموس الليليّة، كان يهيم وحيداً في الشّارع.

فكّر: في أيّ زمن عاش تلك الليلة؟

الواضح أنّه زمن حرب طاحنة.

كان مخموراً بالتّأكيد، والمخمور يفقد البوصلة.

9

لِمَ يعيش تلك الليلة مرّة ثانية؟ وهل كانت حلماً أم حقيقة عاشها في لحظة سكر أو تجلٍ روحيّ؟ هل رأى ذلك المشهد الطّويل والثّقيل في الخيال، أم في سكر الليلة الشّبحيّة التي قُتل فيها صديقه (هاتف)؟ ما لذهنه يقوده إلى تلك الأمكنة المجهولة ولأيّ غرض؟ كأنّه يعطيه إشارة واضحة على أنّه سيودع هذه الحياة إلى الأبد، وقد سمع الكثير من الحكايات عن شريط طويل يراه الأشخاص الذين يقفون على حافّة العالم الآخر، هل هو في شرك الحكايات غير المؤكّدة الوقوع، حكايات رجل بذاكرة تتوهّج مثل نار في صحراء؟

لكنّه وجد نفسه عالقاً، أسيراً في قبضة التّكنولوجيا: أيّها الشّاعر، زمانك ولّى، وشعرك هذيان، وجيلك على طريق الانقراض مثله مثل الدّيناصورات، وماموثات ما قبل التّاريخ، والحياة لن تنتهي بعدك، وكم تتوق لوقفة على جسر الشّهداء تودع فيها الأفق البغداديّ الذي خلب لبّك في فترة ما. أجل، تطير مع النّوارس، وترقص رقصة الضّفادع بين عشب الضّفاف، وتنشد مثل كلّ مرّة: حييت سفحك عن بعد فحييني/ يا دجلة الخير يا أم البساتين، ومن ثم تمجد الجواهري العظيم.

وسيبقى في قبضة التّكنولوجيا، وما كان منه إلّا أن استعاد شيئاً يسيراً من تركيزه، فحدّق في داخل التّابوت الدّوار ورأى تلك الأيام العجيبة من حياته الفارطة حين كان طالباً في الكليّة ويعيش لحظات عشق وغرام مع (براء). ماذا لو ابتلعه الجهاز الوامض الرّاكض حوله؟

ماذا لو تبخّر من هذا الوجود؟ لا سبيل أمامه سوى الهروب، وكانوا شلّة من خمسة أشخاص، وراؤهم جدار نباتيّ يسيج ساحات الكليّة، أربعة منهم يجلسون على مصطبة حجريّة وشخص واقف، وكلّهم في مرحلة الشّباب. الواقف هو الشّاعر التّونسيّ عمر العروسيّ، ينظر إلى الأفق وابتسامة تفاؤل على وجهه المدوّر، وقد اختفت أخباره منذ أربعين سنة. ويجلس هو بكلّ عنفوان شبابه على طرف المصطبة، ويجلس جنبه صديقه (هاتف)، صديق الحانات والتّسكع البغدادي والصّوت الجنوبي السّاحر، وعادة ما ينطلق بالغناء بعد عدد من كؤوس البيرة الشّهرزاد. الاثنان الآخران لا يتذكر اسميهما. كيف لمعت تلك الصّورة في ذهنه؟ من أي تكنولوجيا بشرية يبدع ذهنه في عرضها؟ وكانت في يده اليسار ساعة واسعة مثل التي شاعت في السّبعينيات، نحيفاً كان يلبس البنطلون الرّمادي والبلوز السّكري اللون، وينظر إلى بنايات الكلية، ربما ينتظر (براء) تخرج من المحاضرة، وفي وجهه تفاؤل عميق لشاعر لم يختبر قسوة الدّنيا بعد. تلك سنوات التّفاؤل، والعنجهية الثقافية، والحلم بمغامرات في تخوم الأرض، وقد غابت عنهم في جلستهم المطمئنة الكوارث التي ستحصل بعد ثلاثين سنة من ذلك العصر النّيّر من عصريات بغداد. أين انتهى مصير عمر العروسي شاعر تونس القادم من المغرب الكبير؟ هل شارك في الثورة على بن علي؟ هل مات؟ هل هاجر إلى فرنسا عشقاً لرامبو؟ وأين انتهى مصير (هاتف)؟ هل بقي أهله ساكنين في مدينة الفضل وقد زار بيته أكثر من مرّة؟ انقطعت أخباره منذ تخرّجهما من الجامعة. مات في الحروب، أم هاجر إلى أوروبا مثلما هاجر آلاف ممّن عرفهم أو جايلهم. ما هذه الذاكرة؟ سأل روحه. (هاتف) قُتل بقذيفة هاون سقطت على سوق الغزل في شارع الجمهوريّة. كيف

نسي ذلك؟ ومن أصدقائه اللاحقين (رعد خطّاب) وقد هرب إلى كردستان العراق ومن هناك إلى إيران، ثمّ اجتاز الحدود مع المهرّبين إلى مدينة كويتا، وتزوّج أفغانية رحل معها إلى نيوزيلاند، وأنجبا طفلَين. هكذا لخّص له حياته في آخر اتصال على (ماسنجر الفيسبوك). هل تخيّل يوماً أنّه سيتصل من داره في الرّماديّ، وسط حي التّأميم تحديداً، بشخص يسكن في جزيرة نيوزيلاند في طرف الأرض الجنوبيّ؟ تلك بركات برنامج (الفيسبوك)، وهذا زمن الأعاجيب والسّحر: نعم، ولم لا تجدون أنفسكم أيّها الأصدقاء قصيدة شعريّة في عقل شاعر بارع، موهوب، يسكن في مجرّة بعيدة لا تبعد سوى مليار سنة ضوئيّة عن هذه الصّخرة المسمّاة الأرض، الكوكب الدّوّار حول الإله (شمش) البابليّ، حسب ما يهمس بذلك السّيّد التّلسكوب (هابل)!! بكى كما أخبره، أمام زوجته الأفغانية، وظلّت تسأله عن سبب بكائه فلم يستطع توضيح السّبب. لأنّ توضيح السّبب لها يستوجب منه إخبارها بتاريخ العراق منذ رحيل السّلطنة العثمانيّة وحتّى دخول الأمريكان إلى منطقة الكرادة: كلّهم رحلوا وبقيت مثل السّيف فرداً، أنت الشّاعر المحبط اليائس القاطن في بيت كئيب يمتلك حديقة تعيش فيها القطط، فماذا يعني لك أن تكون شاعراً؟ يعني تصبح من نخبة المجتمع، تشيد بك الصّحف، وتقرأ على منابر المربد وأبي تمام والمتنبي، وتأخذ الرّاية من سعدي يوسف ومحمود البريكان وسركون بولص ورشدي العامل وفوزي كريم، ويُشاد لك يوماً ما تمثال مثل المتنبي الواقف على كتف النّهر غير عابئ بالزّمن. تترسّخ في ضمير بغداد مثل جداريّة فائق حسن المواجهة لشارع الشّيخ عمر، ومثل تمثال (الأربعين حرامي) مقابل المسرح الوطنيّ في فم الكرادة، ومثل نصب الحريّة لجواد سليم الذي يقابل جسر

الجمهوريّة وقد مشيت عليه مئات المرّات في عمرك المتهدّل مثل بنطال عتيق اشتريته من محلات الألبسة المستعملة في بداية شارع الشّيخ عمر، حيث تتسابق الصّحف لإجراء حوارات معك، وتحضر المهرجانات العربيّة، وتصبح نخبة وسط هذا الشّعب الجاهل، وستتوسّل ذات ليلة خمرية لشرطي المخفر كي يطلق سراحك لأنّه وجدك سكران في ساحة التّحرير بعد الثّالثة صباحاً، أنت وصديقك (هاتف).

وكما في كل مرّة يخرج عقله من تداعياته الحرّة الرّاكضة مثل فرس أصيل، يرتفع الضّغط في وجهه ويتخشّب لسانه، ويفتح عينَيه، أو عقله، ليرى (براء) هناك تجلس مقابله في نادي الكليّة. تضحك، أو تبتسم. يجلس جنبه مدرّسه النّاقد الفذ (عناد غزوان)، ويتعجّب من سرّ ضحكته وسط ذلك الجمع؟ سيجارته في يده اليسار، ووجه أستاذه في النّقد يبدو على درجة عالية من السعادة، بنظارته السّوداء وربطة عنقه ووجهه المدوّر الأسمر. هل كان يحدّثهم عن ابن جني، أم الجاحظ؟ أم يلقي شعراً للمتنبي شاعر المشرقين؟ في الجانب اليمين يجلس الرّجال، وفي اليسار تجلس الفتيات، وبينهم طاولة عريضة بيضاء اللون. (براء) تنحشر في الزّاوية بتنورتها القصيرة وشعرها المقصوص على طريقة الكاريه، وتضع حقيبتها الصّغيرة على فخذَيها. يعرف أنّها تحدّق به خلسة، تخترقه عيناها السّوداوان، تلعب بهما يميناً ويساراً مثل رقصة غجريّة في ليلة صيف. ولم تمرّ سوى سنة على اتفاقهما على الزّواج، والوقت صيف بالتّأكيد في تلك الصّورة، فالشّبابيك مفتوحة يتسرّب منها ضجيج بغداد القادم من شارع الجمهوريّة، والأعظميّة، وساحة عنتر. يا إلهي كم كانوا شباباً، وكم كانوا

ممتلئين بالأحلام. أحلام مضت هباء. اصطدمت أحلامهم بالسّياسة وتخلّف المجتمع وعقول أبنائه المنقوعة بالماضي ولا تجد طريقاً لمغادرته. تمرّ خمسة حروب، وعشرون حصاراً، وثلاثمائة حرب أهليّة، ومليون مقتول، وعشرة آلاف تفجير، ونصف مليون جندي قادمون من وراء البحار، ونصف مليون مختطف على الهويّة، ليكتشفوا أنّ الشّعر عبث وتخريف، والنّقد متاهة لا تؤدّي إلى هدف، والمسرح ضحك على الذّقون، والتّقدّم المزعوم بحيرة آسنة وجدوا أرواحهم تعوم فيها ويظنون أنّها فرات آخر مكتظّ بالسّمك، والقواقع، والبرودة النّاعمة، وبقايا الحلفاء، في صيف عذب. والغريب أنّ صديقه (هاتف) غائب عن تلك الجلسة الضّاحكة، لا بدّ أنّه يسكر في إحدى بارات الميدان. ولكي يصبح شاعراً عليه في تلك الأزمان الذّهبيّة أن يضع ربطة عنق أنيقة ونظارات طبيّة كي يشبه محمود درويش، كما قال له صديقه التّونسيّ (عمر العروسيّ) ذات ليلة في القسم الدّاخليّ.

ولكن بعد عشرات السّنين انتقل من نمط محمود درويش الشّعريّ إلى نمط قصيدة النّثر، وهكذا كتب قصيدته في عزّ الأزمة الطّائفيّة، واعتبرها إنجيلاً وطنيّاً على الجميع التّغنّي به.

***

كتب في قصيدته النّثريّة التي نشرها لاحقاً في الملحق الثّقافيّ لجريدة لبنانيّة: الأحفاد يصطادون السّمك ويشوون الذّرة. كنّا نسبح في الفرات، أو دجلة على الأغلب. كنّا نصطاد السّمك: الشّبوط والبني والجري. البنّي بمشحاته الحمر، البزّ الضّخم، وما لا نعرف من مخلوقات النّهرَين. نغوص في المياه حتّى نختنق، ثمّ

نعوم على سطح النّهر. نحوش الذّرة كي نشعل بعدها النّار في موقد تحترق فيه عروق قديمة، طرفاء، وشوك، وحلفاء، وبقايا نخيل بائد بفعل الزّمن، ثمّ نشوي العرانيس في ليل القرية.

تشتعل الظلمة بنور خالد لا يموت، نور يضيء النّخيل. نسبح كلّ صيف بين أذرع نهر حكيم اسمه الفرات، وربّما دجلة. بلادنا تسمّى بلاد النّهرَين. والمياه متشابهة، كما يقول حكيم من أوروك، وحكيم من بلاد نينوى، أو من بلاد كلدان، وجبل أزمر، وسهول شهرزور. المياه في أنهارنا متشابهة، والجروف أيضاً. السّمك متشابه، تقول الجدّة قبل أن تموت. عاجلها نزيف الدّماغ في صيف حارّ مرّ على حياتها كما يمرّ برق على ساقية جافّة.

الذّرة متشابهة في البصرة، والنّاصرية، والنّجف، والفلوجة، وسامراء، وتكريت، وكركوك، والموصل. ذرتنا متشابهة تقول الجدّة قبل أن تموت بنزيف صيفيّ حادّ، قبل بلوغها سن الثّمانين. هذا الطّقس مارسه أجدادنا قبل آلاف السّنين. كانوا مثلنا. يشعلون الموقد من عروق الطّرفاء، ثمّ يشوون العرانيس على رحابة النّار في موقد الطّين. لم نكتشف سمكاً جديداً، ولا ذرة جديدة. كانا هناك منذ آلاف السّنين. الذّرة مثل حياة البشر، وكذلك الأسماك في دجلة والفرات. الموسيقا واحدة. طرب على نغماتها عبد، وسيد، وإله، وعابد، وفلاح، ومقاتل شرس، وقينة تهزّ خصرها كي تسحر زبائنها في حانة على الضّفاف. حانة سيدوري في ملحمة جدّنا الشّجاع جلجامش. طربت على قيثارتها سيّدة خلف سياج البيت، ونوتي كان يبحر بين آشور وقلعة صالح، أو نينوى وبلاد بابل المطلّة على مسطّحات المياه. مارس ذلك الطّقس أجدادنا السّومريون، والبابليون،

والآشوريون، ومن جاء بعدهم، ومن شربوا مياه النّهرَين: دجلة والفرات. سمك، وذرة للشواء، ومعابد ترتل صلوات أنليل، ونار وجّت ذات يوم في مواقد عبّاد النّار والضّياء، قبل قرون وقرون.

وكان ماني البابلي حاضراً، والسّيّدة عشتار أم البنين، مانحة الولادة في الأصقاع بين الجبل والخليج. آلهة، ومحاربون، وقلاع يتعبّد فيها أسلافنا قبل آلاف السّنين.

أنت في قلعة آشور سيّدة المدن، سيّدة الذّرة، سيّدة السّمك. كلّ ذلك حدث في طيّات الزّمان الممتدّ. صفّق لنا ولهم.

واستوحى تلك القصيدة النّثريّة من جداريّة آشوريّة نشرها واحد من أصدقائه على صفحته الفيسبوكيّة وتأمّلها ثملاً، ثمّ ولدت القطعة النّفيسة. ومن مغامرة الشّعر إلى عالم (الفيسبوك). ذلك العالم السّاحر الذي جلبه الأمريكان معهم، بعد سنتين من احتلالهم للعاصمة. كان زمناً بربريّاً منفتحاً على المجهول، راح يقضي فيه جولات ليالٍ من السّهر والحمى، يتتبّع خطوات معارفه في بقاع العالم. قضى في بطنه العجيب ليالٍ تمتدّ أحياناً حتّى يهلّ الفجر من وراء ستائر الصّالون الدّاكنة. كان وافداً جديداً على حياتهم، حطّم جدار العزلة مع وصول اليانكي، واستولى على العقول. أدخل برنامج (الفيسبوك) البشر إلى جنة التّكنولوجيا المبنية بدقّة فائقة على هذا الكوكب. التّجوال في برنامج (الفيسبوك) مثل التّجوال في مبنى هائل للمجّانين، فيه بشر من كلّ صنف وشكل ونكهة. بعض يكتب بجديّة مطلقة عن فوائد البصل والثّوم مع رسم توضيحيّ، وهناك الفيديوهات الجاهزة للعزف تظهر على شاشته صورة قديمة للمغنية العراقيّة زهور حسين التي ماتت بحادث سيّارة. وكان

يستمتع أحياناً بسماع الغناء لواحد أو أكثر من تلك الفيديوهات الغنائيّة في كلّ سهرة كفيروز، وأم كلثوم، وكاظم السّاهر، وهدى حداد، وسورية حسين، وهي مطربة ريفيّة عراقيّة اشتُهرت في الخمسينيّات والسّتينيّات. وكان البعض يفضّل جلد المتابعين بقصيدة نثر مليئة بالأخطاء النّحويّة، والبعض دأب على كتابة يومياته البيتيّة رغم أنّه شخص نكرة لا أحد يهتمّ ليومياته تلك. وهناك من يعلن غيابه المؤقّت عن الفضاء الأزرق، رغم أنّ حضوره من عدمه لا يحسّ. ويتذكّر كيف فاجأه، ذات ليلة، موت شاعره المفضّل سعدي يوسف في لندن، فرثاه بكلمات مؤلمة حصلت على أكثر من خمسين إعجاباً. قصيدة شاعره البصريّ كانت شاخصة في خياله مثل فنار مطار عملاق، ودأب على ترددها في جلسات الخمرة طوال أربعة عقود: أدخلتني في زهرة الرّمّان، ثمّ مضيت عنّي/ وتركتني بين التّوَيجة واللقاح. مات الأخضر بن يوسف. مات غريباً عن البصرة التي أحبّها والعراق الذي شغل روحه وشعره. مات شاعره المفضّل غريباً عن نخيله، وعمّاله، وحمامات السّلام المنقوشة بمهارة على جداريّة فائق حسن، وما زالت تطير فوق ساحة الطّيران. سافر إلى الأبد في مركب جدّه جلجامش. سافر بمركب سكران إلى العالم السّفليّ. مثل تلك الأحداث، دخلت إلى حياته الجافّة وأضفت شيئاً من الطّراوة عليها، كما وجد في ذلك الفضاء الأزرق ميداناً للعب، والضّحك، والفضول، والتّفاهة. لكنّه أدخل إلى عالمه الكئيب حسّ المراقبة والفهم لروح زبائنه وروّاده.

ولأنّ الماضي جميل دائماً كان البعض يعمد في ذلك الفضاء، على بثّ صور قديمة لدمشق وبغداد والقاهرة ونيويورك وطنجة

وبيروت، فيدقّق بنمط الملابس، ونوعيّة الأرصفة، وواجهات المحلّات، وأشكال النّساء خاصّة. هذا ينعى أباه وذاك ينعى أمّه كما فعل هو، (رسول) الشّاعر المقعد، الميت جسداً المرتعش عقلاً في حبّ لحظات تسرّبت من بين أصابعه مثل قبضة من رمل الشّواطئ. برنامج (الفيسبوك) اللعين أعاد الصّلة بأصدقائه القدامى المتوزّعين على الكرة الأرضيّة، وعدد منهم أكملوا معه كليّة الآداب ورافقوه في سهراته في البارات والمقاهي وأعراس العاصمة الضاجّة بالموسيقا وخمرة التّمر. وفي بعض الأحيان كانوا، أصدقاءه، يجلسون في غرفته الواقعة في منطقة الكرنتينة. وكانت غرفة يصعد إليها بدرج معتم، وجعلها فندقاً للنّوم، وبها شبّاك يطلّ على سوق للخضار تتصاعد منه صيفاً وشتاء رائحة عفونة تصل حتّى سريره. حتّى ترك الغرفة تلك بعد سنتين لم يعرف اسم أمّ خالد، وكثيراً ما رآها في فسحة البيت جالسة وحيدة تستغرق في فكرة ما مع نفسها، أو تقارن هيئته بهيئة أبيه، فيلقي عليها سلاماً متعجّلاً ويصعد الدّرج إلى غرفته. وشهدت تلك الغرفة أوّل أحلامه بزميلته في الكليّة، الجميلة المسمّاة (براء). تلك فترة ذهبيّة له، الأعظميّة ومحلّاتها شكّلت متنزّهاً لهم لازدحامها بالبساتين والتّرع والأراضي الخضراء، حيث تجتمع العوائل، ويؤدَّى الغناء الشّعبيّ والرّقص والموسيقا الى جانب تناول الأطعمة والشّاي.

وحدث قبل عشر سنوات من شلل جسده، أنّه كان يجلس في بيته والصّالة باردة، وهو يحدّق في الشّاشة الفضيّة للحاسوب، وإذا هو يقع على اسم صديق الكرنتينة المسمّى (ثامر حسين). دخل على صفحته. ووقعت عيناه على لوحاته التي سمّاها ألعاب الفنّان (ثامر

حسين) اللونيّة. (ثامر حسين) كان من مجالسي شلّة مقهى البرلمان، وبار جبهة النّهر، وغرفته البائسة في محلة الكرنتينة. صورته بالقبعة على برنامج (الفيسبوك) وملامحه الشّائخة وتعابيره الحادّة جعلته يؤمن بهول الزّمن وخطاه الثّقيلة على بني الإنسان. تلك أربعون سنة من الفراق وانقطاع الأخبار تماماً. بعدها، ومن خلال متابعته، شبه اليوميّة، لرسوماته على برنامج (الفيسبوك)، تبادر له أنّه يرسم بدمه، بروحه، بكامل خلايا جسده، رغم أنّه لا يعرف هل يرسم بالألوان المائيّة أم الأكليرك أم الزّيت؟ لكنّ لون الحنين لا يخفى في رسومه، ولا يعرف أحجام تلك اللوحات، وقد تكون مرسومة على صفائح ورقيّة بيضاء، تصلح للاستعمال السّريع، والجاهز، تحت شغف حارق لليد والخيال. إصرار غريب على مواصلة التّلوين، وابتكار الشّخوص، والحركات، والمشاهد الطّبيعيّة، وكأنّ العين أمام رقصات حادّة، ملوّنة، ذات وجد روحيّ وانخطاف صوفيّ، أو وسط عاصفة تمتدّ في الطّبيعة المتوحشّة. تذكّر مقصف الكليّة حين كان يزوره (ثامر) قادماً من معهد الفنون الجميلة، ثمّ لقاءاتهم في مقهى البرلمان حين كان يجلس بمواجهة شارع الرّشيد يرصد بعين ساحرة، وساخرة، زخرفات جامع الحيدرخانة، وتلك الخطوط التي زيّنت واجهات الجامع وكأنّه كان يعدّ نفسه للهروب نحو الآفاق البعيدة في أوروبا منذ تلك السّنين. لوحاته توحي بكلّ ما يخطر على ذهن المشاهد: أهوار العراق، النّخيل البصريّ، حقول القمح في ليلة عاصفة، راقصة الباليه، الشّارع المدينيّ المكتظّ بالمارّة، الطّيور، المظاهرة العارمة ضدّ السّلطة، قرون الجاموس تحت البردي، الشّفة المطبقة لفتاة في حانة. أي كلّ ما تحتويه ذاكرة عاشت العقود الأخيرة من الزّمن، وهي تتنقل بين المدن، والصّحاري، والأنهار، وحقول القصب، وظلال العمارات

العملاقة في الحاضرات المدينيّة لما بعد الحداثة. قد لا يكون للوحات تلك نكهة عراقيّة خالصة، باعتبار أنّ الفنّان (ثامر حسين) من مدينة النّاصريّة، لكنّ لوحات عديدة يستطيع العراقيون تمييزها، بلمس المشهد الواقعيّ إيحاء وترميزاً، أو تذكّر رائحة العروق النّهريّة، أو تسلّق بيت طينيّ آيل للسّقوط. حاول الاتصال به عبر (الماسنجر)، لكنّه لم يرد. ربّما نسيه، وربّما لم يعد يتذكّر مقهى البرلمان وجامع الحيدرخانة ومشرب جبهة النّهر حيث سكروا عشرات المرّات قبل اندلاع الحرب. كان وجه (ثامر) يوحي بالتّمرّد منذ تلك السّنين، وامتدّ ذلك التّمرّد الفنّيّ إلى رسوماته تلك، فهي تضرب القواعد الفنّيّة، والمشهديّة السّاكنة، والمألوف في الفن التّشكيليّ. ومعيشة الاغتراب الأوروبيّ زادته، في قناعته، وبعد التّجربة، تمرّداً على المألوف، وعمّقت لديه مشاعر الخصوصيّة فنيّاً. ليلة اكتشاف لوحات (ثامر)، كتب سطوراً قليلة عن واحدة من لوحاته، فخاطب القارئ قائلاً:

تخيّلْ نفسك على قارب صغير وسط (أهوار العراق)، في صباح ربيعيّ، وأنت محاط بالقصب، والبردي، تصيد السّمك، وحيداً إلّا من صحبة طيور الإوز، وحدائق المياه ووجوه النّساء والصّيادين المتعبة. كانت تلك اللوحة يمكن أن تكون (هايكو بصريّ) إن صحّت التّسمية. ويمكن أن تكون قطعة من الشّعر الملوّن بأحاسيس روح شفيفة تعيش عزلتها.

وقد يصحّ هذا الوصف على أغلب اللوحات. فعلاً، معظم اللوحات التي رآها تحمل بصمة الهايكو، نمط اللقطة الشّعريّة الحاملة لمفارقة جماليّة أو حركة مفاجئة تذهب بسكون المشهد المعروض أمام البصر والذّهن. ويمكن وضع تلك التّهيؤات المشهديّة

في خانة رسومات ما بعد الحداثة، أو الخلطة الحضاريّة للقرن الحادي والعشرين. وهو ما تعيشه البشريّة بشراسة وعمق أينما أدارت وجوهها. فلم تعد جذور الفرد تنتمي لتربة واحدة، بل هي تمتدّ على مساحة الكرة الأرضيّة. وسأل روحه عن هذه التّجربة اللونيّة الغريبة، والمبدعة، ولماذا لا يتمّ عرضها في صالة فنيّة في مدينة النّاصرية أو في بغداد، خاصّة وأنّ هكذا تجارب غريبة، ونافرة عن السّائد العامّ، تلخّص بوضوح تجربة شريحة واسعة من المثقّفين والفنّانين المغتربين الذين اكتسبوا دماء ثقافيّة جديدة تضاف إلى الموروث. وكان ينظر في لوحات (ثامر) ويستعيد الأيّام العتيقة في بغداد. عثر على (ثامر حسين) عبر صورة لبرلين يعود تاريخها إلى بدايات القرن العشرين، وجنبها صورة لبغداد في التّاريخ نفسه، وكان الجيش الإنكليزيّ التقطها حين احتلّ بغداد. رأى الفرق هائلاً، بل لا مجال للمقارنة بين المدينتَين. بغداد ظهرت في الصّورة خرابة لا غير. في تلك الليلة نفسها، حين عثر على صديقه، وجد روحه في موقف غريب. أين تلك الأيام؟ أين صديق شبابه (ثامر حسين) السّاكن في ألمانيا؟ هل هو ميت أم حي؟ إنّه يرسم. جميل. تحوّل إلى شاعر كلماته من اللون.

***

وجده أخيراً على غير الصّورة التي رسمها له، وجده رجلاً أنيقاً بلحية سوداء تتخلّلها شعيرات بيض، وكان يلبس رداءً أبيضَ ويضع في رقبته سمّاعة الطّبيب. هذا هو الدّكتور (واثق) أخيراً. ظلّ طوال الجلسة يصغي إلى هذيانه ويبتسم، وسمعه يقول لـ(بشير) وكأنّ

الحديث جرى في حلم صيفيّ بعيد: هذا الرّجل مسكون بالأشباح، هل هو شاعر؟ سرد تاريخ العرب منذ امرئ القيس وحتّى عبد الكريم قاسم. أبوك واسع الاطلاع، وكأنّه عاش بين الكتب، وهو يحفظ قصائد المتصوّفين وغنّى أثناء التّخدير قصيدة للحلّاج، كدت أن أبكي لكلماتها الحلوة الحزينة. لم يسمع كلمات (بشير) الواقف بعيداً عن الجهاز، ولا بدّ أنّه ردّ على الطّبيب بإيماءة إن نعم، و(بشير) له خبرة عميقة به. رآه بكلّ حالاته، في السّكر والرّقص والحزن والبكاء، البكاء الذي يعيشه بعد أن يفرط في شرابه الثّقيل ويسمع أغنية شجيّة عبر حاسوبه المرافق له.

والجهاز الغريب، يدور حوله، ويسجّل أسرار جسده، قلبه ودماغه ودورته الدّمويّة وضمور عضلاته، والطّبيب النّطاسي المدعوّ (واثق) يروح ويجيء في الغرفة، وهو يتهامس مع ابنه وزوجته. كان (واثق) أنيقاً ذا تعابير حضاريّة يضع ربطة عنق ملوّنة، والسّمّاعة معلّقة في رقبته، حليق اللحية والشّاربَين، عيناه ذكيّتان، بطلعة رصينة وابتسامة ثابتة. وقف طوال الجلسة عند قدمَيه البارزتَين من الجهاز. تأتيه بعض الأحيان قهقهات من الممرّ خارج الباب. ولأوّل مرّة تذكّر أنّه شعر بنفسه حشرة ضئيلة أثناء ما كان يحدّق في تلك اللوحة المنفرشة أمامه. وبين الخيال والواقع، في تلك الغرفة المسلّخ، وجسده محشور في تابوت الفحص، سمع صوت الطّبيب وهو يؤكّد لـ(براء) أنّ النّتائج ستظهر بعد أيّام، رغم أنّه لا يعطي أكثر من خمسة لكي ينتهي كلّ شيء. ومثلما حدث في ذلك المستشفى المطلّ على النّهر، قبل أيّام وربّما أسابيع، لم يسمع جيّداً ما هي الخمسة. أسابيع أمّ أيّام، شهور أم سنين. بيئة المستشفيات تقرّب المرء إلى

القانون الأبديّ ألّا وهو الموت، وبيئة الجوامع والعبادات تقرّب الإنسان إلى المطلق المجهول، فيما تأخذ بيئة الحانات والخمور هذا الإنسان الهشّ إلى حقيقة الوجود، حقيقة أنّ الأرض كتلة سابحة في كون لا يمكن إدراكه لعقل بسيط مثل عقل الإنسان، وقد تقوده إلى العبث والتّجريد ويعود إلى تلك البديهيّة المهولة القائلة بأنّ كلّ شيء باطل وقبض ريح. لكنّه، مع كلّ تلك الأفكار السّوداويّة المرعبة، سيواصل الكتابة على الهواء، بإصرار عجيب، إصرار من يقدّم جردة نهائيّة لحياته قبل الموت. ومضى يسترجع كلّ ما مرّ به منذ أن شمّ رائحة البخور في تلك الغرفة حيث ولدته أمّه، وحتّى نهاية رحلته في محيط الأوكسجين الذي تسبح فيه الكرة الأرضيّة.

لدى (رسول) قناعة لا تتزحزح حول أفكار البشر المنبثّة من رؤوسهم. إنّها لا تضيع، وحالما تتجسّد على شكل كلمات، وجمل لها معانٍ مفيدة، حتّى يصبح وجودها في الفضاء خالداً. تلك الأفكار تلفّ الكرة الأرضيّة من جميع الجهات، وفي مكان ما، وفي زمان ما، سيقوم كاتب بالتقاطها من الهواء وكتابتها على ورق، أو شاشة حاسوب على الأغلب. هي شهادة للتّاريخ. ويحقّ للشاعر أن يضع شهادة عن سكّاكين هذا البلد الوباء، السّكّاكين التي مزّقت جسده وروحه. ذلك المؤلّف سيأتي ويدوّن حكايته، وستخرج من إحدى مطابع شارع المتنبي في عاصمة الرّشيد: صدّق هذا الحدث وامضِ في خيالك الفذّ، وفي تداعيات ذهنك المحلّق مع الجوزاء، أيّها الشّاعر المقعد، قد يزيد على ما فكرت به أو ينقص، قد يختلق أفكاراً لم تصدر منك بالضّبط، إلّا أنّها ستكون صدىً لما برق، واشتعل، وتفجّر في ذهنك المتوقّد الذي لم يمت لحدّ الآن، وقد يقول البعض إنّها رؤية

مجنونة من شاعر مهمل، نكرة لم يطبع حتّى ديواناً واحداً لحدّ الآن، والسّؤال هو: ما هو الموت؟ لا تصدّقوا ما تقوله الأديان، وهنا أنت تتكلّم عن تجربة، أنت الشّاعر العقيم، الشّاعر المقعد، الشّاعر الذي لم يبقَ له في هذه الحياة سوى خمسة أيّام أو خمسة أسابيع أو خمسة شهور حسب تقديرات النّطاسي (واثق) في مجمع الحارثيّة الطّبي. لا يمكن له تصديق خمس سنوات، فهي وقت طويل لا يتناسب مع جسده المقعد ولسانه الخشبيّ.

ولأنّه لم يعد أمامه من حياة سوى خمسة أيّام كما آمن مع روحه، حملته حكايات خاله (حماد) من جوف الجهاز العجيب إلى بغداد السّتينيّات، وكان خاله يزور عمّه (فاضل) في بعض الليالي ويروح يحدّث الجالسين عن مغامراته البغداديّة. خاله (حماد) يشتغل في منطقة النّهضة، وسط بغداد، ولديه سمعة ملتبسة حول النّساء وتناوله للخمرة حسبما تتردّد الإشاعات. لذلك كان عمّه (فاضل) يستفزّه أحياناً بالحديث عن أجواء بغداد فينطلق خاله، وهو يشرب الشّاي الثّقيل ويدخّن السّكائر من نوع كريفن، يحدّث الجالسين عما يجري في تلك العاصمة الحلم التي لم يزرها (رسول) يوماً على الإطلاق، وصارت خيالاً يهتدي به للخروج من مدينته الجافّة الكئيبة. في الماضي الذّهبيّ ذاك، ماضي طفولته، كانت القرية تسبح ليلاً في العتمة الدّاكنة، ويحدّثهم خاله (حماد) في تلك السّنين البعيدة عن المايخانات كما يسمّيها، وفتيات العاصمة، ومطاعمها، وسياراتها المطهّمة مثل خيول أصيلة، هكذا قال. وبعد فترة طويلة عرف أنّ «المايخانات» يعني بها حانات الشّراب، أو البارات الشّعبيّة المندسّة في الأزقّة وشواطئ دجلة وقرب

السّينمات، وفي الأروقة الجانبيّة، كي لا تجذب نظر العوام الجهلة. العوام ممّن لا يمتلكون خيالاً يجاري خيال الخمر وهو يطير بالمرء أعلى فأعلى حتّى يصل به الجوزاء كما تقول العرب.

هناك في ساحة الميدان أفضل بارات شرب البيرة، تقدّم البيرة وجنبها اللبلبي والخس وبعض الأحيان الكرزات، فيجلس المرء أمام الشّبّاك يحدّق بالمارّة في الرّصيف المحيط بالسّاحة، وعندها يتملئ بالنّساء الفاتنات وهن يخطرن بين باعة السّاعات، والحقائب، والسّجائر، يتجهن نحو موقف الباصات. طالبات الجامعة والموظّفات المعطّرات بأفخر أنواع العطور، ولابسات البناطيل العريضة، السّافرات المتجهات حتماً إلى الأحياء الرّاقية كحي المنصور، وحي دراغ، والوزيرية، ومنطقة الدّورة، والكرادة، وبغداد الجديدة ذات النّكهة المسيحيّة. وتتحسّر النّفوس الغضّة المراهقة على العيون الشّبقة، والعجيزات الضخمة البارزة من خلف العبيّ البريسم. ولكن إن أحببت السّهر في الليل فما عليك سوى الجلوس في بارات أبي نؤاس في الصّيف، تجلس بين أغصان شجر النّبق المطلّ على النّهر، وجنبك أحواض السّمك وهي تلبط في المياه غير دارية بمصيرها القريب، أي كيف تتحوّل إلى سمكة مبهّرة، معروضة الأحشاء على تليل من الجمر، وهي تستوي على نار هادئة. حين تنبعث البهارات اللذيذة ممزوجة بدهن الجسد الغضّ إلى الفضاء، تستدرج أحماض المعدة الباعثة على الجوع. والسّكارى يحتفون بأبي نؤاس شاعر الخمرة والجواري والغلمان. لم يكن خاله (حماد) يشرب، كما يقول، ويؤكّد بتعابير خبيثة مواربة، فتلك البارات تقدّم البيرة والعرق المستكي وعرق زحلة، ولكنّه يجالس أصدقاءه البغداديين حين

يسهرون بعض الأيّام حتّى مطلع الفجر. حينئذ يسمع صوت الدّربكة قادماً من ضفاف جزيرة أمّ الخنازير، وصوت مزمار بعيد قادماً من أطراف بغداد، ربّما من الكمالية، وهي حي شهير للغجر، وغناء شجي لفتاة من الكاولية، ويسمّيهم المثقّفون الغجر، وهي تغنّي للزّائرين. والكاولية في الكماليّة ليسوا مثل الكاولية الذين يفدون إلى القرية، على الحمير، وهم يحملون خيمهم وأطباقهم وملابسهم. كلا. هم يمتلكون بيوتاً نظيفة من الطّابوق، وشوارع، ومحلّات، والكهرباء لا تنطفئ. نعم، الشّوارع مبلّطة، تخيّل قرية شوارعها ترابيّة وشوارع الكماليّة مبلّطة. والسّهرات تجري في البيوت المغلقة وسط صالات غاصّة بالرّاقصات والزّبائن الأثرياء. وفي الشّتاء تدخل تلك القاعات الدّافئة المعتمة وتجد الطّاولات مرصوصة عند الجدران، والأضواء تمنح الشّاربَين جوّاً حلميّاً فيرحلون مع أغاني أمّ كلثوم، أو نجاة الصّغيرة، وعبد الحليم حافظ يلعلع بصوته الحزين فيصل حتى البيّاع والمنصور والدّورة. وأحياناً ينطلق صوت (يوسف عمر) وهو يؤدّي أجمل المقامات، ثمّ ينهيها بأغنية: مات اللمبجي داوود واعلومة/ كوموا اليوم دنعزي فطومة، وهي أغنية لو سمعها الفلّاحون لماتوا من الضّحك، والخجل، والاستنكار. تدور كلماتها عن بيت دعارة، وقوّادين، وعاهرات، ولذائذ المرأة المستورة خلف طبقات الأخلاق الحميدة. هي أخلاق أهل المدن على أيّة حال. سكر وعربدة ونسوان وكباب وسينمات ونزهات في كورنيش الأعظميّة القريب من منطقة الكرنتينة، أو كورنيش أبي نؤاس، وكأنّ البشر ليس لديهم هموم في حياتهم. صحيح حياتهم تختلف، وبعد عشرات السّنين، وأحداث يشيب لها شعر الشّعراء والكتّاب والمثقّفين، أطلقوا عليه الزّمن الجميل.

هو كذلك كما يفكّر، كان زمناً جميلاً فعلاً، لأنّهم لم يكونوا حتّى في أحلامكم يتوقّعون حدوث ما جرى بعد تلك العقود من سنوات الطّفولة. خاله (حماد) كان على حقّ فعلاً حين يفكّر بما كان يردّده حول البشر الذين ينتظرون موتهم بأفواه فاغرة تحدّق في الفراغ. في ذلك الزّمن الرّماديّ لم يكن الفلّاحون يعرفون شيئاً، ومنهم (رسول) على الأقلّ، عن سوق الاستربادي في الكاظميّة، ومحلّة الذّهب في منطقة العلاوي، ثمّ الفناهرة وشارع الرّشيد ومحلّة البتاويين وعقد النّصارى وساحة الخلاني وكورنيش الأعظمية وشريعة النّواب وجسر الخر وأزقّة الرّحمانية والكرنتينة والدّهانة. كانوا خارج التّاريخ المكتوب، لا يسمعون ضجيج العالم وما يجري فيه سوى من إذاعة BBC العربيّة التي يفضّل عمّه (فاضل) سماعها في راديو فيليبس صغير، كان يضعه دائماً في مسطّح النّافذة ذات الإطار الخشبيّ. عمّته يتذكّرها جالسة في الزّاوية مثل تمثال غوديا السّومريّ. وكان خاله (حماد) يدخّن أحياناً سجائر كريفن أبو البزون، يدخّنها بإفراط، وهو يقصّ عليهم حياة بغداد السّريّة، حياة اللذّة والخمرة والمغامرات. وتلك القصص يمتلك خاله في روايتها أسلوباً مشوقاً يتفوّق على أهمّ كتّاب الرّواية. هو يعرف كي يبوح بطرف من الحدث، ثمّ يؤجّل الجانب المهمّ منه، حتّى يحسّ بفضول المستمع. يجلب حكايات رديفة تغنّي الحدث الرّئيسيّ، ويذكر أسماء صريحة للنّساء وأسماء القوّادين والسّعاة بين الجنسَين، أو يذكر كيف أنّه يعرف أصحاب البارات في الكرادة، وساحة الخلاني، وفي ساحة التّحرير، لأنّهم لمسوا فيه الرّجل النّزيه الذي لا يكذب، ويتعامل بشرف مع الأصدقاء. وحين يفتر الحديث، وأبوه يدخّن سجائر بغداد بلهفة، ويحدّق بسقف المضافة المبني

من شيلمان بلجيكي وملاط وطابوق، يبادر خاله (حماد) إلى غناء طريف لأحمد الانضباط، المغني الشّعبيّ، عن الفتيات الجامعيّات اللواتي يلبسن البنطلونات الضّيّقة، ويتمخترن في شارع النّهر، وعند موقف الباصات في ساحة الميدان، أو ساحة الباب الشّرقيّ. وكان هو يجلس مثل جرو خائف عند نهاية المفرش الممتدّ على الأرض، وعمّته (سلمى) تلوذ به قرب الباب متأهّبة لتلبية طلبات السّهارى في تلك الليلة. ولخاله (حماد) صوت ريفيّ جميل. يحمل في ترانيمه حزناً شفيفاً لا أحد يعرف كيف ورثه، ومن أين جلبه، هو خلاصة لغابات نخيلهم، ورائحة سواقيهم في نهارات الصّيف، ومراحات الخراف قرب بيوت الفلّاحين، ونثيث رائحة النّفل في صيف القرية المضيء مثل شمس في الظّهيرة. ثمّ يحدق إليه ويقول له مازحاً: ستدخل الجامعة وتعيش أجواء بغداد السّاحرة، وستسمع المطرب أحمد الانضباط كثيراً في بارات بغداد، وفي محلّات التّسجيل المنتشرة في شارع الرّشيد، وتسمع يوسف عمر وهو يتغنّى بمقاماته حتّى يصل بها إلى عنان السّماء، وكان (رسول) يحسّ بالخجل ويحاول الاختباء خلف عمّته (سلمى)، وفي ظلال الفانوس الموضوع على كتف الشّبّاك. شدّ حيلك وادرس، أحمد الانضباط ينتظرك، يقولها له ضاحكاً. صديقة الملاية تنتظرك، (يوسف عمر) ينتظرك في المتحف البغداديّ، وشعوبيّ كذلك. ويعتقد اليوم أنّ تلك الحكايات، التي لا يتحرّج خاله (حماد) حين يأتي إلى البيت أيّام الإجازات وفي الأعياد عن الحديث عنها، هي التي جلبت له صفة السّكير بين الفلّاحين. يتهامسون بها دون أن يجرؤ أحد على مواجهته بها ذات ليلة، بالعكس ظلّ خاله محطّ احترام وخشية من شباب القرية وأغلبهم لم يزوروا بغداد، أو لا

يعرفون شيئاً من حياتها السّريّة أو الليليّة كما يصفها خاله. ولكثرة ما ردّد خاله اسم أبي نؤاس وتمثاله في كورنيش نهر دجلة، صار هو الآخر بعد عشر سنوات، يفتّش عن كلّ ما يخصّ هذا الشّاعر. وأرشده الأستاذ (طلال سالم) على ديوانه المكتوب في الخمر، واستعاره من المكتبة العامّة وسهر ليالي طويلة في قراءته. وكان يكتب بعض القصائد حين ينام أخوه فؤاد مقلّداً سلاسة شعره، ومحاولاً ضبط البحور الشّعريّة التي كان يفضلّها. يقرأ في الليل على ضوء مصباح وحيد معلّق في سقف الغرفة، ويكاد الصّمت أن يحمل البيت الصّغير إلى بغداد التي عاش فيها الشّاعر قبل ألف سنة أو يزيد. وكم تاق، وقتها، لرؤية تمثاله الذي وصفه خاله بكلمات وجدها ساحرة، لأنّه ذكر الكأس الذي كان يحمله بين أصابعه وتعابير الانتشاء التي تبين على وجهه خاصّة لمن يكون قد احتسى نصف زجاجة عرق بمزّة الليمون والكرزات، وأكل نصف سمكة شبوط مسقوفة على نار هادئة كما يقول خاله.

وخاله، توفّي في فترة الحصار بسرطان الرّئة، بعد أن أدمن الدّخّان حتّى بلغ علبتَين في اليوم، وكان عمره في الثّمانين.

***

خاله ليس الوحيد الذي كان يرسم صورة ساحرة لبغداد، بل أبوه أيضاً، لكنّها صورة مغايرة هذه المرّة. صورة التّبتّل والمراقد والمساجد الشّهيرة. ولأنّه سكن في محلّة الكرنتينة فهو عادة ما يصلّي في مرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان، في أيّام الجمع، حين يكون في بغداد لا في القرية. وحين يجتمع أبوه وخاله (حماد) تكون كفّة الحديث لأبيه، يستفيض بحكاياته عن بغداد المحافظة

الملتزمة بالدّين، المليئة بالمراقد والجوامع، سواء منها الشّيعيّة أو السّنيّة. وكان يحدث الجالسين كيف يزور بعض المرّات مرقد الإمام الكاظم للتّبرّك، ويصلّي ركعتَين في السّاحة الواسعة قبل أن يدخل إلى حيث القبر المهيب.

واستغرق الأمر من (رسول) عشر سنوات تقريباً كي يتتبّع الخارطتَين البغداديتَين، خارطة خاله (حماد) وخارطة أبيه. ووجد أنّ كليهما ضروريتان لمعرفة شخصيّة العاصمة العتيدة التي تقتل أبناءَها بين فترة وأخرى، وما زالت. قتلت الملوك في قصر الرّحاب، ومن ثمّ قتلت عبد الكريم قاسم في مبنى الإذاعة كما يؤكّد خاله في أحاديثه، وقتلت قتلة الزّعيم، ويتذكّر صغيراً حين عبر الرّجال بهم بواسطة القارب نحو صوب الشّامية، وصورة الدّماء النّازفة من أجساد الحرس القوميّ، وظلّت ماثلة له بعد عشرات السّنين. أسقطت رئيس الجمهوريّة عبد السّلام عارف بتفجير طائرته فوق البصرة، ومن ثمّ أبادت الرّفاق في قاعة الخلد، ولم تلبث بعد الحرب الأخيرة أن وضعت الحبل حول رقبة الطّاغية الأخير الذي وجده الغرينغو في حفرة وسط حقول تكريت. ربّما هذا ما جعله يؤمن بفلسفة خاله (حماد) أكثر ممّا يؤمّن بفلسفة أبيه.

فالمتعة هي الباقية، متعة الجسد والعين والأذن. المتعة التي خُلقت البشر معها بتدبير سراني لا يمكن معرفة كنهه. أمّا العبادات، يقول له عقله الذي تكوّن خلال ستّين سنة، وعاش تجارب قراءة وسفر وحوارات ومخاطر في هذا البلد الجهنّم، الحفرة الهاوية، فزائلة ولا تبعث سوى الحسرة بعد أن يضع المرء رأسه في وسادة القبر ويرحل عن هذا العالم، مثل أخيه (فؤاد). ولن يعود إليه. ومنذ

تلك الفترة بدأ أبوه يفكّر ببناء جامع في القرية، وأصبح ذلك واحداً من أهمّ هواجسه في أيّام الإجازات. وحين قبل (رسول) في كليّة الآداب قسم اللغة العربيّة مشى في الطّريقَين. مشى على طريق خاله (حماد)، وفي الوقت ذاته مشى على طريق أبيه. كيف كان ذلك؟ يسأله الصّحاب والأحباب، ولكن تلك الرّؤية في المشي بطريقَين كلّفته الكثير، شُطرت روحه شطرَين. سهّرته الليالي وأورثته إدمان الدّخان، والكحول، والنّدم، وتأنيب الضّمير، والحنين إلى البراءة. وشُطرت رؤيته إلى الحياة شطرَين لا يمكن لأيّ فيلسوف التّوفيق بينهما. شطر ماديّ محسوس وآخر روحيّ متأمّل عميق، مفكّر، شاعر برهافة الوجود والنّجوم والبحار والنّساء والفنّ الجميل والموسيقا والقول الظّريف. وهذا هو الشّعر الذي لم ينفكّ من قراءته وكتابته وصداقة من يكتبونه ويحبّونه مثله. ويتجلّى له بيتهم في تلك المدينة كأنّه جوهرة تشعّ وسط العتمة. يعود إلى تلك الأيّام مغمّض العينَين ومطبّق الشّفتَين. عاش في ذلك البيت أوّل حبّ لم يحدّث عنه زوجته (براء)، وكما آمن قبل إذ فثمّة قصص كثيرة لا تعرف بها زوجته. في تلك المرحلة من حياته البعيدة، كان بيتهم، وكما يتذكّر اللحظة، يتكوّن من غرفتَين، وحمّام ومطبخ مهملَين، ثمّ أسّس أشادها والده قبل تركه للمدينة عائداً إلى القرية، لأنّه لا يرغب في قضاء حياته داخل علبة، ويقصد بذلك حياة المدينة. أبرز ما في البيت كانت أشجاره، فهي تحتلّ فضاء واسعاً من سماء الشّارع، وتظلّل بعض الشّيء حديقة الجيران الأماميّة.

أشجار اليوكالبتوس، كانت بديعة، فاتنة، سامقة، راجفة الورق صيفاً وشتاء. وبحسّه الشّعريّ سمّاه مع نفسه بيت اليوكالبتوس.

وقّع لأوّل مرّة في بئر الحبّ، وكاد ذلك أن يصرفه عن القراءة وكتابة الشّعر والمضي إلى المكتبة. كانت البنت تقف دائماً على تنّورهم المركون في زاوية الحديقة الخلفيّة. وكان يرصد دخّان تنورهم ذات يوم واقفاً في الحديقة، شارداً في الدّخّان، محلّقاً في سماء الوهم، ألفى رأس فتاتهم المستطلع نحوه يباغته بوقاحة. في البدء حدّقت بحذر إلى الجانب الآخر من بيتهم، ثمّ باستدارة بطيئة تطلّعت في وجهه، عيناها في عينَيه ووجهها يقابل وجهه، إلّا أنّها تجاهلته كما لو كان طائراً من الوهم. بنظرة فاحصة قلّبت الطّرف بالحديقة وأشجارها وثيل الممرّات، ورمقته ثانية قبل أن تختفي خلف السّياج.

منذ تلك اللحظة أحبّ جارتهم (سعاد) دون أمل، وجهها الورديّ، وعيناها السّوداوان المتوهجّتان، وفمها المغري. قال له أخوه (فؤاد) من الشّبّاك هل تكلّمت مع أحد؟ أجابه كلّا، ظهر شبح ثمّ غاب، فلم يفهم فؤاد إشارته. لكنّه منذ تلك النّظرة شعر بوجود إحساس غريب يسمّى الحبّ. وكان أبرز ما في بيتهم أشجاره، فهي تحتلّ فضاءً واسعاً من سماء الشّارع. في الضوء المعتم على حافّة النّافذة لبث منتظراً ظهورها ثانية، لأنّ شيئاً ما حدث بينهما، وهذا ما أدركه بعد ذلك المساء وشغله لسنة كاملة. توهّج حبّ في قلبه لم يختبره سابقاً في يفاعته، رغم قراءته لعشرات القصائد في مدحه ووصفه. العينان السّوداوان ل(سعاد) تسدّدان السّهام مثل فارس أندلسيّ يسدّد رميته إلى الأفئدة، ثمّ أخذ يبتكر أغرب الوسائل للقائها. قرب شجرة اليوكالبتوس بعد أن ينام أهلها، من السّطح، تطلّ بغتة، في الصّباح أمام البيت وهي تشطف المدخل، أو لقاء عيون سريع في الأحلام. ظلّ صوت (سعاد) أشدّ الأصوات رقّة وعمقاً، تضحك

فتتكسّر أغصان اليوكالبتوس، يتضوّع الهواء بشميم خبز وخزامى، وغنّت له بصوت خفيض، في ليلة سحر قبل خمسين سنة، أغنية سيتا هاكوبيان: عد وآنه اعد وانشوف/ ياهو اكثر هموم. أطفأ النّور وتسلّق نافذته: رأيتها، نعم طائرك الدّخانيّ، ترتدي ثوباً أحمر شفّ عن كنوزها، ساقَيها البضّين وعجيزتها الضّخمة، وكانت منحنية على مكنستها في الممرّ الخلفيّ للبيت، سكّاكينك أشهرتها، وتحوّلت أظافرك إلى معاول، سوف تتسلّق الجدار، تنطّ نطّاً أو تطير تحليقاً، تنزل الحديقة وتجوس عشبها وورودها، تنتهك حرمة المحارة المغلقة على نفسها، لكن ستصرخ، الفتاة ستصرخ، الضّبع يكشّر عن أنيابه ويسيل لعابه، وسيأتي الأخ الأصغر والأكبر والعشيرة، ابن خالتها وعمّها، وستتناوش السّيوف الماضية جسدك وكأنّك الشّيطان الأخير في هذه المدينة. وعرف حينها أنّ أباها توفّي منذ سنوات، وثمّة من ينتضي الدّرابيش والسّيوف والبنادق، ليجهض حبّهما. هكذا توهّم وتساءل عن معنى الحبّ، وكيف ينمو بين الذّكر والأنثى. لم يمتلك وقتها تجارب في الحبّ. العلاقة مع الأنثى كانت شبه محرّمة. لذلك كان يخلط الحبّ بالجنس، كما قرأ في الكتب أو شاهد في الأفلام التي رآها في سينما المدينة المقابلة لجامع الشّيخ عبد الجليل. عادة ما يتخيّل أماكن للقاء مع (سعاد)، أو يخترعها مع نفسه، وتنتهي تلك الخلوات كالعادة بالمضاجعة الخياليّة التي تهزّ جسده وتدخله في ملكوت النّوم. الحبّ طفل، يقول عاشق النّساء كازانوفا الإيطاليّ، يجب إرضاءه بالتّوافه، لأنّ الأكل الدّسم يقتله. وبعد تلك الليلة أصبحت الفراشات تتكاثر في البيت، واحدة شعر (سعاد) والثانية شفتاها والثالثة عجيزتها المدوّرة. لا يستطيع أبداً نسيان هجومه

عليها في يوم صيفيّ ناعم، وكان يقترب من الامتحانات النّهائيّة التي ستحمله إلى بغداد بكلّ تأكيد.

لمحها عند عودته من المدرسة، تتجه لرمي النّفايات، فواجهها في منحني الشّارع ومدّ يده إلى صدرها، قرّر أن يقطف النّارنج ويحوش التّين، لكنّها ومثل غزال بريّ هربت إلى الجانب الآخر من الطّريق. عيناها فقط شعتّا وأبرقتا، قال لها ستقتلني عيناك، عيناك سكّاكين. وعند الغروب رآها واقفة عند التّنّور، وكان يقرأ في كتاب التّاريخ وقلبه ينتظر. أمطرته بالابتسامات ونظرات العتب واللوم. وهنا يأتيه صوت الصّوفيّ ابن الأندلس من غيهب الغيب منشداً: أدين بدين الحبّ أنّى توجهت/ ركائبي والحب ديني وإيماني، ويردّد هذا البيت كلّما تذكّر بيتهم الصّغير المظلّل بأشجار اليوكالبتوس، وتلك الفتاة التي غادرها بعد أن نجح في امتحان البكالوريا وقبل في كليّة الآداب قسم اللغة العربيّة في العاصمة بغداد.

لم يبح لزوجته (براء) بقصّة حبّه الأوّل، إلّا أنّه سيظلّ يتذكّرها طوال خمسين سنة، كلّما سمع إنساناً يهتف باسم (سعاد). ذلك البيت عزّز لديه التّوق إلى المرأة، إلى الحبّ الذي قرأ عنه لدى الشّعراء الكبار والمغنّين الأفذاذ، وهو ما دفعه لكي يجرّبه في الواقع بدلاً من قراءة القصائد عنه.

تعب من تكرار قصائد نزار قباني، ومجنون ليلى، وأبي نؤاس، وحسين مردان، وعنترة العبسي.

10

خرج من غيهب الجهاز الدّوار وشعر بجسده المنهك يعود إلى وعيه بعض الشّيء، ووجد نفسه محمولاً على أكتاف (بشير) وهو يتجه به إلى خارج المجمع الطّبي، تتبعهما (براء) بعباءتها السّوداء ووجهها المترهّل. قارن صورتها الحاضرة بـ(براء) اللعوب، شعرها الكاريه، وتنورتها القصيرة، وخطواتها في ممرّات الكليّة مثل فراشة ملوّنة.

الزّمن يغيّر البشر، ويقودهم من رؤوسهم نحو اليباس ثمّ الموت، فالعالم السّفليّ ينتظر الجميع، ولا عشتار ستعود بحبيبها إلى الشّمس مرّة ثانية. و(سعاد) الحبّ الأوّل ماتت بالتّأكيد لأن النّساء الجميلات يمتن باكراً. ولم يجد في قلبه أيّة رغبة في العودة إلى ذلك البيت الشّيطانيّ، في مدينته البعيدة، الغريبة عليه منذ أن أصبح شاعراً. سئم من لوحة جلجامش على الجدار، ومن أشباح القطط الميتة، وصورة الشّرطيّ الذي خاطوا رأس كلب على جسده. سئم من أشباح المؤلّفين في مكتبته ومن السّتائر الثّقيلة التي تحجب الضّوء. هو يرغب في ضوء من نمط آخر، وفكّر أنّ بغداد ستضخّه في روحه. بغداد وذكرياتها.

وقبل أن يضعه (بشير) في السّيّارة المتوقّفة على الرّصيف، مقابل معرض بغداد الدّوليّ، حاول بالصّوت والحركة معارضة ذلك، وراح يشير إليه نحو الاتجاه المعاكس، وفهم (بشير) الأمر وتوجّه نحو قلب العاصمة. بعض الأحيان يؤمن بالتّخاطر، خاصّة مع ابنه (بشير)، فهو يدرك رغباته الدّاخليّة، ويهجس بما يفكّر به. وكانت

رغبته ملحّة في الوقوف على جسر الشّهداء، ورؤية النّهر والضّفاف، كرخها ورصافتها، وإشعال ذكرياته في أماكن عاش فيها عشرات السّنين. اتجه (بشير) نحو الشّارع الرّئيسيّ، وعند استدارة حي المنصور انعطف نحو اليمين حيث منتزه الزّوراء، وكلّ تلك اللحظات السّعيدة التي قضاها بصحبة (براء) الشّابّة، عشتاره القديمة التي كانت تجالسه تحت أشجار الصّفصاف.

رأى واجهة محطّة بغداد للقطّارات، وذلك النّصب الذي يحتلّ منتصف الشّارع وكان ذات يوم عنواناً لسلطة غاشمة تمجّد تأسيس حزبها في السّابع من نيسان، النّصب بطوابقه السّبعة التي توزّع المياه من نافورة غير مرئيّة، ثمّ حاذوا المتحف الوطنيّ، بتصاميمه الكلاسيكيّة، وتماثيله العتيقة، وحكايات آلاف السّنين تتالت على هذا البلد، وكاد أن يرى جدّه جلجامش يحدّق إليه من شبّاك صغير، في القاعة البابليّة، يشرف على شارع علاوي الحلّة. وكان (بشير) يمضي في العمق ليصل شارع حيفا بعماراته السّامقة، ثمّ يدخل فرعاً صغيراً مهترئاً، مفتّشاً عن موقف للسّيّارات.

هل هي صدفة أن يجد نفسه في المكان الذي قطّع العامّة، والخاصّة، ورجال الدّين، والشّرطة، جسد الحلّاج على الجسر؟ جسر الكرخ، في صباح بغداديّ حزين، وقد تراءت سكّاكين مؤسّسة الدّين الرّسميّة وهي تقطّع أوصال الحسين بن منصور الحلّاج، وتعلّق أشلاءه على الجسر؟ سيعيدون الكرّة ثانية في كلّ عصر وزمان، مع كلّ حلّاج آخر. هذه المرّة لن يرى صورة جميلة تخفي وراءها واقعاً بشعاً، كما عاشه ذات يوم، أيّام الثّورة المجهضة، بل تغوص نظراته خلف السّياج الحديديّ للجسر، ويعاقر أجنحة النّوارس المحلّقة

على مياه دجلة، وسينسى (بشير) و(براء) الواقفين خلف كرسيّه المتحرّك على رصيف جسر الشّهداء. وستغادر عيناه هذا الزّمان التّعيس ويعود على أجنحة من خيال إلى ألف سنة ماضية.

وجد لسانه يردّد مع نفسه ذلك النّشيد الذي سمعه، وقرأه، وتأمّل في كلماته ومعانيه عشرات المرّات، ليلاً وصباحاً، تحت السّماء وفي داخل الغرف التي كان يجلس فيها. وعادة ما يأتيه النّشيد وهو يحلّق مع الخمر نحو عوالمه العجيبة: نديمي غير منسوب/ إلى شيء من الحيف. / دعاني ثم حيّاني/ كفعل الضيف بالضيف. / فلما دارت الكأس/ دعا بالنّطع والسّيف. كذا من يشرب الرّاحا/ مع التّنين في الصّيف. الفقهاء أفتوا بقتله وقد انتشر كفره وذاعت هرطقته وشعوذته وادعاؤه بالسّلطان الإلهيّ. وإذا لم يأمر أمير المؤمنين بقتله على ما أتى الفقهاء، فسيفتتن به النّاس الرّعاع.

وما حيّره في القصيدة أنّها حصاد خبرة في الشّعر، وقراءات عميقة في التّعبير لم تنبع من روح صوفيّة فقط. كذلك قصيدته والله ما طلعت شمس ولا غربت، وقد تحوّلت إلى أغنية على مذهب المغنية الفلسطينيّة دلال أبو آمنة، وغالباً يسمعها في غوايات السّكر ثمّ يهيم معها في الخيال.

كان شاعراً، صديقه المقتول على ضفّة الكرخ، لكن لم يلتفت الدّارسون إلى مصادر ثقافته وشعره وقراءاته إلّا ما ندر. صوفيّ فقط. هو الذي قال: الله الله في دمي. الشّاعر شهيداً، مقطّع الأوصال، منبوذاً من مجتمعه دائماً، وينكره أقرب النّاس إليه ويتمنّون موته. مثله هو، وهذا ما كان يحسّه أحياناً في عيون زوّاره، وفي عيون (براء) و(بشير). من يحتمل كائناً مقعداً لا

يستطيع مسح فمه؟ ماذا كان الحلّاج يقرأ يا ترى؟ ما هي اللغات التي أجادها؟ وكيف عاش رحلته إلى منابع النّور؟ ولماذا؟

هذه الأسئلة، وغيرها، كثيراً ما خطرت في ذهنه، وتخطر اللحظة، بينما الطّيور لاهية في فضاء قد يكون هو ذاته الذي رآه الحلّاج.

***

أجل، شاهد النّوارس، بعد ألف سنة من قتله، تتزاحم في أسفل الجسر على سمكة مسكينة طفت على السّطح كي ترى الشّمس. وكانت دجلة وقت الحرق مشحونة بالمراكب والزّواريق، محفوفة القصور والجواسق، ترتفع ما بينها أصوات الأغاني، وخفقات النّاي وأصوات الملّاحين، والقيان، وزعقات المؤذّنين. اضربوه ألف سوط، فإن تلف تحت الضّرب، وإلّا ضرب عنقه. يقول صاحب الشّرطة لأتباعه.

لم يكن للحلّاج بين الجمع المتلهّف من المشاهدين المحاط بقوّة حفظ نظام ضخمة أعداء يهلّلون، بل كان هناك فضوليون ومتعاطفون وأنصار متطرّفون ينتظرون معجزة تحرّره من قوّة الشّرطة. أركبوه على بغل من سجنه مسلسلاً مقيّداً، وجلبوه نحو جسر الكرخ للصّلب. واجتمع من العامّة حشد مهول يراقب جلده. رأى الخشبة والمسامير فضحك كثيراً حتّى دمعت عيناه. ضرب أربعمائمة سوط، ثمّ ستمائة، ولمّا بلغت ألف سوط ولم يمت، قُطعت يده، ثمّ رجله، ثمّ يده، ثمّ رجله الثّانية. وقد أُسند على ركيزة قيل إنّها جذع نخلة، بادية للعيان، وقيل هو صليب من الخشب، وحزّ رأسه ورمي جسده وما زال فيه رمق. بعد ذلك لفّ جسده في بارية من القصب، ثمّ رشّ عليه النّفط وأحرق. وكانت

الجثة تتقلّب على الجمر، ورائحة الشّواء ملأت الآفاق، والنّيران تتوقّد. ولمّا صارت جثته رماداً ألقي الرّماد في نهر دجلة. وترك رأسه معروضاً على الجسر يومَين، وبعدها بزمان طيف برأسه بين المدن والدّساكر لإقناع مريديه بموته. وفي ذلك الشّتاء ارتفعت مياه دجلت ثمانية عشر ذراعاً، وادّعى أصحابه بأنّ ذلك بسببه، ولأنّ الرّماد خالط الماء. الزّمن 309 هجريّة. 921 ميلاديّة، زمن الخليفة العباسيّ الملقّب بالمقتدر. وعند حزّ عنقه جرى دمه على التّراب في كتف الجسر، ورسم اسم الجلالة، فضجّت الخلائق بالبكاء والنّحيب كما كتب رواة السّير. جاءت أخت الحلّاج إلى الجذع وقد غطّت نصف وجهها بيدها، ونظرت إليه فقال لها: لماذا تنظرين بنصف وجهك؟ قالت لأنّني لا أرى إلّا نصف رجل. اقتلوني يا ثقاتي/ إنّ في قتلي حياتي. / ومماتي في حياتي/ وحياتي في مماتي. ذلك تاريخ مضرّج بالدّم. وهذا تاريخ تحرّكه الفوضى واختلال الميزان. اختلال ميزان الحياة، تردّدت هذه الجملة في رأسه وهو يحدّق بطرف عينه إلى (براء) وقد اتكأت على حاجز الجسر، ممتلئة الوجه بالدّموع وهي تستعيد ذكرياتها عن ماض لن يعود. ماضي شبابها حين ارتادت هذه الأماكن أيّام الجامعة، بتنورتها الدّاكنة وقميصها الأبيض السّكريّ، الزّي الجامعيّ الذي فرضته إدارة الجامعة. ويستعيد هو أيضاً ليالي الشّهوات في السّرير، وملمس جسدها الأسمر، وشهوتها المتفجّرة من عينَين سوداوَين عميقتَين وهما تحدّقان في وجهه وقت المضاجعة. كلّ ذلك لا يمكن استعادته.

وكانت تقف على بعد خطوات من كرسيّه بجسد مترهّل، تلفّ رأسها بشال أسود وترتدي جبّة قاتمة، الزّي الذي فرضه هذه المرّة،

الشّارع الدّينيّ على البشر، وكانت هناك ذات يوم، حديقة الزّوراء، وشارع النّهر، ومباهج أرصفة السّعدون، وحكايات الأقسام الدّاخليّة للبنات، وموضات الميني جوب والماكسي جوب، وقصّات الكاريه القادمة من عروض الشّانزليزيه الباريسيّة. وكانت النّوارس تطير في عين الشّمس، والضّفدعة تنقّ من شاطئ النّهر، وسيل السّيّارات يتكأكأ على بداية جسر الشّهداء حيث تقبع نقطة التّفتيش المقيتة. بغداد التي أحبّها تنفرش مثل الأفق، مثل رسمة أسطوريّة سقطت من السّماء، أحبّها بصورتها البشعة والجميلة، سكنته وتغلغلت في شعره وروحه وقلبه وعينيه، يشير إلى أيّة جهة وتنبع من ذاكرته حكايات وقصص وأزمان، ولكنّه طوال عشرات السّنين ظلّ يحلم برسم لوحة أخرى لها غير هذه المنفرشة حوله.

سمع صوتاً مخيفاً قادماً من الشّرق يخاطبه بنفور وغلظة فأدرك أنّه هو، الملعون الذي ينتظر انطفاءه الوشيك.

سمعه يقول:

- أنتم جنس ملعون منذ أبيكم آدم، وتاريخكم على هذه الأرض ملوّث بالدّم والهمجيّة والعنف، لماذا تنصت مبهوراً لقصة الحلّاج ذاك؟ إنّه عيّنة بسيطة من بحر فضائحكم. هل صدقتم بوجود ملائكة بينكم؟ تلك أكذوبة انطلت عليكم. كلّكم قتلة ووحوش منذ الولادة. هل تتذكّر صديقك الألمانيّ جورج؟ لم يذكر لك سوى جزء صغير من الحقيقة. حدّثك عن اليورانيوم المنضّد، الذي تسبّب في قتل المئات من مواطنيكم، لكنّه حجب عنك حقيقة أشدّ خطراً، فقدحة صغيرة من ذلك اليورانيوم تسبّبت بقتل مئات الآلاف من البشر ذات سنة. هيروشيما يا حبيبتي. لقد ابتكرتم طرقاً مدهشة

في القتل، حتّى أنا، الشّيطان، أو إبليس، سمّني ما شئت، لم تخطر على ذهني. طوال وجودي الخالد في الكون لم تصل مخيّلتي الشّريرة إلى قطع رأس إنسان وخياطة رأس كلب على جسده نكاية بمهنته كشرطيّ في زمن الاحتلال. ولا فكّرت يوماً بتحويل البشر إلى أرغفة خبز بتفجير انتحاريّ كما حصل في مدينة سنجار وتلعفر وبغداد الجديدة. لكن لا عليك، أنت تقترب من السّر الأعظم، أيّها المقعد، السّرّ ذاته الذي قاد الحلّاج إلى المحرقة. أتعرف ما هو السّرّ الأعظم؟ حين يتساوى لدى الكائن النّور والظّلام، الألم واللذّة، الإله والشّيطان، الخطأ والصّواب، الرّبح والخسارة، الجنّة والجحيم، ثمّ أخيراً، الموت والحياة. السّرّ الأعظم لا ينفصل عن الموت، فاحذر، ثمّ احذر ولا تشتط في تجليّاتك ورؤاك. وسنلتقي قريباً.

- هم، هم... لقد غلبتني يا ملعون. كيف لي أن أغادر الحياة وأترك ورائي كلّ هذا الجمال: النّوارس المحلّقة بسموّ، التماعات الموج في دجلة تحت شمس رائعة، بيتي وزوجتي وابني المولع بالأدب هو الآخر، ثمّ تلك الذّكريات المتراكبة مثل صخور الجبل. هم، هم، لقد غلبتني يا ملعون. سأنفّذ وصيتك كاملة. همهمة مكبوتة، همهمة صلدة، اكتسب بعدها وجه (رسول) لوناً شاحباً، وتعابير مقبضة.

وعلى بعد أمتار من كرسيّه كان (بشير) مستوحداً مع روحه، ناظراً إلى الجهة المسمّاة كورنيش أبي نؤاس، والدّخان ينطلق من فمه مثل فانوس عتيق. هنيهة فارقة ليصاب (رسول) برجفة مفاجئة، يصمّ أذنَيه عن صوت الشّيطان، ويحرّر جسده من كرسي المقعدَين، إذ يترك روحه طليقة لتحلّق فوق البنايات، والشّوارع المهدّمة، وقباب الجوامع التي تركها الولاة الأتراك بين الحارات المهملة، والمقابر التي روت قصص

حروب ماضية وضحايا لم يكونوا سوى وقود رخيص لها، وفنادق ظلّت تؤوي الغرباء على مدار عشرات السّنين.

طارت روحه هاربة من وجوده الأرضيّ، وحلّقت في فضاء المدينة الذي هو في الوقت ذاته فضاء الزّمن المرّ، وقد شارف على الوصول إلى نهايته. لقد فهم الرّسالة.

رأى باعة السّمك، كالعادة منذ عشرات السّنين، يقفون جنب عرباتهم يصيحون بصوت عالٍ على بضاعتهم. الحلّاج لا يعنيهم، والسّمك يتراقص في الماء، وعربات الحلويات البغداديّة يقف بائعوها يدخّنون سجائرهم وينتظرون، ورائحة الزّنخة تلفّ الهواء، والكلّاب السّائبة تقعي في الحفر مغمّضة العيون. وكانت القطط تتشمّم الأكياس والمزابل الصّغيرة المحيطة بكتف الجسر. ويتجمّع البشر في بقعة صغيرة وكأنّهم يعيدون تمثيل مشهد حدث قبل قرون.

حدّق في الأفق البعيد، ولمح عمارة المطعم التّركيّ حيث ساحة التّحرير، وجداريّة الثّورة التي رسمها للزّعيم (عبد الكريم قاسم) أعظم نحّات ورسام مرّ على هذا البلد، وهو (جواد سليم). وبعدها بقليل فندقه الذي سكن فيه سنوات، حين اشتغل مصحّحاً في تلك الجريدة.

يستعيد تلك الأيّام هارباً من رماد الحلّاج ورماد السّنين المختلط باليورانيوم المنضّد.

يحلّق من جديد فوق الضّفاف والزّمن وسطوح العمارات التي تخفي خلفها واقعاً بشعاً كالذي تخيّله في الصّورة الحلم ذات يوم.

***

انعطف إلى يمينه عكس اتجاه شارع السّعدون، وتوغّل في الزّقاق المحاط بفنادق الأكراد، نحو شارع البتاويين. وجد تلك المقهى مناسبة لجيبه، ومريحة لذئب متوحّد يائس مثله، رغم قلّة الخيارات للطّعام. خرج من أزمة فقدان صديقه (هاتف) بقلب كسير وعقل عدوانيّ لم يعد يطيق ما يجري حوله. وكان يتفادى على الأقلّ المطاعم التي يتمّ فيها تفجير مفاجئ، ويضع رأسه بين رؤوس النّاس العاديين، ويجدهم هناك جالسين على الأرائك العتيقة يتناولون طعامهم وكأنّ شيئاً لم يكن، أو هكذا تبدو تعابيرهم. في الليل يقتلون بعضهم البعض وفي النّهار يتناولون البيض المسلوق، وبعضهم يفضّل القيمر بعسل المحموديّة. وكان ثمّة مقهى في الهواء الطّلق. وضع صاحب المقهى الأرائك على الرّصيف، وفي بقعة من الشّارع نصب موقده الغازيّ لطهي البيض والبطاطا وتسخين الكبّة، وقرب طرفه الآخر تجلس بائعة القيمر وهي تضع قيمرها الشّهي، وبيضها المسلوق كأنّه جواهر بيضاء مجلوبة من جبال زاغروس، وعسلها الأصهب القادم من بساتين الدّجيل كما قالت له مداعبة، ومربّاها المصنوع من برتقال بعقوبة. تضع كلّ ذلك جنباً إلى جنب، وتنتظر زبائنها الرّاغبين في فطور دسم.

وتحتلّ المقهى ركناً يطلّ على زقاق ضيّق طينيّ الأرضيّة في كلّ الفصول، وآخر يطلّ على شارع البتاويين. مراقبة النّاس واحدة من متعه التي لم تفارقه منذ أن أصبح شاعراً: شاعر عقيم، شاعر زنيم، شاعر مقعد يتيم، شاعر في زمن الغرينغو، والخطف على الهويّة، والرّشوة، وتجارة الأعضاء البشريّة بحفنة دولارات، شاعر يتجه إلى حتفه ولا يسمع سوى صوته الدّاخليّ. في يوم ما سيعتقد أصدقاؤه بأنّه وضع كي يكون شاهداً على العصر مثل الجواهري وسعدي يوسف وسركون بولص الذي مات في الغربة وصديقه الحميم (رعد

عبد القادر)، صديق مقهى البرلمان، وزميله في كليّة الآداب قسم اللغة العربيّة طوال سنوات أربع، و(هاتف) الذي قضى في تفجيرات سوق الغزل. المدينة تستيقظ من كوابيسها ويورانيومها المنضد، وتصبح عاصمة من جديد ما أن يشعشع ضوء النّهار، فيقترح عليهم الموت، هدنة، معاهدة سلام، وأن يحبّوا بعضهم، إن لم يحبّوهم فلا يقتلونهم على الأقلّ، لكنّ هذه المدينة لا تأبه لهذه الحكمة التي قرأها ذات يوم في واحدة من أناشيد معابد سومر، وربّما معابد بابل، وربّما معابد آشور، وربما في قصيدة من قصائد الحلّاج الشّهيرة. ويتذكّر أنّ المدينة كانت تستفيق من نعاسها، وغيّها، لتبدأ يوماً آخر من السّباق بين الموت والحياة. الصّباح في البتاويين إذن، وصارت الحارثيّة بعيدة، وغاب الطّبيب (واثق) وجهازه التّابوتي، وسمع (بشير) يقول: عمّي (فؤاد) سُجن في سجن الحارثيّة لأنّه هرب من الحرب واستطاعوا إنقاذه عبر وساطات جدّي وعلاقاته مع عشائر تكريت. لكنّ أيّ حرب؟ يسأل نفسه ويحاول التّذكّر فيشعر بالارتباك في بقيّة عقله وذاكرته. هناك حرب كانت الطّائرات تأتيهم من الشّرق، وهناك حرب كانت الطّائرات تأتيهم من الغرب، وكانت هناك حرب تأتيهم الطّائرات من جميع الجهات. وكان جنديّاً في معسكر غرب البلاد، على الحدود السّوريّة. ومضت حرب رأى فيها حرائق النّفط تتصاعد في الأفق وتغطّي على بساتين البصرة، وتصل حتّى مياه الهور قرب العمارة. تلك حرب الكويت. وهناك حرب ثالثة كانوا يرونها على شاشة التّلفزيون في بيت أخيه (فؤاد)، بعد أن يسدلوا السّتائر على الشّبابيك. وبعض الأحيان يضعون حارساً خوفاً من تلصّص الحزبيين على مجلسهم. والسّبب يا (بشير)؟ كان أخوه (فؤاد) قد اشترى صحناً لاقطاً

للقنوات الفضائيّة، إذ ابتكر حديثاً في العالم، بصورة سريّة لأنّه كان ممنوعاً. وعن طريق ذلك الصّحن الذي يضعه أخوه في زاوية تحت أغصان اليوكالبتوس المكلكل على سطحه، يلتقط الصّحن قناة الجزيرة التي كانت تلاحق هجوم الأمريكان أوّلاً بأوّل.

لكن كيف عنّت بغداد على ذاكرته ذاتها؟ ينبغي له الرّجوع إلى الماضي مرّة أخرى. إلى واحته الظّليلة، تلك المقهى الشّعبيّة المطلّة على شارعَين. ما يمور في داخله أثقل ممّا يجري حوله وتدركه حواسه. إنّه في البتاويين، أقدم محلّة في بغداد بعد الاستقلال. وربّما قبله. وتلك البائعة تجلس على كرسيّها توزّع الخبز على الجالسين، وترتّب البيض المسلوق في صحن واسع على الطّاولة. تغرف عجينة القيمر من قدر نظيف تضعه قريباً من رجلها على الأرض. تعدّل من ملفعها بين لحظة وأخرى، تدخّن سجائر رفيعة كلّما غادر الزّبائن وظلّت وحيدة تتأمّل في الشّارع. تجيب على طلبات الفتيات الصّغيرات القادمات من البيوت العتيقة القريبة لجلب الفطور لعوائلهنّ، منكوشات الشّعر، ناعسات الوجوه، لكنهنّ جميلات. في وجوههنّ طزاجة الصّباح، ولا يلتفتن لكلمات الغزل من الشّباب. يجلس عند الشّاب صاحب المقلى الدّائب الحركة.

يجلس (رسول) على أريكة تطلّ على شارع البتاويين ثمّ يتسمع على حوارات الجالسين: رجل بلكنة مصلاوية يقول لرجل كثّ اللحية يقابله على الأريكة: فوضى، ويبدو أنّهما تعارفا أثناء الأكل. نحن أيضاً. فوضى. تمتلك سلاحاً أو ميليشيا، تصبح باشا أيّام زمان، يجيبه البصريّ ويبدو عليه هيئة سائق شاحنة، أو شيء من هذا القبيل. يتدفّق إلى المقهى سائقو سيّارات حمل قادمين

من مدن الشّمال، ويستطيع المرء في هذا المكان أن يسمع اللغة الكرديّة، ويميّز التّركمانيّة، والآثوريّة بجرسها الغريب، وهناك لهجة الغرب العراقيّ ثمّ لهجة الجنوب. وفي المطعم الشّبيه بالمقهى في الهواء الطّلق، الجميع ينكبّ على وجبته. التّعابير متجهّمة وبعضها يبدو عليه البشر، فيفكّر لهؤلاء وكيف يلفّهم الموت من كلّ جانب لكنّهم يبتسمون، ويأكلون، ويتحاورون، ويضحكون، ويدخّنون مثله، بلهفة، كما لو كان اليوم من أسعد الأيّام على هذه الأرض. غالباً ما يتلهّف للسيجارة ما أن يضع النّادل حسن استكان الشّاي أمامه. ومن نافذة البيت المقابلة في الطّابق الثّاني، تنطلق أغنية راقصة. فيروز تغنّي، وفتاة برداء النّوم تخرج من الباب نحو الشّرفة، وتلملم ملابس معلّقة يلعب بها النّسيم، تلملمها من الحاجز ثمّ تعود إلى البيت. يتخيّلها فرحة بذلك الشّعر المصبوغ بالأشقر، فرحة بنهديها النّافرين وعينَيها المتألّقتَين. رغم خراب البيوت المتهالكة، وضجّة شارع البتاويين الصّباحيّة، ونداءات باعة الفواكه، فالفتاة فرحة. يسمع يوسف عمر يغنّي أغنيته الشّهيرة: يا زارع البزرنكوش ازرع لنا حنّة/ واجمالنا غرّبت للشّام وما جنة. يأتي صوته من أحد بيوت المحلّة المتآكلة، من بيت يقع على يمينه. ثمّ يعقب ذلك أغنية لفيروز. وكانت فيروز تغنّي وهي سعيدة: يا جبل اللي بعيد خلفك حبايبنا. كلّ ذلك جرى وسط محلّة البتاويين التي تكتظّ بالمارّة، كعادتها، منذ الصّباح وحتّى يسقط الليل الحذر المشغول بحكايات هذه العاصمة التي قتلت الحلّاج على الجسر.

- عليك بالحاضر، أيّها المشلول، لمَ تهرب دائماً إلى الماضي؟

ينتأ ذلك الوجه الشّيطانيّ من خلف سياج أحد البيوت بغتة، ويرتدي شكل نورس عملاق أسود، يضحك له ساخراً، يغطّي منظره الكريه على الأفق.

- الحاضر صنيعة الماضي كما تقول الفلاسفة. أجد لذّة في عيش تلك الذّكريات مرّة أخرى. ولا تنسَ أنّني أكتبها في الهواء وسيقرؤها من يريد أن يستمتع بتجربة شاعر رأى التّفاصيل كلّها منذ مقتل الزّعيم وحتّى اليوم وأنا أجلس في كرسيي المتحرّك.

- انظرْ ما حولك ألا ترى الخراب يلفّ المدينة؟ وعن أيّ حلّاج تتحدّث وأيّ دم؟ تلك أزمان لن تعود، خاصّة وبلدكم يسير نحو الحفرة، مثلك بالضّبط، ولن تنفعكم الذّكريات، ولا الدّموع والحزن والأمنيات. لقد تجاوزتكم الأحداث، أنت وبلدك وشعرك وحلّاجك وروميك الرّاقص، وبتاوييناك السّائرة نحو الزّوال. عُدْ إلى ذكرياتكَ أيّها العار.

ثمّ يضع نفسه في رغبات هذا المشهد، وينسى الشّيطان أمامه، ولا يفكّر إلّا بالسّاعة التّاسعة حيث يمضي إلى عمله في تلك الجريدة ليبدأ بقراءة المقالات، والشّعر، والتّحليلات، وما يسمّيه القرف اليوميّ من مهنة يتطلّب منه فيها النّظر في مساوئ الكتّاب والصّحافيين، وأخطائهم، وأفكارهم، وشطحات خيالهم. الأمر الذي لا يحتمله في نهاية العمل إلّا بالعودة إلى غرفته في الفندق الكرديّ المسمّى (جبل قنديل)، ليضع أغانٍ عراقيّة قديمة، ويحتسي العرق من زجاجة يشتريها دائماً من سوق البتاويين. لا يضع المفتاح عند الإدارة، يحتفظ به في جيبه فهو لا يرغب في التّنظيف اليوميّ للغرف، التّنظيف الذي تقوم به نساء يقدمن في الصّباح لهذا الغرض. لا يرغب في ترك أحشائه الدّاخليّة من كتب، وملابس متسخة، ورائحة فراش، وجوارب

ملقاة تحت السّرير، لتراها عيون النّساء. عيون النّساء ترى ما لا يراه الرّجال. يمتلكن رؤية مغايرة للتّفاصيل: جورب ملقىً على حافّة السّرير معناه، في نظرهنّ، أنّ هذا الذّكر لا يعير أهميّة لقرينته. بقايا طعام على الطّاولة دلالة على عبثيّته في الحياة. شخص غير مسؤول. عدم كنس الماء في الحمّام بعد الاغتسال دلالة كبرى على تجاهله للنّظافة. وهكذا. عادة ما يحتفظ بالمفتاح في جيبه، وبابه مغلق أمام الجميع. مناوب الفندق يبتسم له دائماً كلّما غادر الفندق أو عاد إليه. يبادله التّحية ويمضي إلى المصعد. لا يقيم حوارات مع أحد لأنّ الجميع غير مؤتمن. ينبغي ألّا يعرف أحد مكنونات الشّخص، بمن يرتبط، وأيّ جهة توظفه لحسابها. نعم.

كانت تلك المقهى الصّباحيّة وبائعة القيمر والعسل والنّادل حسن بائع الشّاي، هي الواحة الحقيقيّة في تلك الأزمان التّعيسة. وكانت أزمنة صعبة وقاتلة. ظلّت الشّكوك تطال الجميع، بسبب الموت والقتل على الهويّة الطّائفيّة والدّينيّة والقوميّة. وتلك ريبة مجتمع فقد البوصلة، وتتالت عليه ضربات القدر وتنوّعت. حوصر عقله فلم يعد قادراً على فهم ما يجري حوله. المواطن يحسّ بالقلق. المواطن ليس سعيداً. المواطن لا يعرف من أين يبدأ في بناء وطنه. أينما يدير وجهه يرى فوضى في الشّارع. اقتنع بأنّه يعيش في واقع غير شعريّ، وينبغي عليه مغادرته في الأيّام القادمة. لا يدري لماذا تشكّل كردستان عالماً جميلاً اختزنه في ضميره، رغم أنّه لم يزرها إلّا يوم كان أخوه (فؤاد) يدرس في جامعة السّليمانية في نهاية السّبعينيّات من القرن الماضي.

***

جاءت تلك التّداعيات وهو يتأمّل بالرّجل الكرديّ الجالس أمامه يلتهم فطوره المكوّن من القيمر والعسل. فذات صباح في تلك المقهى وهو يتناول الشّاي من يد حسن ليضعه على الطّاولة ويرتشف رشفة لذيذة، ويستلّ سيجارة (بن) ويبدأ التّدخين على عادته، لاحظ الرّجل الكرديّ الجالس قبالته وهو يحدّق إليه بعينَين ثابتتَين ويبتسم. صرف وجهه عنه وفكّر بأنّها صدفة ينبغي تجاهلها، وانغمر بقراءة صحيفة طريق الشّعب، وكان عادة ما يشتريها من محلّ قريب من المقهى يضع عادة بعض الصّحف للبيع أمام الواجهة. طريق الشّعب يصدرها الحزب الشّيوعيّ العراقيّ الذي يقع مقرّه في ساحة الأندلس، وعاد إلى العلنيّة بعد سقوط النّظام ومجيء اليانكي. كانت تلك الجريدة تمتلك جمهوراً واسعاً في فترة السّبعينيّات أيّام الجبهة الوطنيّة بين البعثيين والشّيوعيين، ومن مدمني قراءتها أخوه (فؤاد).

وحين رفع (رسول) نظره باتجاه ذلك الرّجل الكرديّ الكهل، امتلأ بالدّهشة. فالرّجل مصرّ على النّظر إليه، ورسم تلك الابتسامة العريضة على وجهه.

نهض فجأة من الأريكة وقال له بتردّد:

- هل تسمح لي بسؤال؟

- تفضّل، أجابه (رسول) بحذر.

- هل تعرف شخصاً اسمه (فؤاد)، كان يدرس معي في كليّة الزّراعة بجامعة السّليمانية، في نهاية السّبعينيّات؟ إنّك تشبهه كثيراً.

رحّب به، وأجلسه جنبه، وأوصى النّادل (حسن) على استكان شاي للرّجل الذي أخبره بأنّ اسمه (رزكار محمّد).

- أنا أخوه الأكبر، (فؤاد) تزوّج وأنجب أربع ذكور وبنتَين، وأصبح ابنه الكبير (علي) ضابطاً في الشّرطة.

- هل هو حيّ؟ بعد تلك الحروب والكوارث يصبح البقاء على قيد الحياة معجزة.

- أجل إنّه حيّ ويمتلك بيتاً، وقد ترك الوظيفة في إعداديّة الزّراعة بعد دخول الأمريكان واستطاع الخروج إلى التّقاعد، ثمّ أسّس محلّاً لبيع الأدوات الزّراعيّة كالمجارف والمعاول وآلات البذار والأسمدة الكيمياويّة. ثمّ أدخل المكائن الصّغيرة لجزّ العشب في الحدائق، وكانت القرويات يفضلنها على المناجل والمقصّات. وجلب أيضاً الأدوية والمرشّات لمعالجة البعوض والدّيدان التي تأكل ورق التّين، والصّراصير في الحمّامات والغرف. وتوسّعت تجارته في المحاصيل الزّراعيّة، وصار من أثرياء القرية.

- هل ما زال شيوعيّاً كما كان في الجامعة؟ كان لا يترك مظاهرة للشّيوعيين إلّا ويخرج فيها.

- كلّا، لم يعد يقرأ حتّى طريق الشّعب بمرحلتها الجديدة التي بدأت بعد رحيل ديكتاتورنا الجميل وعيشه في حفرة، لكنّه ظلّ يكره رجال الدّين بقوّة غريبة.

حكى له كلّ ما يعرفه عن (فؤاد)، وكيف هرب من حرب إيران بعد نقله إلى قاطع قصر (شيرين)، وجرح بقذيفة هاون، ورقد أسابيع في مستشفى بعقوبة، وأثناء هربه من الجيش فكّر بالالتحاق بالفصائل الثّائرة التي وجدت لها بيئة مناسبة في منطقة الأهوار، لكنّ خطّته فشلت في اللحظة الأخيرة. ومن بعدها اتفق مع صديق له من كركوك كان يعرفه من أيّام الدّراسة في جامعة

السّليمانيّة، للصّعود إلى جبال كردستان والعمل مع الأنصار الشّيوعيّين، ولسبب يجهله فشلت الخطّة أيضاً، ممّا اضطره لتسليم نفسه للسلطة في العفو الذي عادة ما كان الرّئيس يصدره للهاربين. مرّت عليه الحرب بسلام فلم يقتل مثل مئات الآلاف من جيله.

- مال فؤاد إلى التّطرّف في نقده للدّين والمتديّنين، وبعد أن تحرّرت القرية من القاعدة صار يقرأ كتباً تهتمّ بجذور التّطرّف في التّراث، ويتابع أفلاماً على اليوتيوب لملحدين، ولا دينيين عرب، تمسّ قدسيّة النّصّ القرآنيّ والأحاديث النّبويّة، وأنت تعلم أنّ الرّقابة لم تعد تسيطر على وسائل التّواصل الاجتماعيّ، فصار بإمكان أيّ فرد أن يدلي بدلوه في هذا المجال، مهما كان غريباً أو شاذّاً متطرّفاً، وبدأ هو الآخر يخطّط لكتابة نقد للنّصّ الدّينيّ، فراح يجمع الآيات التي وجدها تشجّع على القتل والحرب والعنف، واستولى عليه الهوس حتّى إنّني نصحته بالكفّ عن المشروع المهلك، وعليه أن يلتفت إلى محلّه وأسرته، لكنّه لم يكفّ، وكثيراً ما سهر ليلاً في تأليف كتابه.

- هذا مشروع يقود صاحبه إلى الموت.

- قلت له هذا وذكرته بالمفكّرين المسلمين الذين اقتربوا من الخطّ الأحمر فتمّ قتلهم أو حرقهم، أو على الأقلّ أحرقت مؤلّفاتهم، وضربت له مثلاً بـ(ابن الرّاوندي) الملحد.

وبعد ساعة من الحديث مع الرّجل تبادل معه أرقام التّلفونات ثمّ نهض ميمّماً صوب سيارته المركونة في الزّاوية. كانت صدفة غريبة لا تحدث إلّا في الأفلام الهنديّة، فاتصل بـ(فؤاد) عبر الهاتف الجوّال وأخبره عن لقائه بالرّجل والحديث الذي دار بينهما، إلّا أنّ (فؤاد) لم يتذكّر اسم الرّجل، ولا ملامحه، وقال ضاحكاً: ثلاثون سنة مرّت على

وجودي في الكليّة. وحين قرّر (رسول) لاحقاً زيارة السّليمانيّة تواصل مع الرّجل. وكان ذلك بعد سنة من تلك الجلسة.

اتصل به هاتفيّاً وأخبره إنّه مزمع على زيارة المدينة فرحّب به، وطلب منه جلب أخيه (فؤاد) إن رغب في لقاء المدينة التي عاش فيها أربع سنوات من جديد. وأخبره إنّه سوف يسهّل عليه الدّخول من خلال كفالته له وضمانته، وإنّه يستطيع مكالمته حال وصوله إلى المكان الذي يتوجّب فيه إجراء مثل هذه الأمور. خرج من مدينته وهو في غاية الحبور. كيف لا وهو أخيراً سوف يرى صديقته الجميلة، القديمة. مدينة السّليمانيّة. يتمتّع أسبوعاً على الأقلّ في ربوعها هرباً من الحرّ الشّديد، والغبار الدّاكن الذي أطبق على المدن والقرى البائسة لأسابيع، ناثراً كآبته وضيقه في النّفوس. (فؤاد) رفض مرافقته بحجّة أنّه لا يرغب في العودة إلى الماضي. الماضي لن يتكرّر ثانية كما أكّد له. اتجه (رسول) إلى هناك هرباً من جحيم الصّيف، ومن الحياة الرّتيبة، عدا عن البحث عن مصادر جديدة للإلهام، فلسوف يجلب لشعره مشاهد وصوراً ملوّنة وواجهات أبنية وتعابير سحن فارقها منذ عشرات السّنين. وسيتذكّر خطوات أخيه فؤاد في أزقّتها، وشوارعها، وساحاتها، وسيدخل مطعم (تارا) وينادم الأشباح في مطاعم (سرجنار) السّياحيّة، والماء يجري بين سيقان الشّاربين، والفراشات تطير من جبل إلى آخر، وطائر القبج يتسلّل تحت شجر البلوط مفتّشاً عن أنثاه. لكن كلّ ذلك لم يحصل. وصلت الحافلة إلى السّيطرة المشرفة على المدينة وطلب منه المسؤولون عليها أن يأتي بكفيل، فقال لهم إنّ فلاناً وعده بالكفالة وإنّه سوف يتصل به من أجل الحضور. وفعلاً حاول

الاتصال دون جدوى، فالهاتف لا يرنّ، فعلم أنّ صاحبه غير موجود، وأنّه سوف يعود بخفّي حنين من رحلته التي كان يعول عليها. حاول إفهام مسؤولي السّيطرة إنّه فقد كفيله، وإنّه مواطن جيّد لا غبار عليه، وشاعر وكاتب، ومن أجل زيادة التّأكيد أراهم هويّة اتحاد الأدباء الرّسميّة، ولكن كلّ هذه الأمور لم تجدِ نفعاً. لا شاعر ولا ماعر، فالقانون صارم ولا يمكن اختراقه بأيّة وسيلة كانت. لوى عنق آماله راجعاً إلى مدينته التّرابيّة وهو يكاد يختنق حسرة. تعيش مع الشّخص سنوات لكنّك لا تعرف حقيقته كلّها. لم يلتقِ بـ(رزكار) إلّا ساعة واحدة. نعم، الإنسان ذلك الكائن المنسوج من نبل وحقارة، كبرياء ووضاعة، خسة وشجاعة، ولا يعرف المرء على أيّة صفة يقع، ومتى تفرض نفسها على الشّخص، وفي أيّ ظرف. ولبث طوال الطّريق يدمدم مع نفسه بمثل تلك الخواطر، ويتساءل في سرّه لماذا يحدث هذا الأمر؟

وأخيراً صرخ ملتفتاً إلى المدينة التي حرّموه من الدّخول إليها: زمن التّفاهة، زمن لا شعريّ، زمن بريمر، وجورج بوش، وأبي مصعب الزّرقاوي، وهذا ما سيحدث لاحقاً في ظلّ الموت الشّيطانيّ الذي كان يرفرف براياته على رؤوس الجميع. موت شيطانيّ، طوفان من المعوّقين لحروب متتالية، وفقدان للعقل، وتشرّد، يراهم كلّ يوم في مشواره الصّباحي نحو الكرادة أو الشّورجة أو أحياء الصّدرية. معوّقون يتجلّون بوضوح في ساحة الأمّة حين يتجمّعون صباحاً انتظاراً لمقاول يستأجر طاقتهم أو مفخّخ يرسلهم إلى السّماء.

وفي سنة الغربان تلك، في تلك السّنة التي هجم فيها ظلام الفكر والدّين، والقتل، هجوم الحرس كما يقول الشّاعر الأندلسيّ، قرأ

جلال الدّين الرّومي علّه يصبح شاعراً صوفيّاً. أمام صلادة الواقع وقسوته ما على المرء سوى الرّكون إلى قوقعته الرّوحيّة، ومفاهيمه، وذائقته. هو غريب دائماً. فكيف إن شاء قدره الأعمى في أن يكون شاعراً؟ أخوه (فؤاد) مات بوباء الكورونا. صديقه الشّاعر (فارس الماجدي) خطفوا ابنه في منطقة الكرخ. الشّاعر الرّقيق (رعد عبد القادر)، رغم ضخامة جسده، مات قهراً ممّا يعيشه وطنه. و(ثامر حسين) يقطن في برلين ويرسم لوحات هايكو ملوّنة. هو غريب على النّهرَين، والشّطَّين، والضّفّتَين، غريب على الخليج غربة شاعره المفضّل بدر شاكر السّيّاب. تلك حياته بعيداً عن (بشير)، و(براء)، وحي التّأميم الذي يقيم فيه منذ الغزوة الأمريكيّة المظفرة. فرات يا فرات. يشتاق لصفصافه، ورمله، وسمكه الجري والشّبوط والبني، وبلابل طرفائه وأمواجه التي يسبح عليها الضّوء، وديدانه الحمراء وهي تحفر مسارب في عجينة جدّتهم الأرض.

11

قضى سنتَين كاملتَين في ذلك الفندق.

صاحبه كان ينظر له بريبة، والمنظّفات اللواتي يلتقيهن بعض الأحيان صدفة في أروقة الفندق يخزرنه شزراً، وحين يجد المصعد شغّالاً يتسلّل عبره إلى الأسفل مثل لصّ. ولأنّه لا يميل إلى استباحة غرفته من قبل نساء لا يعرفهنّ، ويتحاشى الأسئلة ونظرات الفضول، يضطر إلى تنظيف غرفته لوحده. يغسل ملابسه في المغسلة المركونة عند زاوية الحمّام، والحمّام مشترك للمراحيض والدّوش. يتمدّد في سخونة الصّيف على سريره ليطالع ما خزّنه من كتب في ذلك الجهاز العبقريّ المسمّى (تابليت). علّمه (بشير) كيف تُحمَّل عليه الكتب، وكيف يستخدمه بما يشبه البراعة، كونه من جيل عتيق لم ينشأ في الفضاءات السّيبرانيّة، والمعرفة الرّقميّة. والتّابليت صار حلّاً نموذجيّاً لبناء مكتبة إلكترونيّة.

هل يتذكّر نماذج ممّا كان يقرؤه في لياليه الطّويلة أيّام ما كان نشط السّاقَين، واعي الذّاكرة، مهاب الفكر والشّعريّة والحركة؟ هاكم القائمة: العراق بين احتلالَين، هاملت، شجرة الدّر، مقبرة الكتب المنسيّة، محاورات أبي حيان التّوحيدي، المثنوي لجلال الدّين الرّومي، شعر شعبيّ لمظفّر النّواب، كتّاب ماسينيون عن الحلّاج، روايات رشيد الضّعيف، الخبز الحافي لمحمّد شكري، أحزان السّنة العراقيّة لصديقه خزعل الماجدي، رباعيّة الإسكندريّة، مذكّرات بابلو نيرودا، بصرياثا لمحمّد خضير، مزارات بغداد لمحمود العبطة، مذكّرات البديري

الحلاق، حياة نيتشة، لزوميّات أبي العلاء المعري، دون كيخوته، الجريمة والعقاب، روايات إبراهيم الكوني، الثّقوب السّوداء، حياة سلام عادل، تحت جداريّة فائق حسن، ملحمة جلجامش، وينال استحسانه ذلك الاستهلال الرّهيب لتلك التّرنيمة السّومريّة الفذّة، التي تقول: هو الذي رأى كلّ شيء، فغنّي باسمه يا بلادي. كذلك الدّيانة البوذيّة، وقلعة آلموت، ورواية سمرقند، ومائة عام من العزلة، ومذكّرات نجيب محفوظ. وهكذا، تشكيلة عجيبة من الكتب الإلكترونيّة دفعته إلى ينظر إلى مكتبته الورقيّة بازدراء، فجميع كتب العالم تحت كفّه، فيشكر ابنه (بشير) لأنّه دلّه على هذا الكنز من المعرفة، خاصة في تلك السّنوات المظلمة من حياته. إلى أن انجلت موجة القاعدة والقتل على الهويّة فترك الفندق ورجع إلى مدينته.

بعد اختفاء الشّيطان الذي تجسّد له بهيئة نورس عملاق ولامه على نكوصه نحو ماضيه، وكان (بشير) و(براء) منشغلين بالحديث عن شارع المتنبي القريب، ومراكب السّائحين في عرض النّهر والأغاني المتصاعدة في فضاء بغداد، عاد مرّة أخرى إلى تلك السّاعة من جوّ ما قبل الظّهيرة. ووجد تلك البنت على بالكون الطّابق الثّاني تحدّق بالمارّة وتنتظر العريس على الأغلب، فشعرها مصبوغ باللون الأشقر، وبشرتها سمراء مثل تمرة زهدي. رجلان يتحاوران رجل بصريّ وآخر من الموصل، يتهامسان، يضحكان، وجهاهما أسمرا البشرة، يمتصّان سيجارتيهما بلذّة، ثمّ ينهي هو الآخر سيجارته وسرعان ما يفقع الضّوء على الجدار المقابل فيجذب نظره تلك اللوحة الجميلة. يراها أم يتخيّلها؟ على واجهة البيت المقابل، وهو بيت قديم جدّاً، ربّما يعود إلى واحد من اليهود الذين هاجروا

من البلد قبل مجيء النّظام الجمهوريّ، والبيت كلّه بهيئة مزرية، وكانت هناك طائرة ورقيّة تسبح في السّماء بهواء خفيف يحرّكها صبيّ يقف على سطح البيت. اللوحة تظهر ديكَين وعنقود عنب وزهرتَين على أرضيّة من الفسيفساء الملوّن الصّغير. ديكان يقفان بمواجهة بعضهما بعضاً كما لو يتأهّبان للعراك. فوق رأس الدّيكَين يتدلّى عنقود عنب بحبّات كبيرة محاط بأوراق مثل تلك التي تملؤها أمّه وخالاته بالرّز واللحم المفروم والبهارات لتصنع منها أكلة الدّولمة. يشتدّ الضّوء وهو يتأمّل بتلك اللوحة المرقوشة على جدار عتيق متهالك في زقاق من أزقّة البتاويين بمواجهة كراسي المقهى وطاولاته. تحديداً في ذلك المساء، أوحت له تلك الجداريّة الصّغيرة بقصيدة صراع الدّيكة، كتبها في غرفة الفندق والسّاعة كما يذكر كانت تشير إلى السّادسة صباحاً:

في صراع الدّيكة/ حالة مرتبكة/ بعضها كان هزيلاً/ لا يخوض المعركة/ فاستوى ينفش ريشاً/ بعد أن كان قصارى جهده/ أن يجيد الصّعلكة/ بعضها يمكر حدّ الفبركة/ كي تراه المملكة/ ألمعيّاً لا يجيد الصّمت/ فالصّمت غباء/ يظهر الدّيك عديم الحركة/ قيل إنّ الدّيكة/ عاهدت ثعلبها أن تشركه/ في العناقيد على الخير فتنمو البركة/ بينما الكلّ يهز الشّبكة/ ويؤدّي منسكه/ أطبق الثعلب ناباً مهلكة/ فتوارى الدّيكة.

الفنّ يؤبّد الزّمن والمشهد، البديهيّة التي آمن بها من زمن بعيد. مثله حين يكتب في رأسه قصائده، وأوهامه، ومشاهداته. حين يكتب خيالاته اللذيذة. لا أحد ينبغي أن يستهين بكتابة الهواء هذه. أليس كلّ شيء زائلاً؟ الخلود كلمة يتوهّم البشر وجودها فلا شيء خالداً في

هذا الكون العجيب. أرضهم جميلة بأشجارها وطيورها ومائها وعيون بشرها وطيران حشراتها وألوان أفقها حين تشرق الشّمس، أو تنحدر للمغيب. خاصّة إن كان هناك غابة نخيل بعيدة تمتصّ سعفاتها تلك الشّمس المدوّرة مثل برتقال بساتين الطّفولة.

***

يشتدّ الضّوء ويسمع ضوضاء تتصاعد، تدخل حواسّه كلّها بغتة بهجوم جيش منتصر، ويسمع دوراناً مصمّاً لسيارات زاعقة، وأشخاصاً يصيحون ويتحاورون، ويشمّ الكربون والغبار وعفن المجاري. تغيب نوارس دجلة، تغيب العمارات من الأفق، تغيب تلك الجداريّة، جداريّة الدّيكَين، ويعود إلى (براء) و(بشير) فيجد روحه على ذلك الكرسي المتحرّك، كرسي الشّاعر الذي يحاور الأشباح والشّياطين وقد تحوّل إلى كومة من الذّكريات لا تنتظر سوى عصفة خفيفة من الهواء حتّى تنتهي إلى غبار.

أين هو؟ لا يمكنه التّركيز. لقد انفصل عن اللحظة الحاضرة تماماً، ولم يبقَ بين جفونه المطبقة على الهاوية سوى ذاكرة بعيدة. من نافذة ذلك الفندق رأى بقعة واسعة من المنطقة الخضراء، مقرّ الحكم، القصر الذي قطنه مستبدّهم ذات يوم وسبّب لهم كلّ تلك الكوارث. أسماه الحاكم بأمر الله في تلك الليلة. شرب نصف زجاجة من العرق وتوصّل إلى كشوفات روحيّة جديدة. تأمّل بغداده من شبّاك غرفته واكتشف أنّ الوجود كلّه متنوّع ويجب أن يرضى البشر بهذه الحقيقة كي يتسنّى الاندماج بحضارة العالم: خذوا الغازات المنتشرة في الجوّ، خطر ذلك لذهنه، هي مئات وربّما آلاف

الذّرّات، كلّ ذرّة ولها تركيبها الذّرّي وخصائصها وتفاعلاتها، وخذوا الدّيدان في تراب الأرض، ألا تجدون آلاف الأصناف كلّ واحدة من تلك الأصناف تأكل طعاماً يختلف عن تلك التي تأكلها الأصناف الأخرى؟ تتزاوج وتتنفّس وتدافع عن نفسها بشكل مختلف؟ خذوا الأديان، ألا توجد عشرات الأديان، وربّما مئات، كلّ دين يعتقد أنّه الأصحّ والأفضل؟ خذوا الأفكار كم يوجد منها في الأذهان، ما غاب وظلّت تعاليمه في الكتب الصّفراء، وما بقي على قيد الحياة، هل رأيتم كم هي متنوّعة متصارعة متناقضة يصعب الجزم بأفضليّة فكرة على الأخرى؟ وصل إلى كشوفات رهيبة وهو يتأمّل المدينة، ومن فضاء تلك التّأمّلات بدأ بكتابة نصّه المحكم عن المستبدّ.

وفجأة وهو منغمر بالكتابة أطلّ من الشّبّاك المغلق وجهه المارق، الشّبيه بوطواط قبيح، وأسفر عن تكشيرة متشفيّة، تتلذّذ بتعذيبه، وقال له بصوت أجشّ:

- أنظرُ، كلّكم صمتم في عهده، بل وكتب بعضكم مديحاً لحروبه، ومظاهراتكم المؤيّدة له لم تتوقّف حتّى زوال سلطته. في رؤوسكم لوثة دون شكّ. أنت مثلاً، ألمْ تتوسّل لمعارفك كي يوظّفوك في مجلّة الجندي هرباً من وجودك في جبهة الحرب؟ ألمْ تدبّج مقالات عن فروسيّته وشجاعته في خوض حرب ضروس استمرّت ثماني سنوات؟ هل تعتقد أنّ النّاس تنسى تلك الحقبة السّوداء من تاريخ هذا البلد؟

- كلامك فيه بعض الصّحّة، لكنّني كنت أسبّ وألعن حين أختلي بـ(هاتف) صديقي. كما كنت أهرب من جبني وازدواجيتي إلى الخمرة كي أستعيد توازني. وكم من الليالي وضعت صورته أمامي،

وألقيت عليه محاضرة مدمّرة عن النّفق الذي قادنا إليه معصوبي الأعين. كنت في بعض الليالي الثّقيلة من السّكر أبصق عليه، وأتلفّت مذعوراً من أن يكون رآني أحد من المخبرين. أنت لا تتذكّر لأنّك لم تكن حاضراً في حياتي وقتها أيّها الشّيطان.

- كلّكم تكذبون وترسمون لأنفسكم تاريخاً آخر.

- اسمعْ إذن ما كتبته عنه في ليلة من السّحر والأشباح والتّهيؤات. اسمع يا كلب.

- هات ما عندك، لقد انتهيت جثّة متحرّكة ولا تنتظر سوى الدّفن.

- هذا هو جوابي أيّها الملعون. فاسمع: تستطيل الرّقبة وتستدقّ، يبدأ من نهايتها الرّأس الغامض المرعب، فهو القناع والحقيقة، الإطار والصّورة. الهواء أنفاس معذّبين والضّوضاء قعقعة أسلحة آتية لاصطياده، والشّفق كلمة سرّ لإزاحته عن العرش. أذناه تنفتحان، يدوّي النّفير، مثلما يحدث دائماً كلّما جاء المساء. كلّما جاء المساء يشعر بنفسه تسقط في هاوية كونيّة غير مفهومة، هاوية من العبث، واللا جدوى، واليأس، والضّياع، دون أن يجد تفسيراً مقنعاً لسبب انفتاح تلك الهاوية، وقد واراها عميقاً في خبايا روحه، المستبدّ لا يبوح بهواجسه لمخلوق، لأنّه لا يثق حتّى بملابسه. العلم هناك، على أبراج القصر، والقصر قفص. يتركّز الجواسيس خلف كلّ ستار وحجاب، وخلف كلّ باب وشارع. جواسيسه، وعمّال خدمته السّريون، يصعب عليه تمييزهم. رقبته جذع نخلة مشقّقة. شقوق ترسم وجوهاً متقابلة لنساء ورجال ابتلعهم بفمه الغامض. وجباته اليوميّة يتناولها في قصوره المزروعة في أرض الوطن، البسمة غائبة عن الوجه، العينان تترصدان، تمساح

في بركة موحلة، وتستولي عليه الرّغبات. سيّدات قصر يختارهن بعناية، مدرّبات على إرضاء نزواته الطّارئة، الممتلئات الهيفاوات، الشّقر والسّمر، الطّويلات والقصيرات، تحت تصرّفه، عادة يصعدن درجات السّرير، شفافات هفهافات. اللذّة لديه صرع وغواية، يمارسها في المراحيض أو خلف شجرة زنزلخت، أو وسط ساقية زنخة، فلذّته لا تؤجَّل. أمضى سنيه انتظاراً كي يصبح رئيس هذي البلاد. هل ينتظر اللحظة التي سوف يُخلع فيها؟ لا بدّ أن يرحل يوماً تاركاً كرسي العرش، والصّولجان، والتّاج، ونساءه الرّهيفات. رقبته توحي، أو، ترسم نسراً خياليّاً هائلاً متوحّشاً، يقتات على جثث الضحايا. نعم، المتآمرون سيخلعونه عن الكرسي، متآمرون من الوزراء والموظّفين، وخوارج شعبه لهم الزّنزانات المبثوثة تحت تراب الوطن، وفوقه. أنفه على هيئة مقصّ، عيناه ثابتتان تنفذان إلى دواخل النّاس. عينان هما رعب الحاشية، وذاكرته غاصّة باللمحات الباقية من معركته القديمة حين تحرّك لمهاجمة القصر في مقدّم أتباعه، وكان ذلك منذ عقود بعيدة، وقد تبعثرت الدّرابزينات بانفجارات الهاون، وبانت الصّدوع في الجدران، وأزّت النّيران بوابل من الطّلقات، وتناثرت الجثث في الحدائق والباحات. لكنّ إعلامه أطلق على ذلك الانقلاب اسم الثّورة البيضاء، وغنّى مآثرها مغنّ بدويّ اسمه (الملا ضيف الجبوري). لم ترقَ في تلك الليلة قطرة دم واحدة، لكن من يصدّق الخبر؟ كانت ليلة فاصلة في حياته، كتفاه عاليتان كقباب الأضرحة، يطليهما مثل القباب بماء الذّهب ويرقشهما بالقيشاني ويزججهما بالنّجوم، وخرائط الكتفَين والصّدر تروي معاركه الوهميّة التي خاضها: مرّة على ظهر فرس وأخرى على برج دبّابة، وأحياناً يعنّ له الخيال فيمتطي صاروخاً

كما لو كان جملاً من قطيع القبيلة. هل استبدلوا طبّاخيه المأمونين بفريق من القتلة معتادين على إخماد كلّ تحرّكاتهم بصمت؟ هل يذرّ المسمّمون السّيانيد على الأطعمة؟ وتلك الخطا الثّقيلة الحذرة، هل هي لمن جاء يخمد أنفاسه مستغلّاً نومته غير الهانئة؟ كيف يحدث هذا وهو يستلّ أبسط الظّنون والرّيبات من أعماقهم؟ يرسل أعداءه إلى دهاليزه وأنفاقه ليلاقوا مصيرهم، فيتحولّون أطعمة لوجباته السّريعة: الرّؤوس للفطور، الأفخاذ للعشاء، والظهور ما بين الوجبتَين. إنّه خائف، رغم أنّ الجيش يطيع أوامره مثل آلة. شعائر القصر لا تسمح بأدنى تغيير في الوضع: شعائر تنظيف المائدة وسحب السّتائر أو بسط سجاد المراسم طبقاً للتّعليمات المقرّرة، وتوزيع الحرس على الأبواب السّريّة والقاعات الدّاخليّة. طقوس تنظيفه قبل أن يمضي إلى سرير العظمة. برامج الإذاعة والتّلفزيون، ومانشيتات الصّحف، رسمها عقله ذات يوم إلى الأبد. يستمتع بأغاني المجد المبثوثة وهي تشيد بدولته، أو تستعيد ذكرى الحروب التي خاضها. ينصت عميقاً في الليل، ويسمع طرقات خافتة في الأسفل. من يقبع هناك، تحت، يخبط الحائط؟ هل أنّ سلفه الذي أزاحه عن العرش ما زال حيّاً؟ المستبدّ السّابق الذي راوده عن العرش، هذا العرش الذي يجلس عليه مكهرباً بالأصوات والإشارات واللغط؟ الزّنازين تمتلئ بالمساجين، من مؤيّدي المستبدّ السّابق، ورجال الحاشية المشكوك في غدرهم، والغرباء المقبوض عليهم في الحملات التي ينفّذها رجال شرطته دوريّاً، كتخويف وقائيّ. ثمّ ينتهي الأمر بالضّحايا منسيين في زنازين الأمن الوطني: أمن الجبل والسّهل والرّابية، أمن الوطن الذي صار إقطاعيّة لأقاربه، ومريديه، وسماسرته، وخدمه، وقوّاديه. حرّاسه

حوّلهم وحوشاً، قساة لا يمتّون إلى البشر بصلة. لماذا يرتدون وجوهاً قدّت من الصّخر؟ أو يلبسون الأقنعة في حفلات التّعذيب؟ لست في حاجة إلى أحياء، يقول عادة لرجاله ويكرّر الدّرس يوماً بعد آخر، فحرّاسه كلّابه، ولكلّ مستبدّ كلاب. ونطّ الملعون فجأة من دهاليز الخيال ووقف على المغسلة وقاطعه عاوياً:

- لا تبالغ في وصفك لحياته، ومشاعره، فأنت لم تكن حاضراً في أرق لياليه، ولا حاضراً حين تعرّض لمحاولة اغتيال في مدينة الدّجيل، وكلّ ما كتبته لا يعدو أن يكون تهويمات حاقد مهزوم.

- هل تعرف أيّها المسخ كم قرأت من خطابات، ووثائق، ورأيت فيديوهات، وتابعت إشاعات وأقاويل حتى كتبت هذا النّصّ؟ أنا لست كسولاً، وأتقمّص المشهد كما لو أنّني عشته أنا نفسي.

- أكمل رجاء، لقد أفحمتني.

***

اسمعْ إذن: كلابه التي تلتقط فضلاته المكوّنة من قصور باذخة، وسيّارات فارهة، وفتيات جميلات، وحسابات بنكيّة، يخاطبهم باحتقار: ها قد جلبتُ لكم خبرة الشّرق والغرب، الشّمال والجنوب، فحافظوا على دولتي، وصونوا ترابي، وذلّوا أعدائي، لن يسألكم أحد عن الأموات: أصبحت حاكماً لا لكي أملك هذا القصر المظلم، الكئيب، بل تلك المدينة الملوّنة والرّقطاء، الصّاخبة بأصواتها الألف، وذلك الوطن المترامي الذي استعصى على من ملك قبلي. استعصى على المغول والسّلاجقة والبويهيين والصّفويين والعثمانيين والإنكليز. حتّى جئت أنا وروضته.

وكان يقف وقفة ثابتة، عيناه مخيفتان، يداه لا تميلان، رأسه لا ينحني، جسده منغرز في الأرض كعمود من أعمدة الآلهة. لكنّ المدينة تستعصي عليه دائماً، وثمّة منشورات، وكتابات على الجدران، ودسائس، ووشايات، ورسائل شفهيّة تُنقل خلسة من شارع إلى آخر. المدينة ممتدّة في الليل، متلفلفة تنام وتغطّ في نومها، وحلّ فجأة قراره حين أصدر أوامره النّافذة بمنع أغنية يا صبحة هاتي الصّينية/ وصبي الشّاي ليك وليه/ للمطرب السّوري (موفق بهجت)، ووجّه باعتقال أيّ شخص يغنيها في الشّارع، أو يجرؤ على عزفها في محلات تسجيل الأشرطة المنتشرة في شارع الرّشيد، وساحة الميدان، وبقيّة المحافظات. كون الدّول المعادية لنظامه، والمغرضون من شعبه، صاروا يبثونها ليل نهار من إذاعات تسخر من أمّه التي تحمل الاسم ذاته.

وعليه أن يلجم المدينة بالنّار، المدينة التي يخاف حتّى مقابرها، فالأموات يهمسون، يتكلّمون، يبربرون، والأموات الذين مرّوا من تحت قبضات جلّاديه لهم سطوة: دبابير الذّهن، كما وصفهم ذات مرّة إلى أحد أصدقائه. وفي آخر الليل، يسكن كلّ شيء، لكن في القصر فقط.

تتحرّك المدينة، تدور العجلات عبر الشّوارع، وتدور الشّوارع كدواليب العجلات، ثمّ تهبط أسطوانة، وتخدش إبرة تسجيل قديم، وتأتي الموسيقا وتروح في التّجويف المدمدم في الشّوارع، ترتفع عالياً مع الرّيح التي تدور خلل المداخن وذرا الأشجار. وتلك الحانات اللعينة، حانات دجلة التي تحوّلت إلى أوكار للكلام، للإشارات، للجمل الموحية والغامزة والمتذمّرة بشكل غير مباشر. وإذا المدينة عجلة دوّارة، محورها المكان الذي يظلّ فيه ثابتاً، فليله نهار ونهاره ليل، وأزمانه لا تقاس بالسّاعات، بل بعدد المعارك التي خاضها في

رأسه!! ومن بين أصوات المدينة يتعرّف بين الحين والآخر إلى نغمة، إلى نداءات، إلى لحن، نفخات من بوق، ترتيل مواكب، أطفال مدرسة منشدين، مارشات جنائزيّة وأغانٍ ثوريّة تترنّم بها جماعة متظاهرين، أناشيد لتكريمه غنّاها جند فرّقوا المسيرة. ألحان رقص ينطلق بها مكبّر من ملهى ليليّ بأعلى قدر من الصّوت لإقناع الجميع، بمن فيهم المستبدّ، بأنّ المدينة تداوم حياتها السّعيدة.

وهو يتعجّب اليوم كيف تجرّأ على كتابة تأمّلاته في ظاهرة المستبدّ، رغم أنّ الجميع يملكها بتفاصيلها، فمادّة مثل هذه يمكن أن ترسله مخفوراً إلى زنزانة تقع في سجن غائص تحت ساحة التّحرير، أو ردهة سريّة حفرت تحت مدينة الطّب. ولن يستغرب من أن يكون طعاماً لأسماك دجلة. الأسماك التي تحتشد في شاطئ منطقة الكاظميّة، وتحت الجسر المعلّق، ومقابل القشلة.

أجل، سينصتون لصوته المعبّأ بالرّؤوس المهروسة والحقول المحروقة وحقول الأحماض التي ذوّب فيها ضحاياه، وإطلاقات الرّصاص التي أطاحت الحياة غير الآمنة. لن ينصتوا لغنائه بل لبأسه كمستبدّ يتحكّم بالحياة، حياتهم. تلك هلوسات المستبدّ ابن البلد، وذلك واحد من السّيناريوهات التي تجري في رأسه المتعرّق كلّ ليلة. كلّ ليلة، كلّ ليلة، تمضي به الأيّام، يرفع عينَيه بغتة، يرى وهجاً، الصّبح وشيك يضيء السّماء. ذلك النّسيم على وجهه هو الرّيح تثير أوراق الشّجر. في الخارج تعوي الكلاب ثانية، الطّير يصحو، وتعود الألوان على صفحة العالم، تعيد الأشياء شغل الفراغ وتستعيد المخلوقات علامات الحياة. يجيء الضّياء بغناء امرأة جميلة تستقبل يومها بموعد للحبّ. لكنّ قلبه لم يعد ملائماً لهذه

الأحاسيس، طلّقها ما إن وضع قدمه على بلاط القصر. أين عصاه؟ لِمَ هي منكسرة دائماً؟ من الغضب ربّما، أو من قلق سلطته التي يتوقّع زوالها كلّما بزغت عليه الشّمس، أو سمع هديل حمامة في بساتينه الغناء. وعمّا قليل سترتفع الشّمس في الفضاء لتنير طرق البلاد وزنازينها وبيوتها وبساتينها غير عابئة بأحد. سوف تضيء للغني والفقير، للجلّاد والضّحيّة، للملك والمشرّد. هو وسط كلّ هذا يحاول أن ينام، بعدما فاقت المدينة على مباهجها وصخبها. كُتب عليه أن يخشى المدينة ليلاً نهاراً، الدّسائس والمؤامرات لا يهمّها الوقت. يحاول أن ينام، كي يلملم أشتاته، يحاول، ويحاول إلّا أنّ دبابير الذهن، أرواح ضحاياه، تنتظره أمام العتبة مثل كلّ يوم.

تلك أزمان سالفة وقصص تحوّلت إلى هياكل عظميّة بعد مجيء الغرنغو، سيّد الجبال والنّفط والمعسكرات والأنهار والغرف المغلقة. لا جدوى يا جلجامش، إنّ الحياة التي تبغي لن تجد. لا بدّ للمرء حتّى لو كان شاعراً أن يتمتّع بفسحة من العقلانيّة والرّكون إلى الواقع. ما فائدة التّمرّد؟ ما فائدة الثّورة؟ ما فائدة الذّكريات سوى أنّها تعيد شيئاً من الطّمأنينة للأحياء؟ وتلك حكمة فكّر فيها طوال طريق العودة، وظلّت مشتعلة في رأسه حتّى بعد أن أعاداه إلى ذلك الصّالون المعتم.

بعيون حزينة وتعابير مكفهرّة يائسة، وضعه (بشير) على ذات السّرير تحيطه الآيات القرآنيّة والجدران المكتظّ بالأثاث، والكتب. تتدلّى فوقه تلك الثّريّا الكريستاليّة التي تصبح بعض الأيّام كابوساً لعينيه الشّابحتين إلى الأعلى، إذ كان يتوقّع سقوطها كلّ ثانية على رأسه. قال شاعر نسي اسمه: من الحمق أن تبلى سراويلنا على

مقاعد الدّراسة، ما دعاه لأن يومئ للكتب مودّعاً، ويتنفّس هواء الماضي وقد تكلّس في خشب الأرائك، وأشرطة الكهرباء، والمروحة المتوقّفة. تكلّس أيضاً في الحديقة وهي ما زالت ماثلة هناك خلف الباب. زرع فيها شجرتَي ليمون، وجلب لها شتلات الآس من القرية، وفي أقلّ من عشرين متراً مربّعاً حاول زرع الفجل والبصل الأخضر والبقدونس، وفي الوسط مهد تربتها وزرعها بالثّيل. كان يستمتع برشّها بالماء من صوندة البلاستيك، خاصّة في الصّيف الحارّ مثل تنوّر أمّه. ولأنّ المراحيض تقف في الزّاوية من الحديقة، يربطها بالمدخل ممرّ إسمنتيّ ضيّق، كان كلّ يوم يمتّع نظره في الورق الأخضر والحشرات الطّائرة فوق الثّيل، ويجزّ الأغصان النّاعمة بمقصّ كبير. دأب على الجلوس فيها ليلاً أحياناً، يفترش الأرض ليتأمّل في تلك السّنين التي مضت مثل برق بعيد.

حتّى قبل أن يسقط في بئر الشّلل الجسديّ، صار يؤمن بأنّ مجيء المرء إلى الوجود ثمّ مغادرته، مهما امتدّ به الزّمن، ما هو إلّا عبث، وملهاة، وصدفة عمياء حدثت على ظهر هذا الكوكب العجيب منذ مليارات السّنين.

وقرّر مع نفسه أن يستجمع إرادته ويعانق الموت.

***

صار يكره الطّعام بقرار داخليّ لن يتراجع عنه في الأيّام القادمة.

يزمّ شفتَيه كلّما جلبت له (براء) صحنه، وهي تنظر وتتعجّب، فتحاول فتح فكّيه لتطعمه البيض المسلوق أو فخذ الدّجاج. تضع المصّاصة بين أسنانه وتدعوه بتوسّل لشفط الحليب أو الشّاي أو

شوربة الدّجاج، وكان يرفض، ويغلق عينَيه بنفور. يهزّ رأسه يميناً وشمالاً وسط ذهول زوجته الذي تفاقم على مرّ السّاعات والأيّام ممّا أوصلها إلى قناعة أنّ الرّجل قد قرّر الموت، ولا فائدة من الرّجاء. يصرّ على غلق فمه، تفادياً لذلك الإذلال في تبديل الحفّاظة وغسل جسده وأعضائه الخاصّة. فكّر أن أفضل وسيلة لحفظ كبريائه هو الصّوم. الصّوم حتّى الموت، وهذا أقصى ما تصل إليه إرادته المتهالكة. وتلك فكرة قرأ عنها ذات سنة في كتاب بوذيّ عن معلّمين روحيين يقرّرون الموت صوماً، ويفعلون. لم يعد جسده يستحقّ المساعدة، عليه أن يجفّ، يضمر، يتهاوى في قبضة ملك الموت، أو الشّيطان المتربّص به. لا فرق. سيقوم برحلته الأخيرة. لقد أصبحت زيارة الدّكتور (واثق) وراء ظهره، ولم يأمل منها خيراً، وقد اقتنع في النّهاية أنّه يريد أن يخوض المغامرة. سيرحل إلى ذلك العالم المجهول: تخيّل أنّه سيجد هناك الإله تموزي، خالق الثّمر والشّجر والزّهور، والبطل جلجامش الموهوم في بحثه عن الخلود، وعشتار السّاحرة، مغنية المواليد الجدد وراعية الأمهات، وسيسمع أناشيدهم في ظلمة القبر.

لكنّ الأغرب هو ما حدث ليلة الأمس بعد أن نام البيت وهدأت المدينة، ولكنّه لم ينم كالعادة. أطفأت (براء) النّور وتركته في ظلمة الصّالون، عيناه تحدّقان في ذرّات الظلام دون أن تريا سوى ذكرياته. ثمّ فجأة أحسّ بالضّوء يسطع حوله، وإذا برجل ضخم الهيئة يلبس عمامة عتيقة وقفطاناً من نسيج هنديّ، يتقدّم نحو الأريكة المركونة تحت لوحة جلجامش ويجلس وهو يبتسم. عرّفه بنفسه بصوت رخيم يحمل رائحة الأزمنة المنسيّة: أنا أبو عثمان عمرو الجاحظ. ثمّ صمت وبدأ يحدّق إلى امرأة نحيفة

تلبس قبعة مزركشة وتنورة طويلة تعود إلى أزياء قرن ماض، تتقدّم نحو الأريكة أيضاً، وسمعها تعرّف عن نفسها هي الأخرى وتقول: أنا أجاثا كريستي، بغداديّة بعض الشّيء، إذ عشت في بغداد ردحاً من الزّمن مع زوجي منقّب الآثار.

ومن المكتبة المشعشعة بالأنوار، هبط بعد ذلك الرّوسي العجيب، بنظارته المميّزة ولحيته الخفيفة، وعينيه الهادئتين، عيني الطّبيب المترف وأخذ مكانه على ذات الأريكة. تشيخوف، قال وجلس صامتاً هو الآخر: من أشهر رواياتي العنبر رقم 6 والسّيدة ذات الكلب، وحكاية مملّة. ومن ثمّ تتالت المفاجآت، فكان هناك موسى كريدي، وسعدي يوسف، وغائب طعمة فرمان، وأرنست همنغواي، وما زالت الدّماء تنزف من رأسه المصاب بطلقة بندقيّة الصّيد التي استخدمها في الانتحار. نجيب محفوظ وماركيز ومحمود درويش والفرنسيّ رامبو واليوناني كافافيس وأبو العلاء المعرّي، وجمع آخر ظلّ يخطو نازلاً من المكتبة ليجلس على أرائك الصّالون، وكان آخرهم المتنبئ الفرنسيّ نوستراداموس، صاحب النّبوءات الشّهيرة، وقد حضر برداء كهنوتي يعود إلى القرون الوسطى، وبدا شاذّاً وسط الشّلة المبجّلة.

قالوا له بلسان واحد عجيب: سنحجز لك مكاناً بيننا فلا تتأخّر. نحن بانتظارك.

كوابيس، وأحلام ورؤى مشوّشة، وشريط سينمائيّ عن حياته السّابقة.

وفي ليلة ظلماء أخرى، وفي غيهب لا يحدسه بالضّبط، جاء ذلك المشهد الغريب مرّة ثانية، وربّما ثالثة أو رابعة، مشهد القصيدة

التي كتبها عن المستبدّ وأزعجت الشّيطان ذات مساء. وجد نفسه ينزل في درج ترابيّ نحو حفرة تقع في غابة تتبعثر النّخيل بين جنباتها. كانت غابة مكتظّة بالحلفاء، والشّوك، وأشجار الغرب، وتفوح من تربتها رائحة السّبخ والملح. حقل كبير مهجور منذ أزمان الحرب الأخيرة. وكان ينزل ماسكاً بيديه حزمة من الشّموع وقدّاحة، فقبل يوم فقط، أخبره ابن عمّه إنّ هناك غرفة في الأسفل، بل قل قبواً سينام فيه بعيداً عن عيون الأعداء. الأعداء سخّروا للبحث عنه طائرات مسيّرة، ورعاة، وجنوداً محليين ودوليين، بل نصبوا، كما قالت الإشاعات، كاميرات حراريّة خفيّة حتّى في الأماكن النّائية، كلّ ذلك للقبض عليه، على آخر مستبدّ في عصره، فوجوده طليقاً مثّل لهم آخر صفحة من كتاب الاحتلال غير المنجز. وكانت ذقنه مستطيلة ووجهه معفّراً بالتّراب والقشّ بعد أن أصبح طريداً منهم. هؤلاء الكلاب كما أطلق عليهم، يلاحقونه بطرقهم السّريّة في كلّ مكان من أمكنة الوطن. وجد نفسه في القبو يتربّع على حشية من الصّوف، وحوله مستلزمات بسيطة للعيش. جرّة ماء كبيرة الحجم، وبريموس قديم يعمل على النّفط، وقرآن صغير، وسجّادة للصّلاة، ومسدّس كالح للدّفاع عن النّفس.

يشعل الشّمعة فيتحوّل المكان إلى غار، إلى ثقب في باطن الأرض، وتمضي النّهارات ثقيلة عليه، نهارات مكتظّة بالتّرقّب، وهو في الحفرة وسط الحقل الكثّ، يتسمّع ليل نهار، يتسمّع دبيب العناكب، ووصوصة الجرذ، وصدى الأقدام فوق الأرض وهي تبعث القشعريرة في جسده، فالوشاة أكثر من شعر رأسه كما خبر ذلك طوال عقود من سلطته، واعتاد ألّا يثق حتّى بملابسه. فهل كان ينتظرهم؟ كان يعرف

أنّ المكان ناءٍ ومهجور لذلك لم يكن يتخيّل يوماً أن يقع في أيديهم. في أيدي الغزاة، أحفاد اليانكي والغرينغو وقتلة الهنود الحمر. الغزاة ببدلاتهم المرقطة، وخوذاتهم الإلكترونيّة، وبنادقهم سريعة الرّمي، ووجوههم الشّقر والسّود والملوّنة لأنّهم تجمّعوا من كلّ قوميّات الأرض، جاءوا للقبض عليه. سيطوون صفحته كما تُطوى سجّادة عتيقة لم تعد تصلح حتّى للجلوس.

وفجأة في لجّة غروب موحش، بدأت أذناه تلتقطان حركات مريبة وأصواتاً كأنّها صادرة من السّماء البعيدة، أو من قبر غائر في تراب الأرض. لقد جاؤوا. يسمع لغطهم. أزاحوا الغطاء، الباب السّريّ الذي كان على هيئة شرشف نباتيّ لا يمكن الشّك فيه إلّا لمن خانه ودلّهم عليه. انكشفت اللعبة إذن. وسمع أحذيتهم السّميكة تنحدر بحذر نحوه. ثمّ تقدّمت ظلالهم، وأنفاسهم، وفوّهات بنادقهم المتأهّبة. جاؤوا واحداً بعد آخر ليجدوه متربّعاً على حشيته يقرأ القرآن على ضوء شمعتين، وكان يتوقّع صلية الرّشاش لتأخذه بعيداً عن الأرض. لبث هادئاً دون أن يجرؤ على تناول المسدس.

قال لنفسه: لقد انتهت رحلتك الدّمويّة في هذا البلد، وستبقى في دهاليز التّاريخ فقط.

وهكذا وقفت ثلّة منهم وهم يوجّهون بنادقهم إلى جسده المريض المنهك، ورأسه المحشوّ بالأفكار والتّوقّعات.

- انهض.

قال له واحد منهم بإنكليزيّة واضحة، فنهض واقفاً ينتظر مصيره.

- هل أنت الرّئيس؟

وحاول أن يتذاكى عليهم فأنكر، وقال لهم إنّه راعي غنم فقط.

قال آخر بعربيّة مكسّرة:

- ألست من كتب رواية زبيبة والملك؟

- أنكر بقوّة وردّ عليهم: كلّا، أنا شاعر شعبيّ ولا أعرف كتابة الرّواية.

وهكذا بين ضحكهم، وقهقهاتهم، وغنائهم بأغنية لشاكيرا، اقتادوه خارج الحفرة. وأثناء نقله إلى السّجن، شاهد بأمّ عينَيه صوره وهي تترى على شاشات التّلفاز في العالم كلّه، ثمّ لتتعالى الأصوات في نشيج فظ: غرينغو، غرينغو، غرينغو، كما لو كان ذلك صوت كورس لمسرحيّة تراجيديّة من مسرحيّات سوفوكليس اليونانيّ. وأفاق من حلمه الغريب، وكابوسه الفظّ، كابوس رجل مهزوم لم يعد يخوض حروباً، أو يلبس بدلاته الأنيقة ذات النّياشين، ليجد نفسه يحدّق بذبابة طائرة قرب كيس المغذّي المربوط إلى وريده. وفكّر كيف تدخل ذبابة إلى حلمه بهذه السّهولة، وكاد أن يضحك عالياً لكنّ فمه لم يطاوعه. لم يكن يفكّر بمغزى ذلك الحلم، وتوصّل بعد لأيّ إلى الدّلالات الواضحة لذلك الدّفق من الذّاكرة. إنّه ديكتاتورهم الميت، المعدوم. ديكتاتورهم الجميل، المستبدّ العادل كما وصفه المتملقون والمدّاحون والحاشية. جاء لينتقم منه على ذلك المقال الهجّاء الذي كتبه ذات ليلة جنونيّة في غرفة فندق جبل قنديل قبل ما لا يعرف العدد من السّنين. شيء واحد لا يستطيع المستبدّ إخفاءه عن العيون: أصابعه الشّبيهة بأصابع المومياءات، أصابع عجفاء طويلة، بيضاء لها نكهة الموت، ستتساقط سلاميّة، سلاميّة، ما إن يهمّ بتحريكها. يودّ أن يغنّي من بين أثاثه

الفخم وعزلته وتنصّته المستفزّ بمرور السّاعات وسط ذلك الليل البهيم. لا يمكن. الغناء في حاجة إلى جمال داخليّ، وهو قد ودّع مثل هذه التّفاهات منذ زمن. لو عرف كيف يغنّي ربّما كانت حياته مختلفة. لربّما ما أحسّ بحاجته كي يصير حاكماً مطلقاً، لن يجد روحه هنا، على هذا العرش، محدّقة في الظّلال، وكانت حاضرة في حفلات عديدة لتكريمه بتواريخ الأعياد السّنويّة المجيدة، وبمناسبات ثورات ماضية ومعارك تاريخيّة حدثت قبل أن يولد. سيكون كلّ شيء على ما يرام لو امتلك موهبة الغناء. لن يسمعه أحد بالتّأكيد. لن يسمعوا لا أغنيته ولا صوته، فمن يجرؤ على سماع حاكم متجبّر يطلق لصوته العنان؟ سينصتون للمستبدّ فقط.

لقد مضى الماضي وفات الأوان، يقول الشّاعر. لكنّه، وقبل أن يسترسل في وصفه للحاكم المعدوم، فتح عينَيه ذات صباح في لحظة ذهول، ووجد نفسه في المستشفى المطلّ على الفرات. وتلك الذّبابة تحلق ثانية فوق رأسه. حاول أن يستعيد مشهد ذلك الكابوس فلم ينجح. حتّى إنّه لم يعد يتذكّر هل حدث الحلم قبل ليلة أم ليلتين أم أسبوع. أين هو إذن: ومن أخرجه من تلك المتاهة وجلبه إلى جحيم هذه الحياة؟ يا شاعراً عقيماً، يا شاعراً رجيماً، يا شاعر الموت والحياة؟

***

أخبره (بشير) إنّه في العناية المشدّدة منذ ثلاثة أيّام: وجدناك متيبّساً بالكاد تتنفّس، فاتصلنا بالمستشفى، وها أنت في غرفة الطّوارئ. صحيح، يستطيع رؤية وجه الطّبيب مرّة أخرى، وقد عاد ليتحسّسه بيدَين باردتَين، وبين فترة وأخرى يسير في الغرفة أو يحدّق إلى الفرات وتلك الجزيرة الصّغيرة من الشّباك المضبّب

بالغبار، بمريلته البيضاء وعينَيه الصّفراوَين ووجهه المدوّر. لم يعد (رسول) يعرف عمّاذا يبحث الطّبيب في أوردته، وشرايينه، وعينيه، وعضلاته. يغادره بوجه صارم ويتركه في سريره. يتهامس دقائق مع زوجته وابنه (بشير) ثمّ ينسل من الباب. و(براء) تقف حائرة عيناها تتراقصان من الخوف والقلق. غادرت (براء) روحه منذ ولادة (بشير). كرّست حياتها له، إن خرج تنتظره في الحديقة حتّى يعود، وإن كان نائماً في الصّباح تنتظر نهوضه لتعدّ له الفطور. تقبّله حين يخرج وحين يعود، وأصبح محور حياتها اليوميّة، حتّى صار (رسول) يشعر بالغيرة منه بعض اللحظات، ووصف ذلك الاهتمام بالمرضيّ، هو أيضاً بحاجة إلى حدب أنثى عليه، كأيّ ذكر. هنيهات ورجع (بشير) يحمل بين يديه أوراقاً راح يعرضها أمام عينَيه وكان يبكي. بدأ يقرأ ما كتبه (بشير) دون مشاعر ظاهرة: تنظر إليّ وتبتسم، ثمّ تشيح وجهك مسرعاً وقد ترجمت هذه اللفتة هكذا: كنت رفيقاً مزعجاً وخدوماً بعض الوقت لك، وأعلم تلك المشاعر الصّامتة التي تعتريك. كانت لحظة بألف عام وأنت تقول في آخر مرة: هذه هي الغربة يا بني، وتلك هي الوحشة: أن تذهب وحدك إلى المجهول. لن يغامر معك أحد. سيترك الجميع يدك وتسدل عليك قطعة القماش دون حتّى أن يعطيك زاد سفرك إلى المجهول. في المكان الذي سترحل إليه لن تجد قصائد شعريّة ولا كتباً. لا حلّاجين ولا روميين راقصين. لن تجد قططاً سود ولا أماليد من شجر الغار تحتفي بك. والمستبدّ المرعب تمّ شنقه قبل سنوات طويلة. وشاهد العالم كلّه ذلك الحبل الغليظ وهو يلتفّ على رقبته. الموت سيطال كلّ شيء بعدك، حتّى حديقة المنزل القديم التي كنت تزرعها وتحرثها بملعقة الطّعام، وتقلّم حشائشها بمقصّ

صغير. أنا على يقين بأنّك كنت تداعبها كطفلة صغيرة، أو كحبيبة قديمة عالقة في الرّأس. هل تذكر كيف ماتت القطط الصّغيرة التي شربت حليب الكلاب؟ كم تألّمت أنت لموتها؟ وكدت تضربني على تلك الهفوة القاتلة؟ حكايات كثيرة أستذكر بها حزنك، وفرحك، وغضبك. لقد عدنا سويّة ذات يوم إلى العاصمة، ونحن نأكل الكباب معاً، وكنت تقول لي وأنت تنظر صوب تمثال أبي الطّيب المتنبي: يا بني إنّه شاعر زمانه وشاعر كلّ زمان. إنّ في كلّ بيت شعر حكمة. إنّه دليلك في هذه الدّنيا. يا لك من عاشقٍ ذكيّ، شاهدتك قبل شهر في ردهة المستشفى وكنت تصرخ أين زوجتي، لِمَ لا أراها؟ هل أقعدها مرضها بداء النّقرس، وسوفان المفاصل، والرّبو اللعين عنّي؟ وبينما كنت تصيح وتتضجّر تدخل بعكّازها عليك، ماسحةً رأسك بدفء المشاعر وصدق الحبّ. لقد طبعت في داخلي حبّاً للأدب يسمو بي وسط هذه الفوضى من حياتنا. كانت اللغة العربيّة تعيش معنا كابنة لك، وأخت لي، لأنّني لم أحصل على شرف الأخوّة. فأنا وحيد مثلك في عالمك الخاص المليء بالشّعر. أنت أبي الذي تتضح على سماته الغربة والوحدة التي أورثها الاحتلال، لأنّ الأمريكان قد قتلوا كلّ ما يُحبّ في حياتنا، عدا أمّي وأنا. لقد رفعتنا عن ابتذال هذه الأيّام، وضممتنا إلى جناحك، وشددت بذلك الجناح عضدنا المكسور، لكنّه لم يكسرنا يوماً. الكسرة في اللغة كنت تكرهها لأنّها أشبه بهزيمة. حين يفقد الفرد دوره في الحياة الأفضل له أن يرحل. هذا قانون مكتوب، على البشر تقبّله. لماذا؟ لا أعرف. سأبقى مرتحلاً، في الجهات الأربع، كنبيّ تائه في صحرائه، كمرثيّة في كتاب مجهول. سأبقى منسجماً مع الوهم، أرتّب أشيائي، لأبعثرها ثانية، وأدعو مريم إلى نخلتي، لتهزّها كي يتساقط الرّتب. سأبقى

فارغاً، ككأس سكّير، كمخلاة شحاذ، لا أبواب لي كي أدقّها، لا سماء لي كي أناجيها، لا معركة لأحلم بالانتصار، لا وطن لأرحل عنه. وهكذا يا معلّم عليك أن تتركني بلا معرفة، وتطوي كتابك، لتنام قرير العين. هي الحياة هكذا.

وكانت الورقة نشيداً سومريّاً يتردّد في صمت الغرفة بعد أن انتهى به الأمر كي يتحوّل إلى عينَين فقط. تميلان إلى اليسار وترصدان مشهد الفرات من الشّبّاك، الفرات النّهر هو الصّورة الأخيرة التي يودعها في مباهجه. هو رفيقه الذي لم يخنْ، لمدّة ثماني وستّين سنة، هو أجمل قصيدة قرأها في حياته. لقد عاش معه سنوات وسنوات. حين غزاهم الأمريكان قيل له إنّ جثث جنودهم يحملها الماء منتفخة متفسّخة نحو الفلوجة. هناك ترحل مع غيمة كثيفة من الذّباب إلى الحلّة. إلى السّماوة. إلى القرنة. إلى الخليج العربيّ. إلى بحر العرب. تعبر إلى المحيط الأطلسيّ عبر مضيق جبل طارق بن زياد لترحل مع الموج نحو شواطئ واشنطن. أيّة سخريّة يعيشها هذا العالم. الموت قبر في بريّة، هذا ما رآه ذات يوم، أو ليلة عجيبة، في بيته. ذلك القبر، وتلك الشّجيرات، شجيرات اليوكالبتوس، أبوه عادة ما يطلب منه تشذيبها بمنجل فيتسلّق كأنّه قرد ويزيل ما تنافر من أغصان. ولاحقاً تستخدمها أمّه، حين تجفّ، وقوداً للتّنّور. هناك مقبرة قريتهم، وكان قبره يجاور قبر أخيه (فؤاد)، يجاور أيضاً مئات ممّن عرفهم في الطّفولة، أوّلهم أبوه وأمّه وعمّه (فاضل)، وأخواله ووجوه القوم ممّن كان يهابهم في طفولته ويفاعته.

القبور هنا تنتشر وسط صحراء جرداء وصورته الرّسميّة على القبر، برباط العنق والطّقم الزّيتونيّ وقد أخذها (بشير) له قبل أن

يقع في براثن الشّلل على شاشة هاتف (نوكيا). عمّ الهدوء الغريب بعد أن ترك الطّبيب الصّالة، و(براء) ستغيب ساعات في البيت وتعود قبل المساء. (بشير) رمقه يضع سيجارة بين أصابعه ويغادر نحو الممرّ، ومن هناك سيجلس في الحديقة ليدخّن.

***

الهدوء مخيف يجعله يغوص في داخله، وبلحظة تجلّ غريبة تخيّل أنّ هذا البلد يعاني من صراع رهيب منذ أن وعى ما يحدث حوله. يشبه صراع شخص منشطر بين عالمَين، عالم الذّكورة وعالم الأنوثة. ومن حسنات هذا الانشطار أنّه يدفع المرء للانبعاث والنّشاط كلّما وصل القاع. البلد مشلول مثله، يمكن، وهنا يقول يمكن، هذا الانشطار القوميّ والمذهبيّ هو ما يقود إلى الشّلل. وهناك رعب عميق يساور الجميع من تمزّق البلد. لكن كلّما قاربت الخارطة من الانهيار ينبعث ذلك الرّعب ويعيد اللحمة من جديد. هكذا عاش هذا الوطن منذ أن خرج من عباءة بني عثمان في بداية القرن العشرين. بلد لا يربح فيه سوى الموت، يختطف الذين عرفهم، وآمن بعمق أنّه قانون يسري على الجميع. لا الكائنات الحيّة فقط بل حتّى على الصّخور والعظام والأشجار والمياه. ويستطيع القول على الأرض والشّمس والمجرّة، وربّما على الكون كلّه، وهو سرّ لم يستطع حتّى الشّعر الوصول إليه.

حتّى أصدقاؤه القدامى غادروا هذه الحياة وتركوه يواجه الموت وحده مثلما فعل (هاتف) و(عمر العروسي) و(رعد عبد القادر). هذه الحقيقة المؤلمة جعلته يكتب ذات يوم بعيد، قصيدة من

وحي أغنية لناظم الغزالي. كتبها في حالة سكر شديد، وشذّبها في اليوم التّالي. تقول القصيدة:

على جسر المسيّب سيّبوني/ فبت أصيح ما أحلى جنوني/ وما أحلى وقوفي دون صحب/ إذا ما الصّحب يوماً غادروني/ طريد ليس لي أهل ودار/ فقد رحلوا إلى البيداء دوني/ وقد تركوا غزالات لترعى/ ظنوناً كنت أحسبها ظنوني/ لماذا كلّما ناديت عودوا/ أكحّل في محاسنكم عيوني/ فدونكمُ السّماء بغير شمس/ ولا قمر فكيف تودعوني/ مريضاً بالمحبّة كان قلبي/ وإنّ دواءه أن تحضنوني/ على جسر المسيب رحت أبكي/ وحيداً والهواجس تعتريني/ أداوي ما أداوي من جروح/ تنزّى جمرها بين الجفون/ أضيق بكل ما ألقاه ذرعاً/ وأصرخ بالفواجع ويك هوني/ على جسر المسيب رتلوني/ نشيداً في المدائن واحفظوني/ وخلوا البوم يرحل عن قراكم/ ليكسو الأرض بوح الزّيزفون/ ألا هبوا جميعاً واسمعوني/ وإلا كيفما أشدو ذروني.

فلماذا نأتي إلى هذه الحياة إذن إن كان الموت نهاية كلّ شيء؟ حيّاً وجامداً؟ لا تصدّقوا الأديان، يفكّر في ذهنه المتقد، الغائم، المصطرع، حين تقول لكم إنّنا نأتي لكي يختبرنا الرّب، يرسل هذا إلى النّار ويرسل الصّالح إلى الجنّة، ماذا عن الأشجار التي تموت؟ ماذا عن الذّباب والبعوض وصراصير المجاري وعقبان الجبال وهداهد النّخيل وهي ترقّص أعرافها وتنظر إلى البشر بحكمة؟ وماذا عن المواليد الجدد وهم يأتون إلى الدّنيا بقلوب ضعيفة لا تجاري ما تتطلّبه الحياة من قوّة ونبض وجهد؟ لا شيء من ذلك يمنع من الموت. عمره ثمان وستون سنة. كتفاه عريضان. وجهه مدوّر. قامته متوسّطة الطّول وليس قصيراً لكنّه يميل إلى القصر. يعيش في عالم الخيال، وتقول أمّه

هو مربوع، أقصر من أبيه وأخيه (فؤاد)، لكنّه أجمل رجال العائلة. الموت يشبه كأساً من البيرة على المرء أن يمتصّه بمتعة، فلكي تصل إلى مرحلة السّكر الرّوحيّ عليك أن تشرب البيرة.

يعرف أنّ حياته قد انتهت، وها هو وسط هذا المستشفى يقبع بين مخالبه، وأنيابه، وبراثنه. لا عودة إلى الحياة مرة أخرى. وهنا يبرز له وجه كأنّه انبثق من ذاكرته البعيدة. وجه رجل من بيئة أخرى لا ينتمي إلى ما رآه من وجوه خلال حياته. رجل مسنّ، حليق الشّعر، يحتفظ بشارب رفيع ولحية تنبت في حنكه. يتأمّله وكأنّه صديق عزيز. يغوص في ذاكرته ويستطيع أن يعود سنوات إلى الخلف حين كان مدمناً على برنامج (الفيسبوك)، يقرأ ما يكتبه أصدقاؤه في الليل، وهم يعيشون في بقاع بعيدة وقارّات لم يزرها يوماً. صديقه (ناصر مؤنس) في هولاندا هو الذي نشر ذلك الوجه، مع قصيدة من كثر ما قرأها لاحقاً حفظها، وهي تطابق حالته. عنوانها (إلى روحي) وهي للشّاعر بيير دي رونسارد من فرنسا. يقول فيها: يا روحي العزيزة، المسكينة، يا حلوة/ الرّوح الأنيقة للفقير (بيير دي رونسارد)/ أحلى وأنعم/ أعزُّ مضيفةٍ في جسدي/ من اللَّحمِ إلى العظام./ ستذهبين هناك/ باسلةً، رشيقةً، وحيدة./ لقد بدأ الزّحفُ،/ كلُّ شيءٍ ضعيفٌ وشاحبٌ وبائِس/ مِن فراشي/ وصولاً إلى مملكة الموتى الباردة./ بلا ذنبٍ، بريئةٌ وبلا حقدٍ/ تحتقرين النّعَمَ والكنوزَ/ وهذا ما يحسدُكِ عليه أقرانُكِ الصّغار./ أشعر أنَّكِ تتسرَّبين بعيدًا عنّي، عن عشَّكِ الجسديّ/ وَداعاً، سواءٌ أكنتِ على صوابٍ أم على باطل، لا تُقلقي راحتي، سأتبع سعادتي/ أنا ذاهب لأنام.

إنّه فرح من جانب وحزين من جانب آخر. فرح لأنّه سيغادر هذه الجثّة المحنّطة وينام، كما يخبره الشّاعر الفرنسي بيير دي رونسارد، وسينطلق إلى فضاء الغموض والسّرّ الأعظم، وحزين لأنّه لم ينجز طبع دواوينه الشّعريّة. أوصى ابنه (بشير) على طبعها في شارع المتنبي بعد موته. عنده عشرة دواوين أو هكذا رتّبها على دفاتر الكتابة وهي مدوّنة بالقلم الجافّ، وبعضها مخزون على ذاكرة الحاسوب في قسم خاصّ به فرزه له موقع الحوار المتمدّن. وقد نشر فيه قصائده طوال عشر سنوات تقريباً. يعرف أنّ من يطّلع على تلك القصائد سيطّلع على تاريخ هذا البلد المرتبك، التّاريخ الدّمويّ لأكثر شعوب المنطقة بؤساً. لماذا؟ ليقرؤوا شعره وسيعرفون. لكن هذا سيتمّ بعد غيابه. في تلك الغرفة الكئيبة المظلمة بدأ هوسه الحقيقيّ في كتابة الشّعر. غرفة الكرنتينة كما سمّاها أصدقاؤه في الجامعة. استأجرها في السّنة الأولى من قبوله في كليّة الآداب. استأجرها أبوه له من صديقه، (أبو خالد إبراهيم)، ولذلك قصّة طويلة. غرفة الكرنتينة، عتمة حوش الدّار، درج متآكل يصعد به نحو غرفته ويحسّ العجوز تراقبه من باب ما أو شبّاك ما. رائحة القدم لا تُنسى، لكنّه اعتاد أن ينام فيها فقط. باقي الأوقات بين دروس الكليّة في باب المعظم ومقاهي شارع الرّشيد وبارات شواطئ دجلة، وجولات مع (براء) في بغداد القديمة. أبوه هو الذي حصل له على تلك الغرفة. اشترى أبوه حفّارة يؤجّرها لشقّ السّواقي وتعديل الطّرق وتمهيد السّاحات، وما إلى ذلك من أشغال، وحين لا يجد من يستأجره يضعها في كراج للحفّارات والسّاحبات والشّفلات والبلدوزرات في ساحة بكراج النّهضة، لدى

واحد من مكاتب السّماسرة، سماسرة التّأجير. وحين ينتهي الدّوام يذهب إلى فندق (محمود) وينام هناك مقابل المتحف العراقيّ في علاوي الحلّة. بصدفة ما، وكان أبوه يصلّي الجمعة ذات يوم في جامع (أبي حنيفة النّعمان)، تعرّف على شيخ جليل يصلّي معه. وهذا الشّيخ أحبّ أباه، وبعد سؤال وسؤال وأحاديث في المقهى المقابلة لضريح أبي حنيفة، اقترح أن يسكن معه في البيت. بيته فارغ، هو فقط والحاجة أم خالد، ولكي يبعد أباه عن الإحراج اقترح عليه أن يستأجر الغرفة، هي ذاتها التي أورثها له أبوه بعد أن شاخ وذهب سمعه وجلس في البيت. سمع أبيه هو ما تسبّب في مقتله الأليم. قتله الغرينغو.

فذات فجر بارد، توجّه أبوه إلى جامع الزّبير، وهو الجامع الوحيد في القرية لأداء صلاة الفجر، والبيت لا يبعد سوى خمسين متراً تقريباً عن الجامع المبنيّ على كتف السّدّة حيث يمرّ الطّريق نحو شواطئ الفرات. في ذلك الفجر الخريفيّ صادف أن تمدّدت القاعدة وصارت تنفّذ عمليّات ضدّ الأمريكان، خاصّة في القرى والأرياف. وقد كمنت مفرزة من الغرينغو قرب الجامع، وما إن رأوا أباه قادماً حتّى فاجأوه قبل أن يصل بأمر التّوقّف ورفع يده. أبوه ومنذ أن دخل الأمريكان البلد أصبح سمعه ثقيلاً، واضطر لوضع سمّاعة تقوية، ولكنّه في ذلك الفجر نسي الجهاز فلم يسمع تحذير الجندي. لذلك ظنّوه واحداً من الانتحاريين، خاصّة وإنّه كان ملثّماً بغترته البيضاء درءاً للبرد. فصلوه بخمس رصاصات قتلته في الحال، وكان شاهداً على موته. سكن أبوه سنتين في تلك الغرفة قبل أن يورثها إيّاه خاصة بعد موت صديقه الشّيخ أبو خالد. وكان

يحدّثه كثيراً عن المنطقة، منطقة الكرنتينة والأعظمية والصّرافية والعطيفية وتلك النّواحي: مضى الزّمان، زمانك يا شاعر، وستدخل إلى بهو ذلك اللغز الذي لم يستطع بشر معرفته، فمن الشّبّاك كان يراه، اللغز، السّر الأعظم، يتقدم نحوه بحذر.

***

الوقت في نيسان، أقسى الشّهور كما يقول إليوت. نيسان العواصف والبروق والفيضانات. الشّمس الملوّثة بالغيوم الرّاكضة يراها من خلف الزّجاج. (براء) لم تعد لحدّ الآن. غاب الطّبيب في الممرّات، و(بشير) لم ينته من سيجارته العملاقة. خلف النّافذة تعتم الآفاق، وتتحوّل سماء النّخيل البعيد إلى اللون الرّمادي. الجزيرة الصّغيرة تتضاحك تحت نور عميق، نور المياه والسّماء والطّيور والتماعات الأفق المجهولة. البيوت القريبة بدت مثل رسمة على جدار أصفر. الموت لم يكن هاجساً في طفولته. رآه مراراً لكنّه لم يفكّر في معناه. مرّ بتجارب موت كثيرة. ويسمع مرثيّة خياليّة لابنه (بشير) يقول فيها مخاطباً: قد كانت نظرة الانتصار لي وله في تلك الرّدهة العاجّة بالموت والفراق. لم أستطع تحمّل أبي وهو ملقىً على سديّة لمدّة عامٍ كامل. لم أستطع أن أرى الهزيمة على محيّاه. آه كم بكيت وحدي على جنازتك وهي ملقاة بداخل جامع القرية. كم ندبتك وأنت جسد بلا روح، وقد مددت يدي حينها لأكشف عن وجهك وأراك للمرّة الأخيرة، لكنّني ضحّيت بتلك الأمنية خشية أن أراك مهزوماً بالموت. كم وددت لو أحتسي نهراً من الخمرة لأبين مشاعري الحقيقة أمامك. لكن تعلّمت منك أن أخفي مشاعري كي لا أُهزم في حرب العواطف. سأرثيك للمرّة الأولى

والأخيرة، سأدعو الله كلّ سنة في ذكرى موتك أن ألحق بك لا غير. لقد أصبحت في الذّاكرة فقط، سكنتها، تحوّلت إلى خليّة حمراء في منظومتي الحياتيّة. وسأحتفظ بك كدمعه أولى على فراق حبيبة، كليلة زفاف جميلة، كقبلة من شفاه امرأة عشقتها. سأحتفظ بك لأجل أن أرسمك كلّ ليلة على فراشي وأنا مُحاط بخيبات الحياة وقساوتها. أنت أسطورتي وحضارتي. أنت وطني الذي علّمتني أن أكون معه حتّى لو أذنب أو قتل. امسك عودك الشّعري واطربنا. فشعرك رنّان على مرّ الزّمن، كما كنت تفعل في لياليك الملاح، ورقصاتك الصّوفيّة على أشعار جلال الدّين الرّوميّ، وكأنّك مغنٍّ قادم من ليالي ألف ليلة وليلة. غنِّ لنا ما تبقّى من حياتنا، نحن أبناؤك الذين رافقوك عشرات السّنين، ترشدنا إلى سماء هذا الكون الغريب. غداً سنرسلك إلى باطن الأرض، إلى أمّك عشتار التي تبحث عن حبيبها تموز، إلى جلجامش الذي سار في الأرض غرباً، بحثاً عن الخلود فلم يجده. ستحلّق من سطح برج بابل، ليست بعيدة عن أرض القرية التي صنعتك، لكي ترسل ألحانك على هيئة قصائد إلى هذا الوجود. غنِّ لنا أغنية بلاد الرّافدين الأخيرة، أغنية الفقد في كلّ واد، وسهب، وجبل. في كلّ حارة ومدينة وشارع. أغنية من تشرّدوا، وجاعوا، وحلموا، وعشقوا دون أمل، وبحثوا عن عشبة الخلود، وغامروا هرباً من البؤس والنّكران، ليجدوا الموت أمامهم، في بلاد بين سيفَين. في بلاد توزّع الموت يميناً وشمالاً، وكأنّها منجل أعمى يحتطّب في الظّلام. أشعارك كانت، ذات سنة، وكلّ يوم وشهر، دواء للعشّاق والمحبّين. غنِّ يا أبي ولا تصمت، فالموت خلود في نهاية الأمر لمن هم من أمثالك، ومن أمثالنا نحن الباحثين عن الحقيقة، واليوتوبيا الأرضيّة في سهوب شاسعة ومدن من الأنذال والقتلة.

سنسمعك اليوم، وغداً بعد دفنك، وبعد غد حين تصبح خالداً في جزيرة الأرواح الهائمة في مجرّتنا الباهرة كأنّها عناقيد من النّغمات على بيتك الشّعريّ. أجل سيظلّ عود قصائدك رنّاناً إلى الأبد. ستكون الرّمال باردة على مدار السّنة لغريب يغنّي للبلاد: بلاد أسرحدون، ونرام سين، وآشور بانيبال، وأبي نؤاس، والمتنبي، وحسين مردان، وسيتا هاكوبيان، وياس خضر، ومنير بشير، وأنستاس الكرملي، وزهور حسين، والملا عبود الكرخي. اطمئنْ، سننشد قصائدك كلّما هاجت بنا الأشواق واستبدّ بنا الغرام، فهي عزاء لأرواحنا على مرّ الزّمن. غرباء أينما نحلّ، غرباء هذا العالم المتوّج بالعبث.

رأى (بشير) يغادر الغرفة مع أوراقه باكياً، وكان (رسول) يبكي أيضاً لما سمع، وتسيل الدّموع من عينيه لتبلّل الفراش وتنسرب من المستشفى وتصل شواطئ الفرات. تتحوّل إلى مرثيّة شعريّة للحياة. ثمّ ألفى عينَيه تحدّقان في رف الزّرازير الهلاميّ، وهو يلتمّ على بعضه ويتحوّل إلى كتلة سوداء مثل أزمانهم الملتبّسة هذه، أو يتناثر في صفحة السّماء كأنّه غيمة شتويّة مرعدة. أسود على أزرق مثل حظّه الذي نثروه في دخان الحروب، وفيما هو يتسمّع لإيقاع الحياة في الدّاخل والخارج رأى نهايته. لا على هيئة زرازير تسبح في السّماء، إنّما على هيئة ضجيج عالٍ. أمّه كتب عنها بعد موتها مرثيّة من الشّعر العموديّ، أرفقها بتداعيات طويلة عن شخصها وحياتها بعد أن سأمت من الهواء الأرضيّ، وحنّت إلى مملكة الظّلام. عاشت ثمانين سنة. تلك المرأة القصيرة، المتعبة، حزينة النّظرات، ماتت في عمر كاد أن يبلغ الثّمانين، لكنّها لم تكن آسفة على حياتها، مثل معظم الأمّهات: الموت خلاص يا بني، الموت جنّة، الموت لقاء مع الأحبّة، وما أكثرهم. تقول دائماً. ودفنت في مقبرة القرية الصّحراويّة التي تبعد

عشرة كيلومترات عن بيتها. حدث ذلك بعد معاناة مع مرض الزّهايمر. الزّهايمر ملاكها المنقذ الذي طار بها نحو عالم الطّفولة السّعيدة، والخيال المجنّح في رحاب الجنّة الموعودة. دأب على أن يعيش مع أشباحه ويحاورهم ويضحك ويبكي معهم ويتشاجر معهم فيرتفع صوته في هدأة الغرفة ثمّ يتغلغل في ثنايا المستشفى من ممرّات، ومكاتب، وصالات. كانت، أمّه أميّة لا تفكّ الحرف، يراها أمامه في الضّوء المرئيّ من الشّبابيك، وفي صفحة السّقف حيث تقف عيناه وسط البياض. كان يراها تؤدّي طقوسها الدّينيّة بين صلاة، وصيام، بقناعات ليس لها علاقة بالعقل، والمنطق، كما ملايين من الأمّهات. لقد تربّت على سقاية البقرة، وحلبها، وكنس البيت وخبز التّنّور، ودفن أقربائها. لذلك كانت تحدّق في ساعات الغسق نحو الشّمال، حيث مقبرة القرية التي صمدت مائة سنة، فجيلها يرقد هناك الرّقدة الأبديّة التي لا عودة منها حتّى يعزف البوق للحساب. ودّعت في نهار قاتم كثيراً من معارفها، حملهم ملاك الموت من أديم القرية إلى عنفوان السّماء: لن يروا مويجات الفرات، وزهرات التّفاح في شباط، ورفيف النّوارس فوق غابات النّخيل. لن يروا أحفادهم، وهذا من أغرب الحكايات في بلاد الرّافدين. فقد رأت الصّاروخ الأمريكيّ المنطلق من طائرة عابرة، كأنّه شيطان نازل من السّماء، رأته برعب، وقد مرق في سماء النّخيل، وهام على سطح الفرات المحاط بالدّغل. وهي لا تفقه ما الذي يجري. لم تطّلع على فلسفة ماركس وهيغل وشوبنهاور، ولم تسمع بعالم اسمه آينشتاين. كما لم تطلّع على روايات نجيب محفوظ، وغائب طعمة فرمان، وفؤاد التّكرلي، ولا قرأت علي الورديّ. كانت كثيراً ما حدّثته عن تلك الليلة البعيدة، ليلة ولادته بين رائحة البخور، وأنفاس النّساء المتجمّعات حولها وهنّ

ينتظرن المولود البكر. أخبرته عن أبيه الذي كان غائباً في مدينة كركوك حيث اشتغل سائقاً لرافعة سلكيّة، ولا يحضر إلى البيت إلّا كلّ أسبوعين. يلبث يوماً أو يومين ليعود سريعاً إلى شركته الألمانيّة. كان يجلب من هناك، تخبره بابتسامة على وجهها العريض، الجوز والتين واللوز والعنب كلّما رجع ليلاً إلى بيته. أخبرته إنّ جدّه ظلّ الليل ساهراً في حوش الدّار دون أن يكفّ عن تدخين سيجارته اللفّ منتظراً مثل الآخرين ولادة الحفيد. وأبوه يمدّه كلّ شهر بكيلو من تبغ أربيل زوّادة لعادته السّيئة في التّدخين وكان يبتدئ به فجره بعد الصّلاة ثمّ لا يكفّ عنه حتّى يضع رأسه على المخدّة. حدّثته عن تلك الليلة، النّساء اللواتي كنّ حاضرات ليلة الولادة، وقد مات أغلبهنّ، ومنهنّ جدّته ذات الاسم العجيب (دلّة) التي قضى عليها الرّبو، مثل ربو زوجته المترهّلة، (براء) الجميلة. ومثل حلم غامض، ومشتّت، كان يبصرها في ذاكرته في تلك الليلة التي تحلّقوا حولها وهي تحتضر. جدّته (دلّة). كان صغيراً جدّاً يندسّ بين الرّجال والنّساء الجالسين في ضوء فانوس خفيف الضّوء ينتظرون نهاية رحلتها. حدث ذلك قبل أكثر من ستين سنة. احتفظت ذاكرته بتلك الليلة الشّتائيّة دون أن يدرك الحكمة وراء ذلك. أجل، كلهنّ مدفونات في مقبرة القرية. وظلّ قبرها على حافة الصّحراء عارياً إلّا من العشب، لكنّ القبّرات تطير في الفضاء، والشّمس تسكب أشعّتها كلّ يوم، وقطرات المطر تسقط في الشّتاء حزينة. دفن أخوه (فؤاد) جوار قبرها، وأوصى ابنه (بشير) أن يدفن جنبهما.

ما هي السعادة؟ كيف هو الشّقاء؟ ما الجدوى من الولادة، وما الجدوى من الموت؟ حملت أمّه تلك الأسئلة إلى قبرها، وهي أسئلة الجميع بمن فيهم (رسول): أيّها الشّاعر المشلول، الحالم

بالطّيران فوق الحقول والصّحارى بقلب حزين، نجحت في أن تصبح شاعراً وعليك أن تغادر هذه الحياة السّريعة، الزّائلة، وكأنّها عصف ريح. وثمّة ضجيج حوله دفعه إلى أن ينهض رأسه عن المخدّة بصعوبة، ويحدّق في النّهر. الفضاء مغبّر خارج النّافذة. يرى جسداً عملاقاً هائلاً وهو يسبح على هيئة جنديّ أسود كان ينحدر من الغرب إلى الشّرق. يخض المياه الفراتية حوله ويصنع مويجات تضرب الضّفّتَين. جسد منتفخ لجنديّ أمريكيّ يختضّ بين ضفّتَيْن. وقال لنفسه لا يمكن أن يعقل، هذا الجنديّ يسافر إلى بغداد، وقبل أن تكتمل دهشته أعقب مسير الجندي طفل لا يقلّ ضخامة عن الجنديّ، يسافر بسرعة هذه المرّة. هل هو رمز للأطفال القادمين؟ أطفال اليورانيوم المنضّد الذي حدّثه عنهم صديقه الألمانيّ (جورج)؟

وهو في هذه الأفكار والمشاهد يتصاعد الأزيز والصّفير والفوضى، وتأتي رائحة قاتلة تنبعث من الأكداس العملاقة لمعادن اليورانيوم، والبارود، والقنابل الانشطاريّة، وحاويات الفوسفور المعدّ لحرق الزّرع والبشر. هذا الكدس المتضخّم يقفز في نهر الفرات قفزاً، يعدّ العدّة لمجزرة في مكان ما. قلبه ينقبض، عيناه تشعّان بالرّعب، أفكاره تأخذه إلى عالم الغيب. وفي النّهاية يستسلم، ويطلب الرّحيل عن هذه الأرض. لا دور له، نضبت طاقته في هذا العالم المحسوس، عالم الأرض والتّراب. وقبل أن يغيب عن وعيه قدّمت موجة هائلة من النّفط الأسود، وصلت ذيولها حتّى السّماء، وقد هربت الزّرازير، والغربان، الهداهد والحمام، الثّعالب والدّعالج والسّحالي. وهربت سنابل القمح، وحمير القرية، ونساء الحصاد.

لقد مضى زمنه دون رجعة، ودون أسف، فلكلّ زمان رجاله، كما تقول الأمثال العربيّة.

***

يتصاعد موج النّفط فيطغي على كلّ شيء. لم يعد سويّاً ولم يعد يميّز بين اليمين والشّمال، وراح يقرأ آيات الموت في كلّ شيء تقع عليه عيناه. هل يستطيع كائن حيّ الهروب من السّرّ الأعظم؟ حتّى لو كان شاعراً مثله؟ كان جدّه شاعراً، لكنّه يقول ولا يكتب، مثله تماماً: وأنت تكتب في رأسك دون حاسوب أو قلم أو ورقة، وستغنّي له ليل يا ليل يا ليل، قبرك يا قبرك ماذا يختفي في ترابك؟ يتخيّل ذلك منذ اللحظة تحلّلت جثّته بعد أيّام فقط من الدّفن. يمتلك مخيّلة شاسعة كانت ترهقه حتّى قبل أن يصبح مقعداً. أين اختفى كلّ ذلك؟ الشّباك الواسع يحمل عينَيه إلى المنظر الرّهيب القادم من الشّمال، تلك الظّلمة العلويّة المتحرّكة مثل إله العالم السّفليّ. ظلمة تطغي على غابات النّخيل البعيدة، وعلى حديد الجسر العاكس لوهج شمس تهمّ بالمغيب، وستغيب وتتركه وحده. وعلى مسيل النّهر مرّت قوارب الجثث تتمايل مع النّسيم تحلّق فوقها الغربان، وكان أبوه يلوّح له من خلف النّافذة. تختفي من السّماء طيور الزّرازير والحمام والنّوارس، فالعاصفة التّرابيّة تتقدّم ببطء وتنتشر في الآفاق كلّها، ثمّ وجد روحه وسط صحراء الجزيرة واقفاً، ضاحكاً، ساخراً من العمر المتلاشي مثل ومضة سيجارة رخيصة. يقف ملوّحاً للسّماء البعيدة، وينخطف إلى أعماق الكون. هناك حيث سيسافر ذات يوم. ولكنّ سرعان ما يعود إلى تلك العاصفة التي تتقدّم من شباكه، ثمّ يشعر من عمق مدوخ بأنّه

وحده، وها إنّ شيئاً في داخله يتمدّد وكأنّه فراغ وجوديّ رهيب، فالجسد آلة محكمة الصّنع، وتعمل بتناغم تامّ لكي تنجح في حمل الحاكم الأوحد، الرّئيس المطلق، الدّماغ، في مهمّته العسيرة بقيادة الكائن البشريّ منذ الولادة وحتّى الفناء الأبدي. تعطّلت تلك الآلة وظلّ العقل يعمل لوحده، لكنّ ذلك يعارض قانون الحياة، وسيتوقّف في النّهاية. يحاول أن يصرخ من رعب هذه الحقيقة، منادياً (بشير)، لكنّ لسانه لا يستجيب، وحنجرته ناشفة. وحيد في الغرفة، مثل جرادة في صحراء، وتلك العاصفة تتجه نحوه.

الأشباح خلف النّافذة، الطّيور أشباح وكذلك البيوت والنّخيل والأشجار وزنابق الماء، والسّواد يطبق على كلّ شيء في الدّاخل والخارج. وسط المشهد الغائم، المتغيّر، يأتي هذه المرّة بهيئته الشّيطانيّة دون أيّة مواربة أو تضليل. له جناحان أسودان وله عينان حمراوان وفم داكن مطبق الشّفتَين مثل وجه جرادة عملاقة، والقرنان مثبتان في جبهته، وإضافة للجناحَين راح يحرّك يديه الغريبتَين، الطّويلتَين اللتين تنتهيان بمخالب وحشيّة. وعلى صدره الأسود غائم الملامح ترتسم تويجات حمراء لزهرة جهنميّة، وهو يتراقص خلف النّافذة مثل نحلة عملاقة تروم تحطيم الزّجاج والدّخول إلى الغرفة. ويهمس له بصوت رقيق حان يتناقض تماماً مع حضوره المباغت:

- ستغادر هذه الأرض إلى الأبد، تغادرها مطبق الجفنين دون أسف، دون حزن، دون بكاء، الفراغ المطلق فقط، الغيبوبة الكبرى التي لا تعرف ما سيأتي بعدها.

يهجم عليه الرّعب من كلّ جانب، من الجدران والأجهزة الطّبيّة والأرضيّة المفروشة بالكاشي النّظيف، ويهجم عليه الرّعب من

داخله، من كلّ خلية من خلاياه المؤهّلة للرحيل. تتحوّل حياته إلى ظلال، وكأنّه بعد أن أفرغ ذاكرته لم يعد سوى محارة فارغة. ثمّ على حين غرّة يحمله ذلك الشّيطان الذي تجسّد على هيئة عقاب عملاق، بين مخالبه، ليطير به نحو الكواكب والمجرّات.